جمهورية مصر العربية
وزارة الثقافة والاعلام

صور من دور الأزهر
في
مقاومة الاحتلال الفرنسي لمصر في أواخر القرن الثامن عشر

اهداءات ٢٠٠١

الأستاذ الدكتور / عبد الفتاح منصور

جمهورية مصر العربية

وزارة الثقافة والاعلام

صور من دور الأزهر

فى

مقاومة الاحتلال الفرنسى لمصر فى أواخر القرن الثامن عشر

للأستاذ الدكتور

عبد العزيز محمد الشناوى

أستاذ كرسى التاريخ الحديث بجامعة الأزهر

مطبعة دار الكتب

١٩٧١

من نقاط البحث الرئيسية

- سياسة بونابرت الإسلامية ؛
- حكومة الديركتوار تضع خطة عمل دبلوماسى تحدد المركز القانونى لمصر تحت الحكم الفرنسى ؛
- مظاهر من سياسة بونابرت الإسلامية ؛
- الأزهر يتنادى إلى الثورة فى أكتوبر ١٧٩٨ ؛
- السبب الرئيسى لثورة أكتوبر ؛
- عوامل مشجعة : تحطيم الأسطول الفرنسى ، استحالة وصول تعزيزات عسكرية من فرنسا ، اندلاع ثورتين فى المنصورة ودمياط ؛
- عوامل مساعدة : النسائيات — القاهرة الخليعة — تعيين يونانى شرس وكيلا لمحافظ القاهرة — استيلاء المسيحيين على إيراد الأوقاف الإسلامية — استعلاؤهم على المسلمين — إعدام محمد كريم — القروض الإجبارية — التشريعات المالية ؛
- تكوين مجلس الثورة وأساليبه فى تحريك ثورة هادرة ؛
- مجلس الثورة يحدد ساعة الصفر ؛
- الأزهر مركز الثورة ؛
- عرض سريع لأحداث الثورة ؛
- بونابرت يأمر بهدم الجامع الأزهر ليلا إذا أمكن ؛

بسم الله الرحمن الرحيم

فى صيف ١٧٩٨ هبطت أرض مصر حملة فرنسية يقودها الجنرال بونابرت ، وكانت هذه الحملة أول غزو عسكرى أوروبى فى التاريخ الحديث لبلد عربى إسلامى من بلاد الدولة العثمانية ، وإذا كان هذا الغزو قد سبقته سيطرة الدول الاستعمارية الكبرى : بريطانيا وفرنسا وهولندا ، على دول وإمارات إسلامية فى أواسط آسيا ، وجزر الهند الشرقية ، والهند ، إلا أن هذه السيطرة الأوروبية المبكرة لم تمس قلب العروبة ، كما فعلت حملة بونابرت على مصر .

سياسة بونابرت الإسلامية

أدرك بونابرت فى وقت مبكر أنه مقدم على تجربة جديدة فى حكم شعب شرقى ، له حضارة تليدة ، وتختلف ديانته ولغته وثقافته وتقاليده عن مثيلاتها لدى الشعوب الأوروبية ، ولذلك اتجهت أنظار بونابرت من أول الأمر إلى الأزهر وإلى المشايخ علماء الأزهر ، على أساس أن الأزهر هو مركز الدراسات العليا الإسلامية العربية فى مصر ، وأنه يتبوأ مكاناً علياً فى العالم الإسلامى : وقد قرر فى مذكراته التى أملاها فى منفاه بجزيرة سانت هيلانه ، أن الأزهر يقابل جامعة السوربون La Sorbonne فى باريس ، وأنه أشهر جامعة فى الشرق.[1]
ونظر بونابرت إلى المشايخ علماء الأزهر نظرة إجلال وتقدير عميقين ،

(1) Napoléon Ier; Guerre d'Orient. Campagnes d'Egypte et de Syrie, 1798-1799. Mémoires pour servir à l'histoire de Napoléon dictés par lui-mêne à Sainte-Hélène et publiés par le général Bertrand, Paris, 1847, 2 vols. t. I, p. 212.

استناداً إلى أن لهم صفتين : الصفة الأولى أنهم الصفوة الممتازة من الطبقة المستنيرة فى البلاد ، المتعمقون فى الدراسات الدينية واللغوية ، أو السوربونيون[1] Les Sorbonistes ، وعلى مبلغ علمى ، كان بونابرت أول من أطلق على المشايخ علماء الأزهر المصطلح الجامعى الحديث « دكاترة الشريعة[2] » Les Docteurs de la loi ، وأما الصفة الثانية فهى أنهم زعماء الشعب المصرى ، اعتاد أن يفزع إليهم فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر بوجه خاص ، عندما انهالت عليه المظالم من يمين ويسار ، فكان علماء الأزهر يتدخلون لدى الحكام لرفع المظالم عن الشعب الكادح . وفى ظل الأوضاع التى كانت سائدة فى مصر وقتذاك ، كان علماء الأزهر فعلا ، وفى نظر بونابرت ، أكثر عناصر المجتمع المصرى نفوذاً وهيبة ، وعلماً واحتراماً ، واستقراراً .

وقد أرسى بونابرت مبادئ عامة للسياسة التى اعتزم انتهاجها فى حكم المصريين ، وأطلق المؤرخون الأوروبيون على هذه السياسة المصطلح التاريخى : سياسة بونابرت الإسلامية[3] La Politique Musulmane de Bonaparte ، وقامت هذه السياسة على إظهار الاحترام العميق للدين الإسلامى ، والتقاليد الدينية ، وإسهام الجيش الفرنسى إسهاماً رسمياً مع الشعب المصرى فى الاحتفال بالأعياد

---

(١) من مدلولات هذه اللفظة باللغة الفرنسية : الحائزون لدرجة الدكتوراه فى العلوم الدينية من جامعة السوربون .

(٢) انظر على سبيل المثال ما جاء فى مذكراته السابق الإشارة إليها .

t. I. pp. 369-371.
t. II p. 152.

وانظر جريدة :

Courrier de l'Egypte. No. 6. Le 2ème jour complémentaire, VIè année de la République. p. I.

(3) Charles-Roux (F.); La Politique Musulmane de Bonapatte. Revue des Etudes Napoléoniennes. XIV° année t. I, janvier-février, 1925, pp. 23-47.

الدينية الإسلامية وغيرها من الأعياد التى كانت الجماهير تحتفل بها ، والتقرب إلى المشايخ علماء الأزهر ، وإعطاء كبارهم مزيداً من النفوذ ، وقدراً من السلطة ، باختيارهم أعضاء فى ديوان القاهرة ، وسائر الدواوين التى اعتزم إنشاءها فى أقاليم مصر ، وبذلك يضفى على حكومته الطابع الإسلامى ، على أن يمارس المشايخ علماء الأزهر ذلك النفوذ وهذه السلطة ، تحت إشراف الفرنسيين ومراقبتهم :

وقد وضع بونابرت فى ذهنه أن يتخذ من هؤلاء المشايخ العلماء أداة يوضحون له المسائل التى يستعصى عليه تفهمها من ناحية ، ويشرحون لجماهير الشعب حقيقة المشروعات التى يعتزم تنفيذها من ناحية ثانية ، وينقلون إلى السلطات الفرنسية مشكلات الجماهير وشكاياتهم من ناحية ثالثة . وكان قيام المشايخ علماء الأزهر بهذا الدور — فى تقدير بونابرت — كفيلا بتنقية الجو بين الحاكم والمحكومين ، وقطع دابر مروجى الشائعات ، وأهم من ذلك كله ، كسب تأييد علماء الأزهر للحكم الفرنسى ، ويكون لهذا التأييد أصداء بعيدة فى نفوس جماهير الشعب المصرى ، فيخلدون إلى السكينة ، وعدم المقاومة : وكان نجاح هذه السياسة الإسلامية — إذا قدر لها النجاح — مؤدياً فى آخر الأمر إلى إنشاء المستعمرة الفرنسية التى أرسلت حكومة الديركتوار صفوة العلماء الفرنسيين والقادة العسكريين ، لمعاونة القائد العام للحملة على إنشائها [1] ، وبعبارة أخرى ، كان الهدف النهائى من هذا التنظيم هو توطيد دعائم الحكم الفرنسى فى مصر ، وقد أفصح بونابرت فى مذكراته عن البواعث التى أملت

(١) دكتور محمد فؤاد شكرى : الحملة الفرنسية وظهور محمد على . القاهرة . لم تذكر سنة الطبع . الناشر : دار المعارف ، ص ١٦٣ .

عليه التقرب إلى المشايخ علماء الأزهر : فقال : إنهم زعماء الشعب المصرى[1] ، وإنهم ظفروا بثقة ومودة سكان مصر على بكرة أبيهم ، ومضى يقول : إن مشاعر الغيرة والحقد قـد افتعلت فى نفوس الأتراك العثمانيين والمماليك على علمـاء الأزهر ، فجعلتهم يعملون على إقصاء هـؤلاء العلماء عن المشاركة فى تصريف الشئون العامة . وقرر بونابرت أنه كان من خطل الرأى أن يحذو الفرنسيون حذو الأتراك العثمانيين والمماليك فى انتهاج هذه السياسة ، كما أنه كان فى حكم الاستحالة أن يتطـلع الفرنسيون إلى ممارسة نفـوذ سريع على المصريين ، لأن الفرنسـيين أغراب عن الشعب المصرى ، ومن ثم كانت الحاجة ماسة — فى نظـر بونابرت — إلى وسطاء بين الحكام الفرنسيين وبين جماهير الشعب ، ثم قال : « وقد فضلت العلماء ودكاترة الشريعة ، لأنهـم أولا : هم كذلك بطبيعة الحال ، وثانياً : لأنهم هم مفسرو القرآن ، وإن أكبر العقبات التى واجهتنا ، وسوف تواجهنا أيضاً ، إنما تنبثق عن الأفكار الدينية ، وثالثاً : لأن هؤلاء العلماء ذوو طباع هادئة ، ويحبون العدالة ، وعلى درجة من الثراء ، وأصحاب مبادئ خلقية عالية ، وهم بدون منازع أكثر الناس أمانة فى مصر ، ولا يركبون الخـيل ، ولا يمارسون أعمالا عسكرية ، ولا ينتظر منهم تزعم حركة مسلحة »[2] .

(١) قال بونابرت فى مذكراته « إن العلماء كبار المشايخ هم قادة الشعب العـربى » . وكان يقصد المصريين بعبارة الشعب العـربى ، لأنه ذكر بعد ذلك مباشرة أن هؤلاء العلماء ظفروا بثقة ومحبة جميع سكان مصر ، ويلاحظ أيضاً أن بونابرت والكتاب الفرنسيين المعاصرين للحملة وعلمائها كانوا يطلقون لفظة « العرب » على المصريين عموماً ، سواء فى الريف أو فى الحضر ، ولم يقصروا استعمال هذه اللفظة على عرب البادية ، كما جرت عادة الناس حتى ذلك الوقت .

انظـر :

محمد شفيق غربال : منهاج مفصل لدروس العوامل التاريخية فى بناء الأمة العربية على ما هى عليه اليوم . مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية ، القاهرة ، ١٩٦١ ، ص ١٤٤ .

(٢) كان مما جاء فى مذكرات بونابرت :

"Les ulémas, les grands cheykhs sont les chefs de la nation arabe; ils ont la confiance et l'affection de tous les habitans *(sic)* de =

دبلوماسية حكومة الديركتوار

وبجانب هــذه السياسة الإسلامية التى اعتزم بونابرت انتهاجها فى حكم الشعب المصرى ، كانت هناك خطة عمل دبلوماسى وضعت بعناية فى وزارة الخارجية الفرنسية قبل إبحـار الحملة إلى مصر ، وكان من بين أهداف هــذه

--- l'Egypte, c'est ce qui a, dans tous les temps, inspiré aux Turcs et aux Mamelouks tant de jalousie contre eux, et les a décidés à les tenir loin du maniement des affaires publiques. Je n'ai pas cru devoir imiter cette politique. Il nous est impossible de prétendre à une influence immédiate sur des peuples pour qui nous sommes si étrangers. Nous avons besoin pour les diriger d'avoir des intermédiaires; nous devons leur donner des chefs, sans quoi ils s'en choisiront eux-mêmes. J'ai préféré les ulémas et les docteurs de la loi.

1e. parce qu'ils l'étaient naturellement.

2e. parce qu'ils sont les interprètes du Coran, et que les plus grands obstacles que nous avons éprouvé et que nous éprouverons encore, proviennent des idées religieuses.

3e parce que ces ulémas ont des mœurs douces, aiment la justice, sont riches et animés de bons principes de morale. Ce sont sans contredit les plus honnêtes gens du pays. Ils ne savent pas monter à cheval, n'ont l'habitude d'aucune manœuvre militaire, sont peu propre à figurer à la tête d'un mouvement armé. Je les ai interéssés à mon administration. Je me suis servi d'eux pour parler au peuple; j'en ai composé les divans de justice; ils ont été le canal dont je me suis servi pour gouverner le pays.....»

انظــر :

Napoléon 1er; Guerre d'Orient. etc., ouvr. cit., t. II, pp. 151-152.

ولا شك أن بونابرت كان يتجاهل الأحداث التاريخية حين قرر فى مذكراته أن علماء الأزهر لا ينتظر منهم أن يتزعموا حركة مسلحة ، والواقع أن علماء الأزهر قادوا ثورة هادرة فى أكتوبر ١٧٩٨ على الحكم الفرنسى ، ثم اشتركوا فى قيادة ثورة عارمة فى شهرى مارس وإبريل ١٨٠٠ على هذا الحكم أيضاً ، وقادوا ثورة ثالثة فى سنة ١٨٠٥ على وال عثمانى ظالم هو خورشيد باشا ، وهى الثورة التى جاءت بمحمد على والياً على مصر ، وكان الشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الجامع الأزهر ، والسيد عمر مكرم نقيب الأشراف من زعمائها ، ومن المعروف أن بونابرت أملى مذكراته وهو فى منفاه فى جزيرة سانت هيلانة عقب هزيمته فى معركة وترلو Waterloo سنة ١٨١٥ ، بمعنى أنه عاصر هذه الثورات الثلاث ، واشترك فى إخماد الثورة الأولى .

الخطة الإبقاء على العلاقات الدبلوماسية بين الدولة العثمانية وبين فرنسا ، وإظهار فرنسا بمظهر الدولة الحليفة للسلطان ، الحريصة على احترام السيادة العثمانية على مصر ، وأنها لم توجه حملتها العسكرية إلى مصر إلا ابتغاء القضاء على الأمراء المماليك الذين استأثروا بالحكم ، وتجاهلوا حقوق السلطان ، وأوغلوا فى الإساءة إلى الرعايا الفرنسيين . وكان فى تقدير بونابرت أن هذه الخطة الدبلوماسية تهيىء مناخاً صحياً للحملة فى مصر لإعلان صداقة فرنسا للسلطان ، الأمر الذى يخفف من مقاومة الشعب المصرى للحملة ، ويجعله يتقبل الحكم الفرنسى فى ظل سيادة عثمانية اسمية ، وبعبارة أخرى يقوم نوع من التعايش السلمى بين المصريين وبين الفرنسيين فى مصر (١) .

---

(١) قامت خطة العمل الدبلوماسى على إجراء مفاوضات سياسية مع الباب العالى فور نزول القوات الفرنسية الأراضى المصرية ، وأن تعمل السفارة الفرنسية فى الآستانة على إطالة أمد المفاوضات شهرين أو ثلاثة أشهر كسباً للوقت ، ريثما يتمكن بونابرت من توطيد مركز الحملة عسكرياً فى مصر ، وبذلك يقوى مركز المفاوض الفرنسى ، ويضع رجال الباب العالى أمام الأمر الواقع .

ووضعت الخطة على أساس تقديم مشروع ، فإذا رفضه الباب العالى قدم المفاوض الفرنسى مشروعاً ثانياً ، ويقوم المشروع الأول فى خطوطه الرئيسية على احتفاظ السلطان بالسيادة الإسمية على مصر ، مع وجود القوات الفرنسية بها ، فيعين السلطان نائباً عنه فى مصر يحمل رتبة باشا ، ويكون لهذا الباشا رياسة شكلية على الحكومة المصرية ، ويتولى الفرنسيون حكم مصر ، بدلا من الأمراء المماليك ، وتدفع فرنسا بانتظام للسلطان جزية سنوية قدرها ألف وخمسمائة كيس (الكيس خمسة جنيهات) ، ويتعهد الفرنسيون باحترام ديانة المصريين وأرواحهم وممتلكاتهم ، أما المشروع الثانى فيقوم على تنازل الدولة العثمانية لفرنسا عن مصر ، فى مقابل استيلائها على الجزر الأيونية ، وتتعهد فرنسا بمساعدة الدولة العثمانية على استرداد بعض الولايات التى فقدتها مثل بلاد القرم ، وكانت روسيا قد انتزعتها منها بمقتضى معاهدة كتشك كينارجى عام ١٧٧٤ .

وكان منصب سفير فرنسا فى الآستانة شاغراً فى ذلك الوقت ، منذ أن توفى فجأة أوبير دیبایه Aubert Dubayet السفير الفرنسى فى أواخر سنة ١٧٩٧ ، وكان يمثلها قائم بالأعمال ، يسمى روفا Ruffin ، ورأت حكومة الديركتوار ضرورة الإسراع بشغل هذا المنصب ، وتعيين أحد الدبلوماسيين البارزين ، واقترح بونابرت أن يكون هذا السفير هو تاليران Talleyrand وزير الخارجية الفرنسية نفسه ، وأن يتسلم مهام منصبه فى أوائل شهر مايو ١٧٩٨ قبل تحرك الحملة إلى مصر — وكان مقرراً لوصولها شهر أغسطس ١٧٩٨ — حتى يكون وجود السفير =

مظاهر من سياسة بونابرت الإسلامية

تلاحقت مظاهر سياسة بونابرت الإسلامية وهو لايزال فى عرض البحر المتوسط ، فى طريقه إلى مصر ، وتمثلت المظاهر الأولى فى عدة منشورات ، كتبها وهو على ظهر بارجة القيادة أوريان Orient ، فأصدر منشوراً مؤرخاً فى الثانى والعشرين من يونيو ١٧٩٨ إلى جيش الشرق ، وأذيع على الجنود فى الثامن والعشرين من يونيو ، أى قبل وصول الحملة إلى الإسكندرية بيومين ، وقد أوضح بونابرت للجنود أن الشعب المصرى يدين بالإسلام ، وأن أول ركن من أركان الدين الإسلامى هو الشهادتان « لا إله إلا الله ، محمد

= الفرنسى فى الآستانة ، مخففاً للأثر السيىء الذى يتركه فى دوائر الباب العالى نزول القوات الفرنسية فى مصر ، وأن يتخذ الإجراءات للمحافظة على سلامة الرعايا الفرنسيين ، وأن يبذل مزيداً من الجهود لتبديد شكوك الباب العالى ومخاوفه من فرنسا ، وأن يشرع فوراً فى إجراء المفاوضات على النحو الذى شرحناه .

ولم ينفذ شىء مما جاء فى خطة العمل الدبلوماسى لعدة أسباب ، كان من أبرزها إحجام تاليران عن الذهاب إلى الآستانة سفيراً لفرنسا ، ونشاط الدبلوماسية الإنجليزية والروسية ، وتحطيم الأسطول الفرنسى فى معركة أبى قير البحرية ، وتلكؤ باريس فى تعيين سفير لها فى الآستانة بدلا من تاليران ، فلم يصدر قرار بتعيين ديكورش Descorches سفيراً فى الآستانة إلا فى الثانى من سبتمبر ١٧٩٨ ، وبينما كان يستعد للسفر إلى مقر منصبه ، كانت الحكومة العثمانية قد حددت موقفها بشكل نهائى وحاسم من العدوان الفرنسى على مصر ، فأصدرت فى التاسع من سبتمبر ١٧٩٨ منشوراً ضد فرنسا والحملة الفرنسية ، ثم اعتقلت فى آخر سبتمبر روفا القائم بالأعمال الفرنسى ، وأودعته قلعة الأبراج السبعة المسماة يدى قولة ، وألقت القبض على رعايا فرنسا ، وزجت بهم فى السجون ، وكان هذا الإجراء التقليدى بمثابة إعلان الحرب على فرنسا .

انظر بخصوص خطة العمل الدبلوماسى التى قامت بجانب سياسة بونابرت الإسلامية ، واعتبرت مكملة لها ، كلا من :

La Jonquière (C.); L'Expédition d'Egypte 1798 - 1801. Paris, Charles - Lavauzelle, 1899 - 1907. 5 vols. t. II. pp. 587-609.

Shafik Ghorbal; The Beginnings of the Egyptian Question and the Rise of Mehemet Ali. A Study in the Diplomacy of the Napoleonic Era based on Researches in the British and French Archives. London, 1928. pp. 35 - 36.

رسول الله » ، فلا ينبغى على الفرنسيين معارضة المصريين فى عقيدتهم الدينية ، أو تخطئتهم فيها ، بل عليهم أن يسلكوا معهم نفس المسلك الذى انتهجوه من قبل مع اليهود والإيطاليين ، وعليهم أن يظهروا نحو المشايخ والأئمة الاحترام الذى أظهروه لحاخامات اليهود وأساقفة المسيحيين ، وعليهم أن يكونوا متسامحين حيال الأعياد والاحتفالات التى يذكرها القرآن الكريم ، وأن يحترموا المساجد كما يحترمون كنيس اليهود وكنائس المسيحيين والأديرة ، وأن يحترموا ديانة محمد ، كما يحترمون ديانة موسى وديانة المسيح ، ومضى بونابرت فى منشوره يقول للجنود : إن فى مصر عادات تختلف عن العادات فى أوروبا ، فلا مناص من أن يعتادها الجنود ويألفوها ، وذكر أن معاملة المصريين للسيدات تختلف عن معاملة الفرنسيين لهن ، وقال : إن الشخص الذى يعتدى على سيدة فى أى بلد من بلاد العالم إنما هو شخص دنئ ، وحذر بونابرت جنوده من ارتكاب أعمال النهب ، وقال إن مثل هذه الأعمال تثرى أقلية ضئيلة من رجال الجيش ، ولكن ضررها ينسحب ويمتد إلى كل الفرنسيين ، ويجعلهم موضع كراهية شديدة من الشعب المصرى ، وأكد لهم أن مصلحة الفرنسيين تتطلب اكتساب صداقة المصريين وودهم (١) .

ويعتبر هذا المنشور من المعالم الأولى لسياسة بونابرت الإسلامية ، وقد أراد أن يحمل جنوده على التزام هذه السياسة ، ويلاحظ أن توزيع هذا المنشور كان مقصوراً على العسكريين الفرنسيين دون سواهم ، وقد جاء فى صورة أمر عسكرى واجب التنفيذ ، صدر عن القائد العام لجيش الشرق ، ولم يعلم به الشعب المصرى ، واستهدف بونابرت منه اجتذاب قلوب المصريين نحو

(1) Napoléon 1er; Correspondance de Napoléon 1er, publiée par ordre de l'Empereur Napoléon III. Paris, Henri Plon, 1858 - 1870, 32 vols. t. IV; doc. no. 2710, en date du 4 Messidor VI° année de la République (22 juin, 1798).

الفرنسيين ، إذ يرون جيشاً أوروبياً مسيحياً يستولى على بلادهم عنوة ، ولا يلجأ إلى أعمال النهب والسلب ، والقتل وانتهاك الحرمات[1] .

* * *

وكتب بونابرت أيضاً وهو على ظهر البارجة أوريان منشوراً باللغة الفرنسية موجهاً إلى الشعب المصرى شرح فيه الخطوط الرئيسية للسياسة التى يعتزم انتهاجها فى مصر ، وقام المستشرقون المرافقون للحملة بترجمة المنشور إلى اللغة العربية ، وساعدهم مترجمون من الأسرى المسلمين الذين كان فرسان القديس يوحنا قد اعتقلوهم فى جزيرة مالطة منذ سنوات طويلة ، وألقوا بهم فى غيابة السجن ، وأطلق بونابرت سراحهم عقب استيلائه على الجزيرة وهو فى طريقه إلى مصر[2] ، وقد جاءت الترجمة غير دقيقة وفى أسلوب ركيك ،

(١) بلغ من حرص بونابرت على تنفيذ هذه السياسة أنه أصدر عقب استيلائه على الإسكندرية أمراً عسكرياً إلى قادة الجيش ، طلب فيه ضرورة احترام الدين الإسلامى ، والمحافظة على أرواح الأهالى وممتلكاتهم ، وإطلاق الحرية التامة للمصريين فى إقامة الصلاة فى المساجد ، كما كانوا يفعلون من قبل ، وتحريم دخول أى فرنسى ، سواء كان عسكرياً أو مدنياً المساجد ، ومنع الفرنسيين من الاحتشاد أمام أبوابها ، وأمر بونابرت فى هذا المنشور قادة الجيش بأن يصدروا الأوامر لجميع ضباط الكتائب بإذاعة هذه الأوامر على الجنود ، والتنبيه عليهم بتجنب أعمال السلب والنهب ، ومعاقبة كل من يخالف هذه الأوامر بالإعدام رمياً بالرصاص . وأمر أيضاً بأن يدفع الجنود أثمان السلع التى يبتاعونها ، وأن تكون الحرب محصورة بين الفرنسيين والمماليك .

انظر نص هذا المنشور فى :

Correspondance de Napoléon; t. IV, doc. no. 2734 en date du 15 Messidor, VIè année de la République (3 juillet, 1798).

(٢) استغل بونابرت هذا الحادث سياسياً ، تمشياً مع خطة العمل الدبلوماسى التى أشرنا إليها ، فعهد إلى الجنرال شابو Chabot قائد الحامية الفرنسية فى جزيرة كورفو بالاتصال بالقائم بأعمال السفارة الفرنسية فى الآستانة وهو روفا Ruffin ليقوم بإبلاغ الباب العالى أن الجيش الفرنسى قد أطلق سراح الأسرى المسلمين فى جزيرة مالطة ، عقب سحق قوات فرسان القديس يوحنا ، وكان المعتقلون المسلمون أخلاطاً شتى من الأتراك والمغاربة والشوام وغيرهم ، وكلهم من رعايا الدولة العثمانية ، وبلغ عددهم سبعمائة أسير : قدم لهم بونابرت الملابس والنقود والأطعمة قبل السماح لهم بالسفر إلى بلادهم .

انظر ما كتبه بونابرت عنهم فى مذكراته :

Napoléon 1er; Guerre d'Orient. etc., ouvr. cit., t. I, p. 133.

وأضيفت إليها — بتوجيه من بونابرت — عبارات لم ترد فى الأصل الفرنسى كما سنرى ، وأمر بونابرت بطبع الترجمة العربية للمنشور ، والحملة لا تزال فى عرض البحر ، حتى يكون المنشور معداً للتوزيع على أفراد الشعب المصرى بمجرد وصول الحملة إلى الإسكندرية ، وكان بونابرت قد أحضر مع الحملة مطبعة مزودة بالحروف الفرنسية واليونانية والعربية التى جمعها من باريس ، ثم استكمل لها الحروف العربية الناقصة من مطبعة البروباجندا فى روما [١] ، ولما نزلت الحملة فى الإسكندرية فى يوم الاثنين الثامن عشر من محرم ١٢١٣ الموافق الثانى من يوليو ١٧٩٨ وزع المنشور على المصريين ، كما أرسلت نسخ منه إلى القاهرة مع أسرى مالطة ، فوزعوه فى العاصمة قبل وصول الفرنسيين إليها .

بدأ بونابرت منشوره إلى الشعب المصرى بهذه العبارات الدينية : « بسم الله الرحمن الرحيم ، لا إله إلا الله ، لا ولد له ، ولا شريك له فى ملكه [٢] . من طرف الفرنساوية المبنى على أساس الحرية والتسوية [٣] السر عسكر [٤] الكبير أمير الجيوش الفرنساوية بونابرته ، يعرف أهالى مصر جميعهم أن ...... »

(١) كان بونابرت قد كتب إلى مونج Monge العالم الفرنسى فى الرياضيات وإلى الجنرال ديزيه Désaix ، وكانا فى روما ، يطلب منهما الاستيلاء على القسم العربى من مطبعة البروباجندا ، وأن يتعاقدا مع بعض المترجمين من الشرقيين المقيمين فى إيطاليا ، وقد تم التعاقد مع الخواجه إلياس فتح الله ، والخواجه يوسف مسابكى وغيرهما .

(٢) يلاحظ أن الأصل الفرنسى جاء خالياً من هذه العبارات الدينية ، وقد استهل بونابرت المنشور بهذه العبارة :

« بونابرت عضو المجمع العلمى القومى ، والقائد العام لجيش الشرق » .

ويلاحظ أيضاً على الترجمة العربية أنها ذكرت إحدى الشهادتين وهى : «لا إله إلا الله» وأغفلت الشهادة الثانية وهى : « محمد رسول الله » .

(٣) التسوية يقصد بها المساواة L'égalité .

(٤) السر عسكر ، مصطلح تاريخى ، يتكون من كلمتين : إحداهما فارسية والأخرى عربية ، ومعنى هذا المصطلح رئيس الجند ، أو القائد العام .

= وهذه اللفظة المركبة تكتب فى بعض المصادر التاريخية ، مجردة من أداة التعريف ، وفى مصادر أخرى مضافاً إليها أداة التعريف بصيغتين مختلفتين :

السارى عسكر ، سارى العسكر

وتجمع فى المصادر التاريخية فى صيغ مختلفة .

سوارى عسكر ، سوارى عساكر ، سوارى العساكر .

كما أن هذه اللفظة المركبة تظهر فى مصادر تاريخية ، مكتوبة بحرف الصاد بدلا من حرف السين على النحو الآتى :

صارى عسكر ، صوارى عسكر ، صوارى عساكر .

ويذكر الجبرتى هذه اللفظة المركبة تارة بحرف السين ، وتارة بحرف الصاد .

انظـــر :

عبد الرحمن الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار . القاهرة ، مطبعة بولاق ، ١٢٩٧ هـ ، ١٨٨٠ م أربعة أجزاء ، ج ٣ .

ففى المرات التى تظهر هذه الكلمة مكتوبة بحرف السين ، نذكر على سبيل المثال ص ٤ ، ٣٦ ، ٣٨ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٥٠ ، ٥٢ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٧ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨٢ ، ٨٧ ، ٩٦ ، ١٠٦ ، ١١٦ ، ١٣٥ ، ١٤١ ، ١٤٤ ، ١٤٨ الخ .

وفى المرات التى تظهر هذه الكلمة مكتوبة بحرف الصاد ، نذكر على سبيل المثال ص ١١ ، ١٤ ، ١٦ ، ٢١ ، ٢٨ ، ٢٩ الخ .

وأورد الجبرتى عبارة حددت معنى هذه الكلمة ، وقد جاءت فى ثنايا منشور على النحو التالى :

« من عبد الله جاك منو سر عسكر أمير عام جيوش دولة جمهور الفرنساوية بالشرق ، ومظاهر حكومتها ببر مصر حالا إلى كافة المشايخ والعلماء الكرام ... » ج ٣ ، ص ١٤٩ .

ونحت الجبرتى من هذه الكلمة اسماً عاماً هو السر عسكرية ، فقال بعد أن تكلم عن مصرع الجنرال كليبر وتشييع جنازته إنه « انقضى أمره ، واستقر عوضه فى السر عسكرية قائمقسام عبد الله جاك ..... » ج ٣ ، ص ١٣٤ .

وانظر أيضاً بخصوص هذه اللفظة كلا من :

على مبارك باشا : الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة ، بولاق ١٣٠٦ هـ (١٨٨٨ م) ، عشرون جزءاً ، ج ٩ ص ٦٦ .

أمين سامى باشا : تقويم النيل . الجزء الثانى ، القاهرة ، ١٩٢٨ ، ص ٢٨٩ .

Dozy : Supplément aux dictionnaires arabes. 2ème édition, leyde-Paris. 1927. t I, p. 649.

Deny : Sommaire des Archives Turques du Caire. Le Caire. 1930. p. 67. =

أكد بونابرت فى أكثر من موضع فى هـذا المنشور أنه لن يتعرض بسوء للدين الإسلامى ، بل إنه أكثر من المماليك عبادة لله ، واحتراماً لنبيه صلوات الله عليه ، وللقرآن الكريم ، وقرر فى منشوره أن الفرنسيين مسلمون مخلصون [١] ، وحاول أن يقيم الدليل على صحة هذا الزعم ، فقال إن الأمة الفرنسية وجهت الجيش الفرنسى إلى روما ، وحاربت البابا لأنه كان يحرض دائماً النصارى على محاربة المسلمين [٢] ، وأضاف بونابرت إلى ذلك قوله : إنه وهو فى طريقه

= وقد نحت كل من على مبارك باشا وأمين سامى باشا صفة من هذا الاسم ، فقالا سر عسكرى ، وانفرد أمين سامى باشا بنحت صيغة أخرى للصفة ، مشتقة من هذا الاسم هى : سرى عسكر .

وقد استخدمت كلمة سر عسكر فى اللغة الفرنسية بنفس المعنى : قائد عام الجيش ، وهى تكتب فى اللغة الفرنسية بإحدى صيغتين : séraskier أو sérasquier

انظـــر :

Napoléon 1er; Guerre d'Orient. etc., ouvr. cit., t. II. p. 113.

(١) جاءت هذه العبارة فى الأصل الفرنسى :

« إننا أصدقاء المسلمين المخلصين »

"Que nous sommes amis des vrais musulmans".

ولم يقع هذا التحريف فى الترجمة عفواً ، بل جاء مقصوداً ، ولم يقبل بونابرت أن يسجل على نفسه هذا الإقرار فى الأصل الفرنسى بأن الفرنسيين مسلمون مخلصون صادقون مهما قيـــل من مبررات أمام الرأى العام الفرنسى ، ولكن قام المترجمون بإدخال هذا التعديل وغيره فى الترجمـــة العربية بتوجيه من بونابرت .

وقد ناقش أحد الباحثين الأوروبيين أسباب وجود الاختلاف بين الأصل الفرنسى كما وضـــعه بونابرت ، وبين الترجمـــة العربية التى وضعها مترجمو الحملة ، وكما وزعت على الشعب المصرى .

انظـــر :

Chauvin Victor; La Légende Egyptienne de Bonaparte. Mons., 1902, pp. 36 - 37.

(٢) كانت هذه العبارة من باب التمويه على المصريين ، واستغلال عدم معرفتهم فى ذلك الوقت بأحداث الثورة الفرنسية ، والحقيقة أن الجيش الفرنسى كان موجهاً ضد النمسا ، لأنها كانت عضواً فى التحالف الدولى الأول الذى تكون ضد الثورة الفرنسية ، فوجهت ضدها حكومة الديركتوار حملتين : حملة رئيسية بقيادة الجنرال مورو Moreau والجنرال جوردا Jourdan تزحف على فيينا عن طريق نهر الدانوب والغابة السوداء ، وحملة فرعية بقيادة بونابرت ، تزحف على إيطاليا ، لأنه كان للنمسا ممتلكات هامة فى شبه الجزيرة الإيطالية ، وبذلك تضطر النمسا إلى =

إلى مصر قد استولى على جزيرة «الطة ، وطرد منها فرسان القديس يوحنا[(١)] ، الذين يزعمون أن الله قد طلب منهم قتل المسلمين[(٢)] ، وعمد بونابرت فى منشوره

== توزيع قواتها فى ميدانين متباعدين ، وشاءت الأقدار أن تفشل الحملة الرئيسية ، وأن تنجح الحملة الفرعية نجاحاً خاطفاً باهراً .

(١) جاءت فى الترجمة العربية للمنشور لفظة «الكوالرية» ، وفى الأصل الفرنسى cavalleries وعلى الرغم من أن استخدام كلمة الكوالرية دليــل على ضعف المترجمين الذين عربوا المنشور ، إلا أنها كانت شائعة فى ذلك الوقت ، وقد وردت فى صيغ شتى فى مصادر أخرى مثل مذكرات نقولا ترك ، وفى مخطوط كوستا Costa المحفوظ فى المكتبة التيمورية بدار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة وحيدر شهاب ، وعلى سبيل المثال :

كواليرية ، كويليرية ، كوالرية ، كوليرية ، كفاليرية ، قوالير .

وهى مقتبسة أصلا من اللغة الإيطالية cavaliere ، وانتقلت إلى اللغة الفرنسية وغيرها ، وكان بونابرت يقصد بهذه الكلمة الهيئة الدينية الصليبية العسكرية المعروفة باسم فرسان القديس يوحنا ، أو فرسان الإسبتارية ، وكانوا قد اتخذوا لهم من جزيرة مالطة مقاماً ومستقراً ، بعــد أن نجح السلطان العثمانى سليمان المشرع فى إجلائهم عن جزيرة رودس سنة ١٥٢٣ .

(٢) لم يكن النشاط العدائى الذى مارسه هؤلاء الفرسان ضد المسلمين ، هو السبب الذى حمــل بونابرت على غزو مالطة والقضاء عليهم ، ولكن انبثق مشروع غزو الجزيرة عن اعتبارات تتصل بالسياسة العليا لفرنسا ، واستهدف توفير الأمن الداخلى والخارجى لنظام الحكم الذى جاءت به الثورة الفرنسية . كان فرسان القديس يوحنا قد أظهروا شعوراً طيباً نحو لويس السادس عشر ملك فرنسا وأمدوه بالأموال لمواجهة أزماته المــالية ، ولمساعدته عند هروبه من باريس إلى الحدود الشمالية الشرقية ، وهو الهروب الذى فشــل بالقبض على المــلك فى ڤارن Varennes ، ولمــا أعدمت الثورة الملك أقام فرسان مالطة صلاة على روحه ، واعتبرت حكومة الثورة هذا التصرف عملا غير ودى ، وردت عليه باعتقال فرسان هذه المنظمة المقيمين منهم فى فرنسا ، وصادرت أملاكهم ، وأعدمت بعضاً منهم ، يضاف إلى ذلك أن بعض المهاجرين الفرنسيين كانوا قد لجأوا إلى مالطة إبان الثــورة ، واعتقدت باريس أن جزيرة مالطة قد غدت وكراً للدسائس ، يحيكها عملاء بريطانيا والروسيا والنمسا ، وخشيت أن تبادر إحدى هذه الدول إلى احتلال الجزيرة ، فتكون مصدر خطر داهم على مركز فرنسا فى حوض البحر المتــوسط ، وقال بونابرت فى تقرير له إلى حكومة الديركتوار : « إن هذه الجزيرة سوف تسقط عاجلا أو آجلا فى يد الإنجليز ، إذا كنا على درجة كبيرة من الغباء ، ولم نسبق الإنجليز إلى احتلالها » . وكان قد انتخب أحد الفرسان الألمــان واسمه دى هومبيش de Hompesch رئيساً لهيئة فرسان القديس يوحنا ، واعتبر انتخابه هزيمة لفرنسا ، وانتصاراً للدبلوماسية النمساوية ، ومن ثم صحت عزيمة حكومة الديركتوار على غزو الجزيرة ، وأوفدت بوسيليج Poussielgue سكرتير المفوضية الفرنسية فى جنوا إلى مالطة =

إلى تذكير المصريين بأنهم ينتمون إلى إقليم هو أحسن بلد فى العالم ، وأنهم أمة لم تبدأ من فراغ ، بل بدأت من مجد عريض ، وأنها طاولت الزمن وجوداً ، وصنعت الحضارات صنعاً . وقال : إن حكم المماليك الباغى هو الذى انحدر بالمصريين إلى هـــذه الحالة التعسة من الفاقة والبؤس . وحاول فى منشوره أن يفصل بين الشعب المصرى وبين المماليك ، فقرر أنه جاء ليحاربهم وحدهم ، ولينقـــذ المصريين من مظالمهم ، ويقتص منهم ، لأنهـــم يضطهدون التجار الفرنسيين ، ويعتصرون أرزاق المصريين ، ويغتصبـــون خيرات البـــلاد ومحاصيلها ، وينعمون بالجـــوارى الحسان ، والخيول المطهمة ، والقصور الفخمة ، وأكد أن مصر ليست ملكاً لهـــم ، وقال : « فإن كانت الأرض المصرية التزاماً للمماليك فليرونا الحجـــة التى كتبها الله لهـــم » ، وتكلم عن وضاعة أصلهم ، ووصفهم بأنهم أغراب عن مصر جلبوا من خارجها . وذكر أن جميع الناس عند الله سواء ، وأن العقل والفضائل والعلوم هى التى تمـــيز الأفراد بعضهم عن بعض ، وليس للمماليك من هذه الخصال نصيب ، ووعد بونابرت المصريين بأن الحكم الفرنسى سوف يتيح عديد الفرص أمام « العلماء والفضلاء والعقلاء » لتـــولى المناصب الحكومية . وحاول أن يحتفظ بعلاقات ودية مع السلطان العثمانى ، وقد وصفه بأنه « محبنا دام بقاؤه » ، واختتم منشوره بتعليمات يغلب عليها طابع التهـــديد ، فهدد بإحراق كل قـــرية تقاوم الجيش

= فى مهمة سرية لجمع المعلومات اللازمة قبل الغزو الفرنسى ، وقد وصل هذا المبعوث إلى ثالثا عاصمة الجزيرة فى ٢٤ ديسمبر ١٧٩٧ ، وأرسل تقريراً مشجعاً على غزو الجزيرة .

انظـــر :

Correspondance de Napoléon, t. IV.

الوثائق رقم ٢٤٩٦ ، ٢٤٩٧ ، ٢٦٢٠ ، ٢٦٢٢ ، ٢٦٢٥ ، ٢٦٢٧ ، ٢٦٢٩ ، ٢٦٣٦ ، ٢٦٤١ .

وانظر أيضاً عرضاً دبلوماسياً لتطورات مشروع غزو الجزيرة فى فصل عنوانه :

The Genesis of the Expedition.

فى

Shafik Ghorbal; ouvr. cit., pp. 7 - 32.

الفرنسى ، وأما إذا أظهرت القرية ولاءها للفرنسيين ، فيسمح لها برفع العلم العثمانى [١] ، وأن على جميع القرى الواقعة على مسيرة ثلاث ساعات [٢] أن تبعث بمندوبين عنها للقائد العام يعلنون الولاء ، وأنهم رفعوا العلم الفرنسى « الذى هو أبيض وكحلى وأحمر » ، وطلب من المشايخ والعلماء والقضاة والأئمة الاستمرار فى أداء مهام مناصبهم ، والتحفظ على أملاك المماليك ، وأن تستمر إقامة الصلاة فى المساجد كالمعتاد ، وأن يكون كل انسان مطمئنا فى مسكنه : وكانت آخر عبارات المنشور أن طلب بونابرت من المصريين أن يشكروا الله سبحانه وتعالى على زوال دولة المماليك قائلين بصوت عال :

أدام الله إجلال السلطان العثمانى
أدام الله إجلال العسكر الفرنساوى
لعن الله المماليك
وأصلح حال الأمة المصرية .

تحريراً فى ١٣ شهر مسيدور سنة ٦ من إقامة الجمهور الفرنساوى [٣] »

والحق أن هذا المنشور يلخص سياسة بونابرت الإسلامية ، واستهدف منه تأكيد المبادئ الآتية فى أذهان الشعب المصرى :

أولا : إن الفرنسيين مسلمون مخلصون ، وإنهم لا يضمرون شراً للإسلام ، بل إنهم يكنّون احتراماً عميقاً للنبى صلوات الله عليه ، وللقرآن الكريم ، ويحرصون على أن تستمر إقامة الصلاة فى المساجد كالعادة . والهدف من ذلك إشاعة الطمأنينة فى نفوس المصريين ، وجذب قلوبهم إلى الحكم الفرنسى

---

(١) جاءت فى الترجمة العربية الصنجاق ، وهى لفظة تركية ، تكتب أحيانا سنجق ومن معانيها العلم.

(٢) جاءت فى الأصل الفرنسى ثلاثة فراسخ .

(٣) نشر النص الفرنسى للمنشور تحت عنوان Proclamation. فى :
Correspondance de Napoléon ; t IV, doc. no. 2723, en date du 4 Messidor, VIè année de la République (2 juillet, 1798).
ونشرت الترجمة العربية كما وزعت على الشعب فى :
الجبرتى ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ص ٤ — ٥

ثانيا : الفصل بين المصريين والمماليك، والهدف من ذلك استمالة المصريين إلى التزام موقف الحيدة ، وحصر العمليات الحربية فى أضيق نطاق ممكن ، وتصبح الحرب مقصورة على الفرنسيين من ناحية ، والمماليك من ناحية أخرى ، وبذلك يتم له التغلب على المماليك فى سهولة وسرعة ، ودون وقوع خسائر فادحة فى الأرواح أو العتاد فى الجانب الفرنسى .

ثالثا : الاهتمام بإبراز صفة أراد بونابرت أن يلصقها بالفرنسيين ، وهى أنهم لم يجيئوا إلى مصر غزاة قاهرين ، بل جاءوا محررين للشعب من ظلم المماليك واستبدادهم ، ولذلك زج فى منشوره ببعض كلمات تحمل بعض الشعارات التحررية فى الثورة الفرنسية مثل الحرية والمساواة ، وقد عرب الكلمة الأخيرة المترجمون المرافقون للحملة بكلمة « التسوية » .

رابعا :إن الحكم الفرنسى سيهيئ للمصريين من أمرهم رشداً ، وسوف يتيح لهم الفرص لشغل المناصب القيادية ، وبذلك يرضى المصريون عن الحكم الفرنسى ، على أساس المنافع المشتركة .

خامسا : تذكير المصريين بحضارتهم القديمة ، وأن المماليك هم الذين عصفوا بهذه الحضارة ، وأنهم السبب فى فقر وشقاء المصريين ، وفى هذا القول إثارة لشعور الشعب على المماليك :

سادسا : إيجاد علاقات ودية بين الفرنسيين وبين السلطان العثمانى ، حتى لا يركن المصريون إلى الثورة على الفرنسيين ، بسبب ولائهم للسلطان ، الذى كان الشعب ينظر إليه على أنه سلطان المسلمين .

وللجبرتى تعليق عنيف ولاذع جداً على هـذا المنشور ، وقد كتب هـذا التعليق فى كتابه « مظهـر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس »[١] ، وجاء عنوان التعليق على النحو الآتى : « تفسير بعض ما أودعه هـذا المكتوب من الكلمات المفككة والتراكيب الملعبكة » ، وقد فند الجـبرتى معظم الآراء التى جاءت فى منشور بونابرت ، ودلل على ما فيها من تضارب . نذكر على سبيل المثال ما جاء فى تعليقه على قول بونابرت إنه يحترم القـرآن العظيم : « إن احترام القرآن تعظيمه ، وتعظيمه بالتصديق بما فيه ، وهو من آيات النبى الدالة على صدقه ، وأنه نبى آخر الزمان ، وأن أمته أشرف الأمم ، وهؤلاء لجميع ذلك نافون ، وفيما عددوه كاذبون ، وكأين من آية فى السموات والأرض يمـرون عليها وهم عنها معرضون . أما التعظيم الحسى ، فهـو فرض مأمور به بقوله تعـالى « لا يمسه إلا المطهرون » ، فيحرم على المحدث والجنب مس آية من

---

(١) توجد فى دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة ثلاث نسخ خطية من كتاب مظهر التقديس ، وهى تحمل الأرقام الآتية :

المخطوط الأول : ١٣٢٨ تاريخ ، المكتبة التيمورية ، عدد صفحاته ٤٠٦ ، سنة ١٢٤٠ هـ .

المخطوط الثانى : ٣٣٠ تاريخ ، عدد صفحاته ٣٨٣ ، سنة ١٢٦٣ هـ .

المخطوط الثـالث : ١٠١ تاريخ ، مكتبة الأمير مصطفى فاضـل ، عدد أوراقه ١٤٥ ، سنة ١٢٢٤ هـ .

ويلاحظ أن الترقيم فى المخطوط الأخير يعطى للورقة بصفحتيها ، وليس للصفحة الواحدة ، ومعنى ذلك أن ١٤٥ ورقة تعادل ٢٩٠ صفحة ، وقد لاحظنا أيضاً أن الكتابة فى هذا المخطوط الأخير تملأ الورقة كلها ، بحيث أن عدد الأسطر فى كل صفحة منه أكثر من عدد الأسطر فى صفحات النسختين الأخريين ، ولاحظنا كذلك أن خط المخطوط الأول أكثر وضوحاً وتنسيقاً من المخطوطين الآخرين ، وهناك ملاحظة هامة هى أن عنوان المخطوط على الغلاف الخارجى يختلف عن الاسم الذى اختاره الجبرتى لكتابه ، فعلى الغلاف الخارجى يذكر اسم المخطوط على هذا النحو :

مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس

بينما ذكر الجبرتى فى مقدمة كتابه « وسميناه :

مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس

وهذا هو سر الخلط الذى يقع فيه الباحثون ، والعبرة بالعنوان الذى يختاره المؤلف لكتابه .

القرآن ، وهؤلاء قد شوهد الكثير منهم يتغوط ويمسك بأوراق المصاحف ، ويرميها ملطخة فى الطريق ومحل النجاسات ، فإنهم لا يستنجون بالمــاء ألبتة ، وجليلهم وحقيرهم يستعمل ما يجده من الأوراق . ودخل بعض الناس داراً من دورهم ، فوجد باب المهنة مسنوداً بمصحف كبير ، فأخذه وفتحه فوجده ختمة شريفة مكلفة ، فتأثر واغتم ، وطلب أن يفتديه بدراهم ، فامتنــع صاحب الدار من بيعه إلا بمبلغ كذا ، فسعى الرجل حتى استرضى خاطره ، واستنقذ الختمة ، وهم فى كل ذلك يضحكون ، ويعدون الرجل كأنه مجنون ، فأين أعزك الله التعظيم الذى يزعمه هذا المفترى ؟ »[1] ، وقــد تعرض الجبرتى فى مواضع أخرى من كتابه المخطوط إلى التضارب بين ما جاء على لسان بونابرت فى هذا المنشور ، وبين التصرفات التى صدرت عنه فى حكم الشعب المصرى ، وسنشير إليها فى مواطن قادمة فى هذه الدراسة ، أما بونابرت فإنه سخر من هذا المنشور حين أعيدت عليه قراءته بعد مضى سنوات طويلة لم تقل عن تسع عشرة سنة ، وهو فى منفاه بجزيرة سانت هيلانة ، يحيط به بعض القادة الفرنسيين الذين عاشوا معه فى المنفى ، وقال لهم إن هذا المنشور قطعــة من الدجل[2] :

* * *

(١) إن هذا التعليق موجود فى المخطوطات الثلاثة على النحو التالى :

المخطوط الأول الذى يحمل رقم ١٣٢٨ ص ص ٣١ — ٣٥

المخطوط الثانى الذى يحمل رقم ٣٣٠ ص ص ٢٨ — ٣٢

المخطوط الثالث الذى يحمل رقم ١٠١ الوجه الثانى من ورقة رقم ١٢ وورقة رقم ١٣ بوجهيها ، أى أن التعليق استغرق فى هذا المخطوط ثلاث صفحات وهى تعادل خمس صفحات فى كل من المخطوطين الأولين.

(2) Gourgaud et Montholon ; Mémoires pour servir à l'histoire de France sous le règne de Napoléon, écrits à Sainte Hélène par les généraux qui ont partagé sa captivité. Paris, Didot, 1823, 7 vols. t. II, pp. 261-262.

والجزء الثانى من هذه الأجزاء السبعة يخص أحداث الحملة الفرنسية على مصر.

وانظر أيضاً :

Guémard (G.) ; Histoire et bibliographie critique de la Commission des Sciences et Arts de l'Institut d'Égypte. Le Caire, 1936, pp. 105-106.

وحرص بونابرت فى ذات الوقت على إظهار صداقته للسلطان العثمانى أمام كبار الموظفين العثمانيين فى مصر ، تمشياً مع خطة العمل الدبلوماسى ، والتى أراد لها أن تكون مكملة لسياسته الإسلامية ، فكتب خطاباً مؤرخاً فى الثلاثين من يونيو ١٧٩٨ إلى الوالى العثمانى واسمه أبو بكر باشا ، ولقبه الطرابلسى[١] ، قال فيه : إن الغرض من الحملة على مصر إنما هو معاقبة الأمراء المماليك الذين أسرفوا فى الإساءة إلى التجار الفرنسيين ، وقد عجزت وسائل الباب العالى عن كسر شوكتهم ، وإعادتهم إلى جادة الحق والصواب . وحاول بونابرت فى منشوره أن يثير أبا بكر باشا الطرابلسى على المماليك ، فقال : لقد كان من المفروض أن يكون الباشا العثمانى فى مصر هو السيد المطاع فى أرجاء البلاد ، ولكن جرده المماليك من كل جاه ونفوذ ، ولذلك يجدر بالباشا أن يتلقى نبأ قدوم الحملة الفرنسية بالغبطة والابتهاج ، واختتم خطابه بهذه العبارات « واعلم أنى لم أحضر للتعرض للدين ، ولا للقيام بأمر يسىء إلى السلطان . إن الأمة الفرنسية هى الحليفة الوحيدة للسلطان فى أوروبا ، فهلم إذاً لمقابلتنا ، والعن معنا المماليك وعنصرهم الخبيث[٢] » . وقد بعث بهذا الخطاب من الإسكندرية مع أحد الضباط العثمانيين التابعين لإحدى السفن الحربية العثمانية الثلاث التى كانت راسية فى مياه الثغر[٣] . وجدير بالذكر أن بونابرت اتخذ من هذا الخطاب وسيلة للدعاية إلى سياسته الإسلامية ، فأمر بنشر الترجمة العربية لهذا الخطاب فى الإسكندرية[٤] ، كما كتب بونابرت خطاباً فى هذا المعنى إلى إدريس بك قائد « عقاب بحرى » كبرى السفن العثمانية الثلاث ، المرابطة

(١) تولى حكم ولاية مصر فى ٢٨ سبتمبر ١٧٩٦ (٢٥ ربيع أول ١٢١١) ، وغادر القاهرة فى ٢١ يوليو ١٧٩٨ (٧ صفر ١٢١٣) عقب معركة إمبابة ، واتخذ طريقه إلى بلبيس ثم غزة .

(2) Correspondance de Napoléon, t. IV, doc. no. 2719, en date du 12 Messidor VI^e, année de la République (30 juin, 1798).

(3) Napoléon I^er; Guerre d'Orient. etc., ouvr. cit., t. I., p. 133.

(4) Loc. cit.

فى الإسكندرية ، وقال له بونابرت فى هذا الخطاب « إنك تابع صديقنا العظيم سلطان تركيا »[1] :

نمر بعد ذلك مروراً سريعاً على مظاهر أخرى لسياسة بونابرت الإسلامية تجاه الشعب المصرى . احتل الجيش الفرنسى الإسكندرية ، وزحف على القاهرة ، وفى طريقه إليها أوقع هزيمة بالمماليك عند قرية شبراريس[2] (١٣ من يوليو ١٧٩٨) ، ثم انتصر عليهم فى معركة إمبابة (٢١ يوليو) ، وحسمت هذه المعركة الموقف الحربى لصالح الفرنسيين ، وأطلقوا عليها اسماً يخلد ذكراها فى التاريخ فسموها موقعة الأهرام[3] . وفى غداة هذا الانتصار مضى بونابرت فى الإعلام عن سياسته الإسلامية ، فأذاع منشوراً وجهه إلى سكان القاهرة أكد فيه بعض النقاط التى جاءت فى منشوره الأول ، ثم أضاف جديداً هو عزمه على إنشاء ديوان لحكم القاهرة يتكون من سبعة أعضاء يكون الجامع الأزهر مقراً له ، ولم يرد ذكر لهذا المنشور فى كتاب الجبرتى ،

(1) Correspondance de Napoléon, t. IV, doc. no. 2721, en date du 13 Messidor VIe, année de la République (Ier juillet, 1798).

(٢) تجمع معظم المصادر الفرنسية على أن المعركة دارت فى شبراريس وليس فى شبراخيت . وتكتب هذه المصادر بكان المعركة Chebreïs أو Choubra Reïs وبالرجوع إلى الخطط التوفيقية نجد أنه يوجد فى الوجه البحرى قريتان تحملان اسم شبراريس ، إحداهما شبراريس البحيرة ، وهى قرية على الشاطئ الغربى لفرع رشيد : تقع فى إقليم البحيرة ، وتتبع مركز شبراخيت ، وتقع القرية فى جنوب مركز شبراخيت على مسيرة نصف ساعة . أما الأخرى فهى شبراريس المنوفية وهى قرية تقع على الشاطىء الغربى للترعة الباجورية ، وتقع فى إقليم المنوفية ، وتتبع مركز تلا ، وتقع فى جنوب كفر الزيات على مسيرة ثلاث ساعات . والمعركة دارت فى قرية شبراريس البحيرة .

انظر : على مبارك باشا ، مرجع سبق ذكره ، ج ١٢ ، ص ١٢٢ .

(٣) يعتبر الفرنسيون انتصارهم فى معركة إمبابة صفحة فخار فى التاريخ العسكرى الفرنسى ، ولذلك أطلقوا عليها اسم « معركة الأهرام » ، وحذا الإنجليز هذا الحذو فأطلقوا على معركة أبى قير البحرية (أول أغسطس ١٧٩٨) اسم « معركة النيل » ، وهكذا عمد الفرنسيون والإنجليز من قبيل الزهو إلى إطلاق اسمين لكل منهما رنين ، وأغفلوا الاسمين الحقيقيين لمعركتين حاسمتين ، لأن كلا من هذين الاسمين : إمبابة ، وأبى قير قرية صغيرة ، لايكاد يعرفهما أو يسمع عنهما أحد فى أوروبا ، وسنلتزم فى هذه الدراسة بالاسمين الحقيقيين لهاتين المعركتين .

ولكن ورد نصه الأصلى باللغـــة الفرنسية فى مجموعة الوثائق الرسمية الخاصـــة بالحملة[1] ، وهذه هى الترجمة العربية للنص الفرنسى :

« معسكر الجيزة، فى ٤ تيرميدور إلى أهل القاهرة :

« إنى مسرور من سلوككم ، وقد أحسنتم صنعاً بعدم اشتراككم فى مقاومتى : لقد جئت هنا لأبيد جنس المماليك ، وأحمى التجارة ، وأهل البلاد الأصليين : فليطمئن الخائفون ، وليعد الذين تركوا بيوتهم إليهـــا ، ولتقام الصـــلوات فى المساجد ، كما كانت تقام من قبل ، وكما أريد أن تقام دائماً ، لا تخشوا شيئاً على عائلاتكم وبيوتكم وأملاككم ، لاسيما دينكم ، دين النـــبى الذى أحترمه وأقدسه .

(1) Correspondance de Napoléon, t. IV, doc, no. 2818. en date du 4 Thermidor VIe année de la République (22 juillet, 1798).

وهناك منشور آخر يحمل نفس التاريخ وجهه بونابرت إلى سكان القاهرة، حين ذهب إليه فى الجيزة فى ٢٢ يوليو وفد يتكون من شخصين ، كان أحدهما مغربياً يعرف الفرنسية ، يستفسران منه عن الإجراءات التى يعتزم اتخاذها عقب معركة إمبابة ، وقابلهما بونابرت بالترحاب ، ثم قالا له إنهما يريدان أماناً من بونابرت إلى سكان القاهرة ، فأجابهما بأنه أذاع منشوراً فى هذا المعنى ، فقال عضوا الوفد : إنهما يفضلان منشوراً جديداً يحملانه معهما إلى سكان القاهرة، واستجاب بونابرت لهذه الرغبة ، وكتب منشوراً موجهاً إلى سكان القاهرة أورد الجبرتى نصه، وهذا هو :

« من معسكر الجيزة خطاباً لأهل مصر :

« إننا أرسلنا لكم فى السابق كتاباً فيه الكفاية، وذكرنا لكم أننا ما حضرنا إلا بقصد إزالة المماليك الذين يستعملون الفرنساوية بالذل والاحتقار ، وأخذ مال التجار ومال السلطان ، ولما حضرنا إلى البر الغربى خرجوا إلينا فقابلناهم بما يستحقونه ، وقتلنا بعضهم ، وأسرنا بعضهم، ونحن فى طلبهم ، حتى لم يبق أحد منهم بالقطر المصرى ، وأما المشايخ والعلماء وأصحاب المرتبات والرعية فيكونون مطمئنين ، وفى مساكنهم مرتاحين » .

انظـــر :

الجبرتى ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ١٠ .

والنص الفرنسى لهذا المنشور يتمشى تماماً مع ما ورد فى الجبرتى ، ويزيد عليه أن بونابرت طلب حضور وفد إليه من المشايخ علماء الأزهر . انظر :

Correspondance de Napoléon. t. IV, doc. no. 2817 en date du 4 Thermidor, VIe année de la République (22 juillet 1798).

« ولما كانت المحافظة على الأمن من المسائل التى لاتتحمل تأخيراً ، فسيكون هنا ديوان مؤلف من سبعة أعضاء ، يجتمعون فى الجامع الأزهر[(١)] ، يتصل اثنان منهم دائماً بالقائد ، ويتخصص أربعة منهم للمحافظة على الأمن ، ومراقبة شئون الشرطة » .

وأقام بونابرت عقب معركة إمبابة فى قصر مراد بك بالجيزة ، واتخذ منه مقراً للقيادة العامة للجيش الفرنسى ، وفى أثناء إقامته فى هذا القصر كان علماء الأزهر هم أول الشخصيات الذين طلب مقابلتهم[(٢)] ، فكان هذا الطلب مظهراً عملياً لاعترافه بزعامتهم للشعب المصرى . فذهب إليه وفد كان على رأسه اثنان من كبار العلماء ، هما الشيخ مصطفى الصاوى ، والشيخ سليمان الفيومى . وتمشياً مع سياسته الإسلامية أحسن بونابرت مقابلة أعضاء الوفد ، وتودد إليهم ، ولما علم منهم أن عدداً من كبار المشايخ علماء الأزهر قد غادروا القاهرة عقب معركة إمبابة ، طلب أن تكتب لهم خطابات تدعوهم إلى العودة إلى العاصمة ، وتؤكد لهم أنه لن يصيبهم سوء . وأعلن بونابرت

---

(1) "Comme il est urgent que la tranquillité ne soit pas troublée, il y aura un divan de sept personnes qui se réuniront à la mosquée d'El Azhar".

(٢) عقد اجتماع فى الأزهر صبيحة معركة إمبابة ، ضم بعض العلماء والأعيان الذين بقوا فى القاهرة ، كما شهده مصطفى كتخدا باشا — أى نائب الوالى العثمانى — وقاضى القضاة العثمانى ، وتدارسوا الموقف ، واستقر رأيهم على ضرورة الإفراج عن الفرنسيين الذين كان مراد بك قد أمر بوضعهم « تحت اليسق » ، أى اعتقالهم قبل معركة إمبابة ، وقيل إنه كان يعتزم قتلهم ، لولا أن تدخل روستى Rossetti قنصل النمسا العام ، واتفقوا أيضاً على أن يبعثوا برسالة إلى بونابرت يستفسرون منه عن نواياه بعد المعركة ، وكان الجيش الفرنسى لا يزال مرابطاً فى البر الغربى لم يعبر النيل بعد إلى القاهرة ، فذهب رسولان بالرسالة إلى الجيزة ، وبعد أن وقف بونابرت على مضمونها قال على لسان الترجمان : « وأين عظاؤكم ومشايخكم ؟ ولم تأخروا فى الحضور إلينا ، لنرتب لهم ما يكون فيه الراحة ؟ وطمنهم وبش فى وجوههم . »

لأعضاء الوفد عن عزمه على إنشاء ديوان « لأجل راحتكم وراحة الرعية ، وإجراء الشريعة ..... » (١) :

ولا بد أن بونابرت قد علم من أعضاء الوفد — طالمـا أن حديثه معهم قد تناول كبار القوم الذين غادروا القاهرة عقب معركة إمبابة — أن أبا بكر باشا الطرابلسى الوالى العثمانى قد ارتحل هو الآخر مع إبراهيم بك ، كما علم بونابرت أن بين الذين آثروا الهجرة من القاهرة الشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الجامع الأزهر (٢) ، والسيد محمـد السادات ، والسـيد عمر مكرم نقيب الأشراف ، والسيد أحمد المحروقى شهبندر (٣) تجار القاهرة . فأرسل بونابرت خطاباً من الجيزة مؤرخاً فى ٢٢ يوليو إلى أبى بكر باشا الطرابلسى ، على أمل أن يصله هذا الخطاب فى بلبيس ، وافترض بونابرت أن خطابه الأول الذى أرسله إليه من الإسكندرية لم يصله ، وقد أبدى بونابرت فى خطابه أسـفه

= هذا ويوجد اختلاف بين أقوال الجبرتى ، ونقولا ترك، ولاكروا Lacroix ، وريبو Reybaud ، والمذكرات التى أملاها بونابرت فى منفاه بجزيرة سانت هيلانة حول الاتصالات التى تمت بين بونابرت وكبار سكان القاهرة لتسليم العاصمة، كما يوجد خلاف حول تاريخ دخول بونابرت القاهرة ، وهل هويوم ٢٤ أو ٢٥ يوليو ١٧٩٨ ، والأصح هو ٢٤ طبقـاً لرواية الجبرتى ، ولاجونكيير La Jonquière .

(١) الجبرتى ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ١٠ .

(٢) لحقت به كلمة الشرقاوى لأنه من أبنـاء مديرية الشرقية ، إذ ولد فى قرية الطويلة شرق بلبيس ، وبالقرب من القرين حوالى سنة ١١٥٠ هـ (١٧٣٧ — ١٧٣٨ م) ، أما اسمـه الحقيق فهو « عبد الله حجازى » ، وتولى مشيخة الأزهر عقب وفاة الشيخ أحمد العروسى شيخ الجامع الأزهر سنة ١٢٠٨ هـ (١٧٩٣ م) ، وقدر له أن يعاصر ويشارك فى الأحداث الجسام التى مرت بمصر فى أواخر القرن الثامن عشر ، وأوائل القرن التاسع عشر ، وقـد اشتهر حسبما رسمته صور الحملة الفرنسية ، وحسبما لاحظ الجبرتى ، بعمامته الكبيرة جـداً « التى كان يضرب بعظمها المثل » ، وله مؤلفات عديدة فى العقائد والأصول والنحو ، وكتاب فى طبقات الشافعية ، وكتاب فى تاريخ مصر ، سنشير إليه فى مواطن قادمة فى هذه الدراسة ، وقد توفى سنة ١٢٢٧ هـ (١٨١٢م) . انظر ترجمة الجبرتى له فى ج ٤ ، ص ص ١٥٩ — ١٦٤ .

(٣) شهبندر التجار ، معناها كبير التجار ، أو سر التجار .

الشديد، لأن إبراهيم بك استعمل معه العنف وأكرهه على مغادرة القـــاهرة ، ثم قال له : « إذا كنت سيداً مطاعاً فارجع إلى القاهرة ، وستظفر بالاحترام والتقدير الجديرين بممثل صديقنا السلطان » ، ومضى يقول فى خطابه إنه سحق القوة العسكرية للمماليك ، ثم طلب إليه أن يؤكد للسلطان أن الأسلحة التى جعلت فرنسا تنتصر على المماليك ستكون دائماً تحت تصرف السلطان (١) . وفى اليوم التالى أرسل بونابرت خطابه الثالث إلى أبى بكر باشا ، وقد حاول أن يحـــدد فيه على نحو من الأنحاء وضع مصر السياسى بعد الغزو الفرنسى ، وقد جاء فى هذا الخطاب الثالث : « إن هدف الجمهورية الفرنسية من احتلالها مصر هو طرد المماليك الذين طالمـــا شقوا عصا الطاعة على الباب العالى ، وأظهروا شعوراً عدائياً نحو الحكومة الفرنسية . والآن ، وقد استطاعت الجمهـــورية الفرنسية ، بانتصار جيوشها ، أن تضـــع يدها على مصر ، فإن من أقصى رغبات الجمهورية أن تحافظ على نفوذ نائب جلالة السلطان ، ولذلك أرجوكم أن تؤكدوا للباب العالى أنه لن يخسر شيئاً بوجودنا فى مصر ، وسأحرص على أن تتلقى حكومة جلالة السلطان الجزية التى كانت ترسل لها من مصر (٢) » .

ومن الواضح أن هذا الخطاب كان يمثل جانباً من خطة العمل الدبلوماسى التى وضعت بعناية فى وزارة الخارجية الفرنسية ، والتى كانت مكملة لسياســة بونابرت الإسلامية ، كما ذكرنا من قبل :

* * *

عبر بونابرت النيل ودخل القاهرة فى ٢٤ يوليو ١٧٩٨ ، وأقام فى قصر محمـــد بك الألفى بخط الساكت بالأزبكية ، واتخـــذه مقراً للقيادة العـــامة

(1) Correspondance de Napoléon, t. IV, doc. no. 2819, en date du 4 Thermidor VIe année de la République. (22 juillet 1798).

(2) Op. cit., doc. no. 2824, en date du 5 Thermidor VIe année de la République. (23 juillet 1798).

للجيش الفرنسى ، وكان الألفى قد فرغ من بنائه فى السنة السابقة على الغــزو الفرنسى ، وأنفق الأموال الوفيرة على تأثيثه وزخرفته ، حتى أصبح من أروع قصور مصر كلها [١] ، ولم تطل إقامته فيه أكثر من ستة عشر يوماً ، فكأنه كان ببنيه وينفق عليه بسخاء ليسكنه بونابرت . وفى هذا القصر أصدر بونابرت القرار التالى :

« معسكر القاهرة ، فى ٧ تيرميدور من السنة السادسة للجمهورية :

« نحن بونابرت عضو المجمع العلمى القومى [٢] ، والقائد العام للجيش ، نأمر بما يأتى :

اولا : تحكم مدينة القاهرة بديوان مؤلف من تسعة أعضاء ؛

ثانيا : يتألف هــذا الديوان من المشايخ : السادات ، والشرقاوى ، والصاوى ، والبكرى ، والفيومى ، والعريشى ، وموسى السرسى ، والسيد عمر نقيب الأشراف ، ومحمــد الأمير . وعليهم أن يجتمعوا اليوم ، الساعة الخامسة مساء فى منزل كخيا الشاويشية ، وعليهم أن ينتخبوا رئيساً لهم ، وأن يختاروا أميناً (كاتم سر) من غير الأعضاء ، ويعينوا اثنين من الكتبة والتراجمة يعرفان الفرنسية والعربية ؛

---

(١) وصف الجبرتى هذا القصر وصفاً مستفيضاً ، وهو يترجم لمحمد بك الألفى . انظر : الجبرتى ، مصدر سبق ذكره ، ج ٤ ، ص ص ٢٦ — ٤٢ .

(٢) كان بونابرت عضواً فى المجمع العلمى الفرنسى منذ ديسمبر ١٧٩٧ ، وهذه العضوية هى التى يقصدها ويشير إليها فى صدر هذا القرار ، وكان بونابرت يزهو بعضويته فى هذه الهيئة العلمية الفرنسية الرفيعة ، ولذلك كان فى القرارات والأوامر العسكرية التى يصدرها يذكر صفته العلمية أولا ، ثم صفته العسكرية بعد ذلك ، وكانت توضع الصياغة اللفظية لديباجة أو مقدمة القرارات والأوامر العسكرية على النحو التالى :

Bonaparte, Membre de l'Institut National, Général en chef, ordonne:

بونابرت ، عضو المجمع القومى ، والقائد العام ، يأمر :

« ولهذا الديوان حق تعيين اثنين من الأغوات (رؤساء الجند) لإدارة الشرطة ، وعليه أن ينتخب لجنة مؤلفة من ثلاثة لمراقبة الأسواق وتموين المدينة ، ولجنة من ثلاثة آخرين يعهد إليهم بمهمة الإشراف على دفن الموتى بالقاهرة وضواحيها إلى امتداد فرسخين منها ؛

ثالثا : يجتمع أعضاء الديوان كل يوم من الظهر ، ويبقى منهم ثلاثة أعضاء على الدوام فى دار المجلس ؛

رابعا : يقام على باب الديوان حرس فرنسى ، وآخر تركى ؛

خامسا : على الجنرال بيرتيه [١] Berthier ، وقومندان المدينة [٢] أن يكونا فى الساعة الخامسة مساء اليوم بدار الديوان لإجراء ما يلزم لأعضائه ، ولكى يأخذا عليهم تعهداً بألا يعملوا شيئاً ضد مصلحة الجيش [٣] » .

لنا على هذا القرار ثلاث ملاحظات ، تتصل بسياسة بونابرت الإسلامية ، أولاها أن جميع أعضاء الديوان كانوا من المشايخ علماء الأزهر ، وقد عهد إليهم بالإدارة المحلية لمدينة القاهرة وضواحيها . أما الملاحظة الثانية فهى أن الاتفاق على اختيار أعضاء الديوان قد تم فى حضور مصطفى بك كتخدا الباشا — أى نائب الوالى العثمانى [٤] — ، وقاضى عسكر أفندى — أى كبير القضاة

---

(١) رئيس هيئة أركان الحرب .

(٢) كان الجنرال ديبوى Dupuy يشغل هذا المنصب ، وكان بمثابة حاكم القاهرة ، وكان يلقب أحياناً بشيخ البلد ، وهو اللقب الذى كان يطلق على كبير الأمراء المماليك فى القاهرة إبان الحكم العثمانى ، ويلاحظ أن اسم هذا الجنرال كان يكتب فى مذكرات بونابرت Dupuis ، انظر : الجزء الأول ص ٢٤٨ ، ص ٢٤٩ على سبيل المثال .

(3) Correspondance de Napoléon, t. IV, doc. no. 2837, en date du 7 Thermidor, VI^{e} année dela République. (25 juillét, 1798).

(٤) كان الكتخدا هو وكيل الباشا ، وكان يعينه السلطان برتبة صنجق ، ويعاون الباشا فى أعماله الرسمية وغير الرسمية ، ويوقع الأوراق نيابة عنه فى أثناء غيابه ، وكان يتغير بتغير الباشا ❊

العثمانى[1]. وكان حضورهما هذا الاجتماع أمراً له دلالته السياسية، فإن بونابرت كان حريصاً على المحافظة على العلاقات الودية مع السلطان، والإبقاء على السيادة العثمانية الشكلية على مصر، كما أن حضورهما يوحى بأنهما وافقا على هذا التنظيم الجديد للإدارة المحلية ذات السلطة المدنيـــة فى منطقة القاهرة، والملاحظة الثالثة أن بونابرت تراجع عن رأيه الذى سجله على نفسه فى منشوره الذى أذاعه على أهل القاهرة بتاريخ ٢٢ يوليو ١٧٩٨ بأن يجعل من الجامع الأزهر مقــراً لديوان القاهرة. ولا يمكن أن يقال إن بونابرت أراد أن يهيئ المناخ الصحى لأعضاء الديوان، حتى يباشروا اختصاصاتهم، بعيدين عن المؤثرات الدينية العنيفة، أو عناصر الشغب، أو غير ذلك من عوامل قــد تعرقل أعمـــال الديوان، ولكن الحقيقة المجردة التى تفسر هذا التراجع هى أن بونابرت قد تعجل فى إصدار هذا الرأى فى منشوره، ثم تبين له استحالة تنفيـــذه، لأن التقاليد الدينية لاتجيز دخول غير المسلمين فى المساجد، ويباشرون وظائف عامة من داخلها، وكان بونابرت فى القرار الذى أصدره بإنشاء الديوان قد عهـــد إلى اثنين من كبار قواد الجيش الفـــرنسى بالتواجد فى دار الديوان «لإجراء ما يلزم لأعضائه، ولكى يأخذا عليهم تعهداً بألا يعملوا شيئاً ضـــد مصلحة الجيش»، كما أن بونابرت عين فى ٢٧ يوليو مندوباً له فى الديوان، عرف باسم القوميسير commissaire، ووقع اختياره على أحد كبار العسكريين وهو بوڤوازان Adjudant Général Beauvoisins وطلب

---

(١) يقول الجبرتى: «وفى يوم الخميس ثالث عشر صفر ١٢١٣ أرسلوا بطلب المشـــايخ والوجاقلية عند قائمقام صارى عسكر، فلما استقر بهم الجلوس خاطبوهم وتشاوروا معهم فى تعيين عشرة أنفار من المشايخ للديوان وفصل الحكومات، فوقع الاتفاق على الشيخ ....، وحضر ذلك المجلس أيضاً مصطفى كتخدا بكر باشا والقاضى». انظر: ج ٣، ص ١١.

منه أن يرفع إليه عقب كل جلسة تقريراً عن كل ما دار فيها [١] ، يضاف إلى ذلك أن مرابطة حرس فرنسي عند باب الجامع الأزهر — فيما لو اتخذ الديوان من الأزهر مقراً له — مما يثير ثائرة الرأى العام فى مصر ، وكان بونابرت حريصاً الحرص كله على استرضائه ، واستلال الضغينة من نفوس الجماهير [٢].

* * *

ومن مظاهر سياسة بونابرت الإسلامية تودده إلى المشايخ علماء الأزهر ، أضفى عليهم الكثير من مظاهر الاحترام والتقدير ، واستبقى لهم امتيازاتهم ، وعلى رأسها حصصهم فى نظام الالتزام فى القرى ، وتنظـرهم على الأوقاف . وأمر بأن يؤدى رجال حرس الشرف الذين يرابطون أمام مقر القيادة العامة للجيش الفرنسي فى الأزبكية التحية العسكرية بالسلاح لعلماء الأزهر ، إذا جاءوا إلى مقر القيادة [٣] ، فإذا دخلوا هذا المقر خف لاستقبالهم رجال الياوران والمترجمون يرحبون بهـم ، ويقودونهم إلى الصالون الرئيسى فى القصر ،

---

(1) Correspondance de Napoléon, t. IV, doc. no 2866, en date du 9 Thermidor, VI^e année de la République. (27 juillet, 1798).

وقد حدث أن أوفد بونابرت هذا الضابط فى مهمة رسمية إلى الجزار باشا والى عكا ، فعين فى ٣١ من أغسطس ١٧٩٨ فرنسياً آخر مكانه هو تاليا Tallien ليكون مندوباً لبونابرت لدى الديوان ، وكانت مهمته الأولى التجسس على الأعضاء ، فقد جاء فى أمر تعيينه ما يأتى : « على المواطن تاليا أن يحضر جميع جلسات الديوان ، وأن يعمل على معرفة أخلاق أعضائه ، ومبلغ الثقة التى يمكننا أن نوليهم إياها .... » . انظر :

Correspondance de Napoléon, t. IV, doc. no. 3207, en date du 14 Fructidor, VIe année de la Répubique. (31 août, 1789).

(٢) استفسر بونابرت من أعضاء الديوان عن أفضل طريقة لحكم مديريات القطر المصرى ، فأدلوا إليه بإجابات أعجب بها ، وعلى ضوئها أصدر أمراً فى ٢٧ يوليو ١٧٩٨ بأن ينشأ فى كل مديرية ديوان يتألف من سبعة أعضاء ، وحدد فى هذا الأمر اختصاصات الدواوين ، والأجهزة التى تعاونها فى مباشرة اختصاصاتها . انظر :

Correspondance de Napoléon, t. IV, doc. no 2858, eu date du 9 Thermidor, VI^e année de la République. (27 juillet, 1798).

(3) Napoléon I^er; Guerre d'Orient. etc., ouvr. cit., t. I. p. 213.

وقد كرر بونابرت فى الجزء الثانى من مذكراته المشار إليها موضوع التحية العسكرية التى أمر أن يؤديها العسكريون الفرنسيون للمشايخ علماء الأزهر .

انظر : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٥٢ من مذكـراته .

وتقدم لهم المرطبات ثم القهوة ، فإذا فرغوا من تناولها دخل عليهم بونابرت ورحب بهم ، وجلس وسطهم ، محاولا أن يدخل فى نفوسهم الطمأنينة والثقة . وكان يخوض معهم - بواسطة المستشرق ڤانتور[1] الذى كان يقوم بوظيفة المترجم - فى مناقشات علمية ، تتناول القرآن الكريم ، ويطالب بونابرت من المشايخ تفسير بعض الآيات . وكان يحرص على إظهار الاحترام الشديد للنبى صلوات الله وسلامه عليه . ويخرج المشايخ من عنده وهم ألسنة تلهج بالشكر والثناء ، ويذهبون إلى الجامع الأزهر ، ويجتمعون بمن فيه ، ويتحدثون إليهم عما شاهدوه وسمعوه . ويعلق بونابرت على هذا المسلك بأن المشايخ علماء الأزهر قد أدوا خدمات جليلة للجيش الفرنسى[2] . وقد أشاد فى مذكراته بخصالهم ، وقال إنهم طاعنون فى السن ، وإن علمهم وطباعهم وثراءهم ، بل وعراقة أصولهم ، وكرم محتدهم ، كل أولئك يحمل الإنسان على إظهار مزيد من الاحترام نحوهم . ومضى بونابرت فى مذكراته فقال : إنها كانت مفاجأة سارة لعلماء الأزهر حين أدركوا بعد شهر واحد من دخول الفرنسيين القاهرة أنهم أصبحوا ذوى نفوذ كبير ، وأنهم يشتركون

(١) اسمه Jean Michel Venture de Paradis. كان من كبار المستشرقين ، وأكبر أعضاء مجمع مصر العلمى سناً – فهو من مواليد مارسيليا سنة ١٧٤٢ - وكان أحد كبار الخبراء الفرنسيين فى مسائل الشرق الأدنى ، قام بجولات طويلة فى بلاد الشرق ، وأقام بها سنوات عديدة ، وعمل مترجماً فى السفارة الفرنسية فى الآستانة ، ثم مدرساً للغة التركية فى مدرسة اللغات الشرقية بباريس ، إلى أن وقع اختيار بونابرت عليه ليكون كبيراً لمترجمى الحملة ، ومستشاراً له فى الشئون الشرقية ، وقد أصيب بالدوسنتاريا فى أثناء حصار عكا ، ونفى نحبه هناك ، ونعاه بونابرت إلى ديوان القاهرة ، وقال عنه الجبرتى : « ومنتوره هذا ترجمان سارى عسكر ، وكان لبيباً متبحراً ، ويعرف باللغات التركية والعربية والرومية والطليانى والفرنساوى » ج ٣ ، ص ٦٨ وكانت وفاته خسارة فادحة للعلم ، إذ لم يقدر له أن يضع مؤلفاً عن الحملة الفرنسية ، وكان من تلاميذه مارسيل Marcel المستشرق ومدير المطبعة الفرنسية والعربية التى أحضرت مع الحملة ، وجوبير Jaubert الذى خلف ڤانتور فى منصبه كبيراً لمترجمى الحملة .

(2) Napoléon 1er; Guerre d'Orient. etc., ouvr. cit., t. I. pp. 213-214.

فى شئون الإدارة والحكم ، وكانت كل قراهم وممتلكاتهم الخاصة موضع الرعاية التامة ، ولم يسبق أن تمتع هؤلاء الرجال بمثل هذا التقدير . وكانوا يجمعون فى وقت واحد بين عدة صفات ، فهم كبار رجال الدين والقضاء ، ورمز الأرستقراطية ، ولم يحدث أن سعى الناس إليهم يلتمسون حمايتهم ، كما حدث إبان الحكم الفرنسى ، إذ لم يكن المسلمون وحدهم هم الذين يرجون هذه الحماية ، بل كان ينشدها أيضاً المسيحيون من الأقباط واليونانيين والأرمن المقيمين فى مصر (١)

ومما هو جدير بالذكر أن بونابرت أصدر فى ٢٧ يوليو ١٧٩٨ — أى فى خلال الأسبوع الأول لدخوله القاهرة . قراراً بتخصيص حصان لكل عضو من أعضاء ديوان القاهرة (٢) ، وكان هذا القرار يحمل معنى التكريم والتقدير للمشايخ علماء الأزهر بالذات ، لأن عضوية ديوان القاهرة كانت فى تلك الفترة مقصورة عليهم ، فكان هذا القرار ينسحب عليهم ، كما أن وسائل المواصلات فى مدينة القاهرة كانت تخضع فى ذلك الوقت للتفرقة العنصرية ، وللنظام الطبقى معاً : فالخيل يستخدمها الأتراك العثمانيون والمماليك . أما البغال فيركبها العلماء بمقولة أنها تسير الهوينا ، وفى هدوء يناسب وقار العلماء . أما الحمير

---

(١) كان مما جاء فى مذكراته :

"Tous leurs villages, toutes leurs propriétés particulières furent ménagés avec une délicate attention. Jamais ces hommes qui étaient à la fois les chefs de la religion, de la noblesse et de la justice n'avaient été plus considérés; jamais leur protection n'avait été plus recherchée, non seulement par les Musulmans, mais même par les chretiens, Coptes, Grecs, Armeniens établis dans le pays."

Loc. cit

(2) Correspondance de Napoléon; t. IV, doc. no. 2865 en date du 9 Thermidor VIº année de la République. (27 juillet 1798).

فكانت تركبها الجماهير[١] ، وعلى مبلغ علمنا لم يوضع قرار بونابرت هذا موضع التنفيــذ[٢] :

* * *

وكان من مظاهر سياسة بونابرت الإسلامية اهتمامه العميق بالأعياد الدينية الإسلامية ، ففى شهرأغسطس ١٧٩٨ — وهو الشهر التالى لدخوله القاهرة — حلت مناسبة دينية يحتفل بها المصريون احتفالا شعبياً واسعاً ، وهى المــولد النبوى الشريف[٣] ، وكان الاتجاه العام لدى الشعب هو عدم إقامة احتفــالات فى هذه الذكرى الكريمة نظراً للظروف العصيبة التى كانت تجتازها البــلاد وقتذاك . ولعل هذا الموقف السلبى فى تلك المناسبة الدينية كان تعبيراً شعبياً دينياً عن السخط على الحكم الفرنسى ، ولكن كان هذا الموقف من ناحيــة أخرى يتعارض تماماً مع سياسة بونابرت الإسلامية ، ومن ثم أمر بأن تقــام

---

(١) كانت طائفة المكارية أو الحمارة أكثر طوائف الحرف عدداً فى مدينة القاهرة .

(٢) يستفاد من الجبرتى أن علماء الازهر وفيهم أعضاء الديوان لم يستخدموا فى تنقلاتهم إلا البغال . وقد سبق أن ذكرنا أن بونابرت قرر فى مذكراته أن علماء الأزهر قوم يميلون إلى الوداعة ولا يركبون الخيل . كما أنه كتب فى مذكراته أيضا وصفا دقيقا لركوب المشايخ علماء الأزهر البغال يحيطها الأتباع .

(٣) كان بونابرت قد احتفل قبل ذلك بأسبوع — أى فى ١٧ أغسطس ١٧٩٨ — بوفاء النيل ، وهو عيد كانت تشارك فيــه قطاعات مختلفة من سكان القاهرة المسلمين والأقباط ، وكذلك أفراد من أهل بلاد الشام المسيحيين ، ومن اليونانيين ، ويتضح من كلام الجبرتى أن المصريين انصرفوا عن المشاركة فى الاحتفال به ، على الرغم من أنهم كانوا يبتهجون به كل سنة قبل الغزو الفرنسى ، فهو يقول بعد أن وصف حفل وفاء النيل ، وما استحدثه الفرنسيون من مباهج : « وأما أهل البلد فلم يخرج منهم أحد تلك الليلة التنزه فى المراكب على العادة ، سوى النصارى والشوام والقبط والأروام والإفرنج البلديين ونسائهم ، وقليل من الناس البطالين حضروا فى صبحها » .

انظــر :

الجبرتى ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ص ١٤ — ١٥ .

احتفالات كبرى ، تفوق فى روعتها وبهائها الاحتفالات التى كانت تقام فى هذه المناسبة على عهود السلاطين المماليك ، وغيرهم من الحكام المسلمين ، كما أمر أن يشترك الجيش والموسيقات العسكرية فى الاحتفالات ، وأن تطلق المدافع نهاراً ، والألعاب النارية والصواريخ ليلا ، وأن تعلق أمام مقر القيادة العامة للجيش الفرنسى فى الأزبكية قناديل ذات زجاج متعدد الألوان ، لتبدو فى غاية البهجة عند إضاءتها ليلا .

وقد مهد بونابرت لاحتفالات المولد بشغل منصب دينى كبير هو منصب نقيب الأشراف ، وقد ظل شاغراً منذ أن هاجر عمر مكرم إلى الشام عقب معركة إمبابة ، ولعل المشايخ أعضاء الديوان أو المتطلعين إلى هـذا المنصب من أسرة البكرى هم الذين فاتحوا بونابرت فى ضرورة شغل منصب نقيب الأشراف قبل أن تبدأ احتفالات المولد النبوى الشريف ، والاحتمال الثانى هو الأصح ، لأن أسرة البكرى كانت صاحبة المصلحة فى إعادة نقابة الأشراف إليها [1] . وتمشياً مع هذا التوجيه أصدر بونابرت قراراً بتعيين السيد خليل البكرى نقيباً للأشراف ، وذهب بنفسه إلى دار الشيخ خليل البكرى ، حيث كان المشايخ أعضاء الديوان قد سبقوه إليها ، وهناك وفى حضورهم خلع بونابرت

---

(١) كانت نقابة الأشراف فى أسرة البكرى ، وكان السيد محمد البكرى هو نقيب الأشراف وشيخ السجادة البكرية ، فلما جاز إلى ربه بدون عقب فى ١٨ ربيع آخر ١٢٠٨ — ٢٣ نوفمبر ١٧٩٣ ، عين الأميران المملوكيان إبراهيم بك ومراد بك فى منصب النقيب السيد عمر مكرم ، كما عينا السيد خليل البكرى شيخاً للسجادة ، وكان تعيين عمر مكرم نقيباً للأشراف بمثابة مكافأة له على السفارة التى قام بها فى يوليو ١٧٩١ من أجل إعادة إبراهيم بك ومراد بك إلى الحكم فى القاهرة ، وكانا فى ذلك الوقت فى الصعيد يسعيان سعياً حثيثاً لاستعادة حكمهما السليب ، الذى أطاحت به الحملة العثمانية بقيادة حسن باشا الجزايرلى على مصر سنة ١٧٨٦ .

انظر ملابسات هذا الموضوع فى مؤلفنا : عمر مكرم ، القاهرة ١٩٦٧ ، ص ص ٢٤—٢٨

خلعة ثمينة على النقيب الجديد ، وكان هذا الإجراء بمثابة إعلام رسمى بتقلده المنصب، وممارسته لسلطات وظيفته[1] ، ويقول الجبرتى : « نودى فى المدينة بأن كل من كان له دعوى على شريف فليرفعها إلى النقيب[2] » .

ويصف الجبرتى اهتمام بونابرت باحتفالات المولد ، واشتراك الجيش الفرنسى فى الاحتفال به ، فيقول : « سأل صارى عسكر عن المولد النبوى ولمـــاذا لم يعملوه كعادتهم ؟ فاعتذر الشيخ البكرى بتعطيل الأمور وتوقف الأحوال ، فلم يقبل ، وقال لابد من ذلك ، وأعطى له ثلثمائة ريال فرنساوى معاونة . وأمر بتعليق تعاليق وأحبال وقناديل . واجتمع الفرنساوية يوم المولد

---

(١) انظر عرضاً لاختصاصات نقيب الأشراف ، وعلاقات الأشراف بنقيبهـــم، وطرق محاكماتهم فى بحث بعنوان :

Essai sur les mœurs des habitans (*sic*) modernes de l'Egypte, par M. de Chabrol.

وقد نشر فى الجزء ١٨ المجلد الأول ص ص ١ - ٣٤٠ فى موسوعة وصف مصر :

Description de l'Egypte, ou Recueil des Observations et des Recherches qui ont été faites en Egypte pendant l'Expédition de l'Armée Française. Seconde édition, dite de Panckoucke, Paris, 1821 - 1829. 26 volumes de texte et le même nombre de planches.

والمجموعة التى فى متناول الباحثين فى دار الكتب والوثائق القومية فى القاهرة هى الطبعة الثانية المشار إليها فى هذا الهامش ، وقد رجعنا إليها فى بحث بعض النقاط التى تتضمنها هذه الدراســـة ، ولذلك فإن الإحالة فى هوامش الصفحات التالية من هذا البحث تشير إلى الطبعة الثانية من موسوعة « وصف مصر » .

(٢) الجبرتى ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ١٥ .

ولعبوا ميادينهم ، وضربوا طبولهم ودبادبهم ، وأرسل الطبلخانة[١] الكبيرة إلى بيت الشيخ البكرى ، واستمروا يضربونها طوال النهار والليل بالبركة[٢] تحت داره ، وهى عبارة عن طبلات كبار مثل طبلات النوبة التركية ، وعدة آلات ومزامير مختلفة الأصوات مطربة ، وعملوا فى الليل حراقة نفوط مختلفة ، وسواريخ تصعد فى الهواء[٣] » .

واستمرت الاحتفالات بالمولد النبوى من ١٩ إلى ٢٣ أغسطس ١٧٩٨ ، أوقدت خلال لياليها القناديل ، وأمست شوارع القاهرة وطرقاتها بمثابة أسواق ليلية . واختص الفرنسيون ثلاثة بيوت فى القاهرة بالإضاءة القوية الكثيفة الممتازة طوال الليالى الخمس التى استغرقتها احتفالات المولد ، وكانت هذه البيوت هى : دار بونابرت ، ودار ديبوى الحاكم العسكرى لمنطقة القاهرة ، ودار السيد خليل البكرى[٤] . وكان أرباب الطرق الصوفية والأتباع والمريدون والدراويش وأصحاب الأشاير ومن إليهم يطوفون فى مواكب جرارة ، يحملون المشاعل والأعلام ، وينشدون فى أصوات هادرة عبارات دينية بين دق الطبول والتكبير ، وذكر اسم الرسول صلوات الله عليه . وسارت فى أثر هذه المواكب الدينية مواكب الطوائف ، يتقدم كل طائفة شيخها ونقيبها وأعلامها وشاراتها .

وحضر بونابرت الليلة الختامية للمولد فى دار السيد خليل البكرى ، كما حضرها العلماء الفرنسيون أعضاء مجمع مصر العلمى ، وكبار ضباط الجيش .

---

(١) فرقة الموسيقى العسكرية .

(٢) يقصد بركة الأزبكية بالقرب من ميدان الأوبرا حالياً .

(٣) الجبرتى ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ١٥ .

(4) Courrier de l'Egypte. No 1. en date du 12 Fructidor VIe année de la République (29 août 1798). p. 3.

وجلس القائد العام أرضاً ساعات طوالا يستمع إلى المقرئين يتلون آيات القرآن الكريم ، وإلى المنشدين وهم يتلون القصة النبوية ، والتواشيح الدينية : وكان كبار المشايخ يجلسون أرضاً حوله ، وكل منهم يمسك مسبحة فى يده، ينصت لما يتلى . وبلغ من دهاء بونابرت أنه أخذ يقلد الحاضرين ، فكان يهتز ذات اليمين وذات الشمال كأنه مدرك لما يقولون ، متأثر بما يتلون . وأظهر صبراً لم ينفد فى شهود حفلة الذكر من بدايتها حتى نهايتها ، وقد تخللتها مأدبة عشاء أقامها السيد خليل البكرى . ومدت الأسمطة على الطريقة الشرقية : واشترك الضيوف الفرنسيون مع المدعوين المصريين فى الجلوس أرضاً على وسائد إلى هذه الأسمطة . وكان السماط الذى جلس إليه بونابرت ، والسيد خليل البكرى يتوسط الأسمطة الأخرى ، وقد بلغ عددها خمسين سماطاً : وكان بونابرت يأكل بيديه ، فيمد يمينه فى تلال الأرز وأكوام اللحم وأطايب الطعام المقدم على صوان نحاسية ضخمة مستديرة ، وحذا الضيوف الفرنسيون على مضض حذو بونابرت ، فكانوا يأكلون بأيديهم مع المشايخ والأعيان ، ويشربون الماء المعطر برائحة الورد (١) :

وانتهج بونابرت سياسة إعلامية نشيطة عقب الاحتفالات بالمولد النبوى الشريف ، أرسل رسالة مؤرخة فى الحادى عشر من شهر فركتيدور Fructidor من السنة السادسة من التقويم الجمهورى (٢٨ أغسطس ١٧٩٨) إلى الجنرال

(1) Reybaud Louis et autres; Histoire Scientifique et Militaire de l'Expédition Française en Egypte, précédée d'une introduction, presentant le tableau de l'Egypte ancienne et moderne, depuis les Pharaons jusqu'aux successeurs d'Ali - bey, et suivi du récit des événemens (*sic*) survenus en ce pays depuis le départ des Français et sous le règne de Mohammed - Ali, Paris, Denain 1830 - 1836, 10 vols. t. III. pp. 376 - 378.

مارمون[١] Marmont يطلب منه مقابلة الشيخ محمد المسيرى كبير علماء الإسكندرية ورئيس ديوانها[٢] ، ويشرح له كيف احتفل بونابرت بالمولد النبوى فى القاهرة ، وأمره بأن يذكر له فى ثنايا الحديث أن بونابرت يجتمع ثلاث أو أربع مرات كل عشرة أيام مع كبار المشايخ ورؤساء الأشراف الذين ينحدرون من الدوحة النبوية الشريفة ، وأن له مع هؤلاء وأولئك أحاديث ومناقشات ، ثم قال فى رسالته : « إنه لايوجد من هو أكثر منى اعتقاداً فى طهارة وقدسية الديانة المحمدية » .

" ....., et que personne plus que moi n'est persuadé de la pureté et de la sainteté de la religion mohamétane.[٣] "

وفى ذات اليوم — ٢٨ أغسطس — أرسل بونابرت إلى الشيخ محمد المسيرى رسالة كان مما جاء فيها : « تعلمون التقدير الخاص الذى شعرت به نحوكم منذ اللحظة الأولى التى عرفتكم فيها ، إنى أرجو ألا يتأخر الوقت الذى استطيع فيه جمع كل الرجال العقلاء ، والمتعلمين فى البلاد ، وإقامة نظام موحد يقوم على مبادئ القرآن التى هى وحدها المبادئ الحقة ، والتى هى وحدها قديرة على إسعاد الناس » .

---

(١) تصفه الوثائق الفرنسية بأنه كان يشغل فى ذلك الوقت منصب قائد طابور متحرك بين رشيد وأبى قير .

commandant d'une colonne mobile entre Rosette et Aboukir.

(٢) عين الشيخ محمد المسيرى رئيساً لديوان الإسكندرية ، عندما أنشأ الجنرال كليبر هذا الديوان فى ٢١ أغسطس ١٧٩٨ ، تنفيذاً لأوامر أرسلها إليه بونابرت .

(3) Correspondance de Napoléon, t. IV, doc. no. 3147, au Général Marmont, en date du 11 Fructidor VI^e^ année de le République. (28 août, 1798).

" .... Vous savez l'estime particulière puc j'ai conçue de vous au premier instant où je vous ai connu. J'espère que le moment ne tardera pas où je pourrai réunir tous les hommes sages et instruits du pays, et établir un régime uniforme, fondé sur les principes de l'Alcoran, qui sont les seuls vrais et qui peuvent seuls faire le bonheur des hommes. "(١)

ومضى بونابرت فى سياسته الإعلامية ، مستغلا احتفالات المولد النبوى الشريف ، فأرسل فى ٢٩ أغسطس إلى الجنرال كليبر نسخة من عدد جريدة Courrier de l'Egypte الصادر فى ذات اليوم ، وكان هو العدد الأول من هذه الجريدة الإخبارية الفرنسية التى أصدرتها قيادة الحملة ، وكانت تطبع فى القاهرة . وقد تضمن هذا العدد مقالا عن الاحتفالات التى أقيمت بالقاهرة بمناسبة المولد النبوى ، وإسهام الفرنسيين فى هذه الاحتفالات إسهاماً رسمياً ، وقد طلب بونابرت من كليبر اتخاذ الإجراءات لترجمة هذا المقال إلى اللغة العربية ، والعمل على طبعه وإذاعته فى كافة أنحاء الشرق ، وأن يرسل إلى بونابرت أربعمائة نسخة من الترجمة العربية .(٢)

تناقلت الجماهير بتحفظ شديد أنباء هذه المشاركة البونابرتية فى احتفالات المولد النبوى ، وأدرك الشعب بسليقته أن هذه الأفعال ليست صادرة عن عقيدة حقيقية وإيمان صحيح ، وإنما هى ضرب من الخداع والنفاق، وأن بونابرت استهدف منها تخدير الشعب ، حتى تتوطد دعائم الحكم الفرنسى فى مصر ، ثم يظهر بونابرت على حقيقته ، وهكذا جاء بنتيجة عكسية إسراف بونابرت فى التظاهر باحترام الإسلام ، ويقول أحد الباحثين الفرنسيين فى هذا الصدد إن الطريقة الحقيقية لكسب قلوب المسلمين من وجهة النظر الدينية،

---

(1) Ibid, doc. no. 3148, au Cheikh El Messiri. (la même date).

(2) Ibid, doc. no. 3176 au Général Klebér, en date du 12 Fructidor VI[e] année de la République. (29 août, 1798).

هى إفهامهم بالأقوال والأفعال أن الإسلام موضع الاحترام ، أما التمادى فى إظهار مثل هذا الاحترام فإنه يثير شكوك المسلمين وسخريتهم ، ويجعلهم ينظرون إلى متزعم هذه السياسة على أنه منافق أو دجال[1].

* * *

وكان منصب أمير الحج شاغراً ، إذ كان صالح بك قد تقلد إمارة الحج فى منتصف ١٢١٢ هـ قبيل الغزو الفرنسى بشهور معدودات ، وكان من أتباع مراد بك المقربين إليه . يذكر الجبرتى أن مراد بك شيد له داراً بجوار قصره فى الجيزة ، فلما عاد صالح بك من الحجاز مع قافلة الحج المصرى رفض أن يذهب إلى القاهرة وانضم إلى إبراهيم بك فى بلبيس ، ثم ارتحل معه إلى بلاد الشام حيث توفى فى ذات السنة[2] . وأراد بونابرت استغلال هذه الفرصة بشغل المنصب ، وخلق جو من الدعاية لسياسته الإسلامية ، ووقع اختياره على مصطفى بك كتخدا الباشا العثمانى . وقد مر بنا أن مصطفى بك قد آثر البقاء فى مصر ، ولم يلحق بالباشا فى ارتحاله عن البلاد مع إبراهيم بك وعمر مكرم وغيرهما ، وكان رجلا مهاباً ، ذا نفوذ واسع . وقد نجح بونابرت فى حمله على قبول إمارة الحج . واستهدف بونابرت من تعيينه التقرب إلى الباب العالى ، لأن منصب أمير الحج

(1) "Au point de vue religieux, la vraie façon de gagner les cœurs eût été de tout mettre en œuvre pour faire comprendre aux musulmans, par des paroles et des actes, qu'on respectait sincèrement leur religion. Aller au-delà, c'était risquer d'exciter les défiances de tous et de se rendre ridicule par des jongleries.

Chauvin Victor; ouvr. cit., p. 10.

(٢) انظر ترجمة صالح بك فى الجبرتى ج ٣ ، ص ص ٦٦ — ٦٧ ، ويقول الجبرتى : إنه بعد أن مضت مدة على وفاته « أرسلت زوجته فأحضرت رمته ، ودفنتها بمصر بتربة المجاورين » .

كان يتولاه أحد كبار الأمراء المماليك من رتبة طبلخانة . ويقرر بونابرت أن هذا التعيين قد أدهش جميع الناس، وأنه أمر بأن تدفع لأمير الحج الجديد كل المخصصات المقررة لشاغل هذا المنصب (١) ، وكان منصب أمير الحج من المناصب الرئيسية فى مصر . وكان يراعى فى اختيار المرشح له شروط معينة ، لأنه كان يتحمل مسئوليات ضخمة ، أهمها حماية الحجاج من اعتداءات البدو على قافلة الحج ، وكذلك المحافظة على الأموال المعروفة باسم «الصرة» وغيرها من الخيرات التى ترسل من مصر إلى شريف مكة ، للإنفاق منها على الحرمين الشريفين، وعلى فقراء مكة المكرمة والمدينة المنورة . ونذكر بهذه المناسبة أن اتصال الحجاز بمصر كان حتى القرن التاسع عشر أقوى من اتصاله بالدولة العثمانية نفسها .

وأقيم الاحتفال بتعيين مصطفى بك أميراً للحج فى ٢ سبتمبر ١٧٩٨ ، وذهب بونابرت إلى الديوان ، وخلع عليه فى حضور المشايخ علماء الأزهر خلعة خضراء ، وأهدى إليه جواداً كريماً ، وغطاء للرأس مرصعاً بقطع من الماس والأحجار الكريمة (٢) ، وأمر بإطلاق المدافع كوسيلة إعلامية لإبلاغ سكان القاهرة بهذا التعيين (٣) . وغادر مصطفى بك مقر الديوان فى موكب رسمى ؛ وفى أثناء مسيرة الموكب أطلقت المدافع ست طلقات ، وردت عليها مدفعية القلعة . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، فضى بونابرت يحيط شغل هذا المنصب بالجو الإعلامى ، فعهد إلى ديوان القاهرة بإبلاغ أمر هذا التعيين إلى سلطان الدولة العثمانية ، وإلى شريف مكة، وحكام طرابلس وتونس والجزائر . ويلاحظ أن حجاج شمالى أفريقيا كانوا يحضرون إلى مصر وينضمون إلى

1) Napoleon 1er; Guerre d'Orient. etc., ouvr. cit., t. I, p. 228.

2) Charles- Roux F.; Bonaparte, Gouverneur d'Egypte. Paris. 1935. p. 84.

3) Reybaud; Louis et autres; ouvr. cit., t. IV, p. 80.

قافلة الحج المصرى قبل تحركها إلى الحجاز ، ومن هنا جاء اهتمام بونابرت بإبلاغ سكان شمالى أفريقيا أن الحكم الجديد فى مصر قد كفل الأمن والطمأنينة للحجاج ، وبذلك لا ينقطع قدوم حجاج هذه الأقاليم إلى مصر فى موسم الحج . ثم توسع بونابرت فى سياسته الإعلامية ، فأمر بإذاعة مذكرة الديوان على أفراد الشعب المصرى عن طريق الملصقات فى شوارع القاهرة وعند مفارق الطرق . ثم خطا خطوة أخرى حين أمر بتوجيه هـــذه المذكرة إلى سائر حكام البلاد الإسلامية ، وهذه المذكرة تحمل تاريخ عشرين من ربيع أول سنة ١٢١٣ (أول سبتمبر ١٧٩٨) . ومن الواضح أنها وضعت أولاً باللغة الفرنسية ، ثم ترجمت إلى العربية ، ويقرر أحد الباحثين الفرنسيين أن الشيخ محمد المهدى هو الذى قام — بعـــد أن تمت ترجمتها — بتنميقها قبل إعدادها للطبع والنشر [1] ، واهتمت المصادر الفرنسية بنشر النص الفرنسى الكامل لهذه المذكرة [2] ، زاعمة أنها ترجمة فرنسية للأصل العربى ، أما الجبرتى فقد ذكر ملخصاً لها [3] .

والمذكرة تحوى عرضاً عاماً لأعمال الفرنسيين فى مصر ، منذ أن انتصروا فى معركة إمبابة ، وقالت إن وفداً من المشايخ علماء الأزهر — ونعتتهم المذكرة بأنهم دكاترة الشريعة docteurs de la loi — قد عبروا النيل إلى الجيزة ، وذهبوا إلى بونابرت عقب معركة إمبابة ، وطلبوا إليه الأمان ، فأجابهم إلى طلبهم ، ثم رجـــوه أن يأذن فى أن يستمر الدعاء للسلطان فى خطبة الجمـــعة ، فأقرهم على ذلك ، وأعلن لهم أنه صديق مخلص للسلطان . وقررت المـــذكرة أن

(1) Chauvin (V.); ouvr. cit., p. 14, note 1.

(٢) نذكر على سبيل المثال :

Courrier de l'Egypte. No 6. Le 2ème jour complémentaire, VIe année de la République. pp. 1 - 3. Voir aussi:
Reybaud (L.) et autres; ouvr. cit., t. IV, pp. 81 - 85.

(٣) الجبرتى ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٢١ .

الفرنسيين حريصون حرصاً شديداً على احترام الشعائر الدينية الإسلامية ، وعلى استمرار أدائها بصورة رتيبة منتظمة ، من حيث فتح المساجد ، وإقامة الصلاة ، وتلاوة القرآن . وقالت المذكرة أيضاً إن بونابرت ذهب إلى مديرية الشرقية وأنقذ الحجاج من اعتداءات العربان ، وإنه احتفل بوفاء النيل والمولد النبوى ، وقلد مصطفى بك وكيل الباشا العثمانى إمارة الحج ، وإن هذا الاختيار لابد أن يصادف الارتياح فى دوائر الآستانة ، لأنه يؤكد حقوق الباب العالى فى مسألة هامة . وخلصت المذكرة إلى أن بونابرت مهتم بتيسير معدات الحج فى الموسم الجديد ، وأن قوافل الحج لن تتعرض لأى خطر وهى فى طريقها إلى مكة ، لأنها ستكون فى حراسة عسكرية قوية ، تجعلها بمأمن من اعتداء البدو عليها :

ويلاحظ أن الجبرتى أغفل ذكر أجزاء من هذه المذكرة ؛ ولعله اعتبر هذه الأجزاء نوعاً من النفاق ، أو الدجل السياسى ، فقد ورد فى النص الفرنسى أن بونابرت قد حطم الصلبان وهدم الكنائس فى البلاد التى فتحها فى أوروبا ، وبخاصة فى البندقية ، وأنه عصف بعرش البابا فى روما . أما الجبرتى فقد قال إنه ورد فى تلك المذكرة ذكر « بمعنى الكلام السابق من قولهم إنهم مسلمون ، وأنهم محترمون للقرآن والنبى » . وتلخيص الجبرتى للمذكرة يعطى القارئ العربى صورة عن جهود بونابرت فى سياسة الإسلامية . وعباراته أو عبارات الشيخ المهدى لاتخلو من الفائدة التاريخية ، ولذلك نذكر هنا الفقرات الأخيرة كما وردت فى الجبرتى ، فهى تقرر أن الفرنسيين « أوصلوا الحجاج المتشتتين وأكرموهم ، وأركبوا المشاة ، وأطعموا الجيعان ، وسقوا العطشان ، واعتنوا بيوم الزينة يوم جبر البحر ، وعملوا له شأناً ورونقاً ، استجلاباً لسرور المؤمنين ، وأنفقوا أموالا برسم الصدقة على الفقراء ، وكذلك اعتنوا بالمولد النبوى ، وأنفقوا أموالا فى شأن انتظامه ، واتفق رأينا ورأيهم

على لبس حضرة الجناب المحترم مصطفى أغا كتخدا بكر باشا والى مصر حالا، فاستحسنا ذلك لبقاء علقة الدولة العلية ، وهم أيضاً مجتهدون فى إتمام مهمات الحرمين ، وأمرونا أن نعلمكم بذلك » (١).

* * *

وأقام بونابرت فى ٢٢ من سبتمبر ١٧٩٨ احتفالا عسكرياً مهيباً بمناسبة الذكرى السابعة لإعلان قيام الجمهورية الفرنسية . وعلى الرغم من أن مناسبة هذا الاحتفال تتصل اتصالا وثيقاً بتاريخ فرنسا القومى ، ولا تمت لسياسة بونابرت الإسلامية بأية صلة، إلا أنه أراد أن يستغل هذه المناسبة ذات الطابع الفرنسى البحت ، ليبرز إمام المصريين الجانب الدينى الإسلامى فى سياسته فى حكم مصر ، استعد بونابرت لهذا الحفل قبل حلول موعده بمدة طويلة ، (٢)

(١) المصدر السابق . ويلاحظ أن بونابرت سبق أن أرسل مذكرتين : الأولى فى ٢٥ أغسطس والثانية فى ٢٧ أغسطس إلى غالب بن مساعد شريف مكة ، أبلغه فيها بتصميم الفرنسيين الأكيد على حماية قافلة الحج المصرى ، وأنهم سيرسلون إلى الشريف إيراد الأوقاف الخيرية المرصودة على الحجاز . وجاء فى المذكرة الأولى : « نحن أصدقاء المسلمين ولدين النبى ، ونرغب أن نعمل كل مافى استطاعتنا لتكون تصرفاتنا متمشية مع الدين ، وأرجو أن تذيعوا فى كل مكان أن قافلة الحج لن تتعرض لأى اضطراب ، وأنها ستكون موضع حمايتنا ، وأنها لن تخشى من الأعراب شيئاً » .

Correspondance de Napoléon; t. IV:

Doc. no. 3110, en date du 8 Fructidor, VIe année de la République (25 août 1798).

Doc. no. 3136, en date du 10 Fructidor, VIe année de la République (27 août 1798).

(٢) أصدر بونابرت أمراً فى ٢٦ أغسطس ١٧٩٨ يقضى بأن يقام احتفال القاهرة فى ميدان الأزبكية ، واحتفال الإسكندرية عند عمود السوارى ، واحتفال الصعيد عند أطلال طيبة فى الأقصر ، علماً بأن القوات الفرنسية بقيادة الجنرال ديزيه لم تكن قد بلغت بعد مدينة الأقصر . انظر :

Correspondance de Napoléon; t. IV, doc. no. 3117, en date du 9 Fructidor, VIe année de la République. (26 août 1798).

فأقام احتفال القاهرة فى ميدان الأزبكية أمام مقر القيادة العامة لجيش الشرق ، وأمر بإقامة قوسى نصر كبيرين — أى بوابتين — ، وكتب على إحدى البوابتين « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله »(١) ، ونقش على البوابة الأخرى صورة معركة إمبابة ، كما تخيلها الفنان ريجو Rigo(٢) عضو لجنة الفنون بمجمع مصر العلمى ، كما أمر بنصب ١٠٥ سارية بعدد المقاطعات الفرنسية ، وسارية عظيمة فى الوسط ، كان ارتفاعها سبعين قدماً ، زينها الفنان ريجو بنقوش بديعة ، وكان يرفرف فى أعلاها العلم الفرنسى المثلث الألوان ، وأطلق الفرنسيون عليها « شجرة الحرية » . أما أهل القاهرة فقد أطلقوا على هذه السارية اسماً لاذعاً سجله نقولا ترك فى مذكراته : « إن هذه شارة الخازوق الذى أدخلوه فينا ، واستيلائهم على مملكتنا »(٣) . كما أقيمت تماثيل جانبية من الخشب كتبت عليها أسماء قتلى الجيش الفرنسى فى مصر .

وكان من بين المدعوين الذين وجهت إليهم الدعوة لحضور الحفل : مصطفى بك أمير الحج ، وقاضى القضاة العثمانى ، وأعضاء ديوان القاهرة ،

---

1) Reybaud (L.) et autres, ouvr. cit., t. III, p. 379. Voir aussi: Courrier de l'Egypte. N. 8. Le 6 Vendémiaire, VIIe année de la République.

وعلى الرغم من أن المصادر والمراجع الفرنسية ذكرت كتابة الشهادتين على قوس النصر ، إلا أن الجبرتى لم يشر إلى هذه الواقعة إطلاقاً ، ولعله اعتبر كتابة الفرنسيين للشهادتين نوعاً من النفاق السياسى لا يستحق الذكر .

(٢) قام ريجو بأمر من بونابرت برسم الشخصيات المصرية والعثمانية البارزة فى مصر على عهد الحملة ، ووضعت هذه الصور فى موسوعة « وصف مصر » .

(٣) نقولا الترك : ذكر « تملك جمهور الفرنساوية الأقطار المصرية والبلاد الشامية » . نشر وترجمة ديجرانج . باريس ، ١٨٣٩ ، ص ٤٥ .

Nakouala El Turk; Histoire de l'expédition des Français en Egypte par Nakoula El-Turk, publieé et traduite par M. Desgranges aîné. Paris, 1839.

ودواوين الأقاليم ، والأعيان من المسلمين ، والأقباط ، والشوام ، ولبسوا في ذلك اليوم « ملابس الافتخار » ، وأجلسوا إلى المنصة الرئيسية التي أقيمت عند شجرة الحرية ، وفرشت المنصة وما حولها بالأبسطة الفاخرة ، وشاهد المدعوون عرضاً عسكرياً مهيباً ، تخلله إطلاق المدافع ، وكانت موسيقى الجيش تعزف الأناشيد العسكرية والوطنية . ولما انتهى العرض العسكرى اصطفت وحدات الجيش حول شجرة الحرية ، وتليت عليهم خطبة باللغة الفرنسية ، يقول عنها الجبرتى : « إنها ورقة بلغتهم لايدرى معناها إلا هم ، وكأنها كالوصية أو النصيحة أو الوعظ » (١) . ولكنها لم تكن شيئاً من ذلك ، كانت خطبة بليغة ، ألهب بها بونابرت حماس الجنود ، وأشاد بالأمجاد العسكرية التي حققوها على عهد الثورة في ميادين القتال في مختلف الجبهات الأوروبية ، وأكد لهم أن جميع المواطنين في فرنسا وعددهم أربعون مليوناً ، وهم يحتفلون بإقامة الحكم الدستورى ، يتجهون بعواطفهم وأفكارهم إلى رجال الحملة في مصر ، ويذكرون في احتفالاتهم في فرنسا أنهم « مدينون لجهادكم ودمائكم بما يتمتعون به من السلام والطمأنينة ، والرخاء والحرية » (٢) . وأرسل بونابرت كتيبة من الجنود ليرفعوا على قمة هرم الجيزة الأكبر العلم الفرنسى المثلث الألوان ، ثم دعى المدعوون إلى دار بونابرت حيث أقيمت وليمة لمائة مدعو ، وبعد الظهر نظم سباق للخيل في ميدان الأزبكية (٣) ، ولما سجا الليل « أوقدوا

---

(١) الجبرتى ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ١٨ .

(2) Napoléon Ier; Guerre d'Orient. etc., ouvr. cit., t. I, pp. 348 - 349.

(٣) انظر وصفاً ضافياً للحفل في جريدة Courrier de l'Egypte تحت عنوان :

Détails de la Fête du Ier Vendémaire célébrée au Kaire, pour l'anniversaire de la fondation de la République.

No. 8. Le 6 Vendémaire, VIIe anneé de la République (27 septembre, 1798). pp. 2 - 4.

وانظر أيضاً كلا من :

Napoléon Ier; Guerre d'Orient. etc., ouvr. cit. t. I. pp. 226 - 227.
Reybaud Louis et autres; ouvr. cit., t. III, pp. 378 - 385.

جميع القناديل التى على الحبال والتماثيل ، والأحمال التى على البيوت ، وعند العشاء عملوا حراقة بارود وسواريخ ونفوط وشبه سواقى ودواليب من قار ومدافع كثيرة نحو ساعتين من الليل ، واستمرت القناديل موقدة حتى طلع النهار »[1] ، وفى اليوم التالى أزال الفرنسيون كل هذه المنشآت ، وأبقوا شجرة الحرية وقوس النصر المنقوش فوقه رسم معركة إمبابة ، وأقاموا قوة فرنسية تتناوب الحراسة ليلا ونهاراً[2] . ولما أزال الفرنسيون السارية بعد عشرة أشهر استبشر أهل القاهرة خيراً ، واعتبروا إزالتها فألا حسناً بقرب جلاء الفرنسيين عن مصر[3] .

لا ريب أن الأمر الذى أصدره بونابرت بأن تكتب على إحدى البوابتين الشهادتان : « لا إله إلا الله، محمد رسول الله » ، وهما من أركان الإسلام الخمسة ، وفى احتفال فرنسى قومى بحت ، كان وسيلة تنم عن نهاية الدهاء السياسى لجذب قلوب الشعب المصرى ، لأنه لا يمكن أن تكون الشهادتان صادرتين عن عقيدة وإيمان فى نفس بونابرت . ومن المعروف أن الثورة الفرنسية — بتأثير حزب ايبير Jacques-René Hébert (١٧٥٧ — ١٧٩٤) وشومت Pierre-Gaspard Chaumette (١٧٦٣ — ١٧٩٤) أعلنت إلغاء الدين المسيحى فى فرنسا ، وإحلال عبادة العقل culte de la raison محلها ،

---

(١) الجبرتى ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ١٨

(٢) يقول الجبرتى : إن قوس النصر قد سقط فى الثانى من أكتوبر ١٧٩٨ بعد عشرة أيام من انقضاء الحفل « وفى يوم الثلاثاء ٢١ من ربيع آخر ١٢١٣ — ٢ من أكتوبر ١٧٩٨ سقطت البوابة المصنوعة ببركة الأزبكية ، المقابلة لبـاب الهواء ، التى كانوا وضعوها فى يوم عيدهم ، وقد تقدم شرحها ووصفها ، وسبب سقوطها أنهم لما منعوا الماء من دخوله للبركة ، وسدوا القنطرة كما تقدم ، علا الماء فى أرض البركة ، وتخلخلت الأرض ، فسقطت تلك البوابة . »
انظر : الجبرتى ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٢٢ .

(٣) نقولا ترك ، نشر ديجرانج ، ص ٤٥ .

وكان على الإنسان أن يعبد العقل ، والعقل ممثل فى سـيدة ، وكان يدخل فى الديانة الجديدة بعض مظاهر الفسق والمجون ، فالثورة الفرنسية العـارمة تجهمت للديانات السماوية بوجه عام . وجدير بالذكر أن بونابرت ، وهو ابن الثورة ، لم يكن له اعتقاد دينى صحيح ، وقد قرر فى مذكراته أن الجيش الفرنسى لم يمارس أية عبادة منذ قامت الثورة الفرنسية ، وأنه فى خلال الحملة التى خاضها الجيش فى شبه جزيرة إيطاليا لم يذهب أحد من الجنود إلى الكنائس ، وقد نهج الجيش هذا النهج فى مصر ، فلم يتردد على الكنائس (١) ، وجاءت الحملة إلى مصر وهى لا تضم أحداً من رجال الدين ، قسيساً كان أو أسقفاً (٢) .

* * *

وتابع بونابرت سياسته الإسلامية ، فأمر بالاحتفال بمولد الإمام الحسين ، وكانت نية أهل القاهرة منصرفة عن إقامته فى تلك السنة (١٢١٣ هـ—١٧٩٨م) بالنسبة للظروف التى كانت تجتازها البلاد وقتذاك . وعلم بونابرت بهـذا الاتجاه ، فأصر على إقامة الاحتفال كما جرت العادة ، وقيل له إن الاحتفال بهذا المولد يقام كل عام عقب الانتهاء من احتفالات المولد النبوى الشريف ، وقد أقيم الاحتفال فى يوم الثلاثاء الثـانى من أكتوبر ١٧٩٨ ، أو الحادى والعشرين من ربيع آخر ١٢١٣ ، وأشرف الشيخ محمـد السادات على

(1) "Depuis la revolution, l'armeé française n'exerçait aucun culte. Elle n'avait pas fréquenté les églises en Italie, elle ne les fréquentait pas davantage en Egypte ".

Napoléon I[er]; Gueire d'Oiient. etc., ouvr. cit., t. I, pp. 215.

(٢) نود بهذه المناسبة أن نصحح خطأ وقع فيه الجبرتى ، إذ قرر أن الخطبة التى أعدها بونابرت لحفل ٢٢ سبتمبر ١٧٩٨ فى القاهرة قـد ألقاها « كبير قسوسيهم » . والحقيقة أن الذى ألقى هـذه الخطبة نيابة عن بونابرت هو أحد كبار العسكريين الفرنسيين ، واسمه بويه Adjudant Général Boyer.

انظر كلا من :

الجبرتى ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ١٨

Reybaud (L.) et autres; ouvr. cit., t. III, pp. 380-381.

الاحتفال ، وفى الليلة الختامية للمولد « حضر صارى عسكر وشاهد الوقدة ، ورجع إلى داره بعد العشاء »[١] .

سياسة بونابرت الإسلامية فى المجال الدبلوماسى

ومن مظاهر سياسة بونابرت الاسلامية — فى المجال الدبلوماسى — المحاولات التى بذلها للاتصال بالصدر الأعظم وبأحمد باشا الجزار والى عكا والتودد إليهما . وكان من بين أهدافه من هذه الاتصالات إقناع المصريين بأن السلطان العثمانى صديق للفرنسيين وأنه راض عن احتلالهم لمصر . وقد وقع اختيار بونابرت على بوڤوازان Beauvoisins — مندوبه لدى ديوان القاهرة — كى يسافر إلى الشام لإجراء مباحثات سياسية واقتصادية مع أحمد باشا الجزار . وقد زوده بتعليمات مسجلة فى الوثيقة رقم ٣٠٧٧ وتاريخها ٢٢ أغسطس ١٧٩٨[٢] وقد أمره فيها بالذهاب إلى دمياط والإبحار منها على سفينة عثمانية أو يونانية إلى يافا[٣] ويطلب مقابلة أحمد باشا الجزار « لكى يصرح له بصوت عال أن المسلمين ليس لهم أصدقاء فى أوروبا مثلنا . وأننى قد علمت مع الأسف أنهم يعتقدون فى بلاد الشام آنى اعتزم الاستيلاء على بيت المقدس والقضاء على

(١) الجبرتى ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٢٢

(2) Correspondance de Napoléon, t IV.

(٣) يقول نقولا ترك فى مذكراته إن هذا المندوب سافر على سفينة تابعة لأحمد باشا الجزار كانت راسية فى ميناء دمياط وقت وصول الفرنسيين إلى مصر فاحتجزوها . ورأى الجنرال ڤيال vial الحاكم العسكرى لدمياط إطلاق سراح السفينة كى يسافر عليها بوڤوازان . وبعث فى طلب ربان السفينة واسمه العيدروس ، وأمره بأن يستعد للإبحار وأن يأخذ معه على السفينة « مندوب من طرف الدولة الفرنساوية لمقابلة أحمد باشا الجزار لأجل عقد الصلح وإقرار السلام » ، وأخذ بوڤوازان معه مقادير من الأرز بمثابة هدية للجزار ، واصطحب معه ترجمانا وتاجرين عربيين شاميين مسيحيين هما أنطون زغيب ، وحنا عطية .

انظر :

مذكرات نقولا ترك ، نشر وترجمة وتعليق الأستاذ ڤيت ، ص ص ٣٣ — ٣٤ .

الدين الإسلامى ؛ وليقل له إن هذه الظنون بعيدة عن رغبتى وميولى : فليكن مطمئن البال . . . . ويجب عليه ألا يخلط بيننا وبين غيرنا من الأوروبيين، ذلك لأننا معشر الفرنسيين لانستعبد المسلمين ، بل على العكس إننا نفسح لهم طريق الحرية » وطلب بونابرت من مندوبه أن يسافر إلى عكا إذا لم يجد الجزار باشا فى يافا ؛

أما الخطاب الذى بعث به بونابرت إلى الجزار وأخذه معه بوڤوازان فيحمل ذات، التاريخ وهو الثانى والعشرين من أغسطس ١٧٩٨ . وهذا نصه .

« إلى أحمد باشا حاكم صيدا وعكا

« ماجئت مصر محارباً المسلمين ، ولكن جئتها لمحاربة البكوات المماليك ؛ واعتقد أنى باستئصال شأفتهم قد أديت عملا عادلا وموافقا لمصلحتك ، لأنهم كانوا أعداءك . ولابد أنك تعلم أننى لمـــا استوليت على مالطة كان أول إجراء قمت به هو أنى أطلقت سراح الأسرى العثمانيين ، وعددهم ألفان ، قضوا سنوات عديدة فى ذل الأسر والاستعباد . ولم أكد أصل إلى مصر حتى اطمـــأن بال الأهالى . وقـــد بالغت فى احترام العلماء ورجال الدين ومساجد المسلمين . ولم يسبق للحجاج المسلمين أن ظفروا بمثل العناية والرعاية التى لقوها منى . ولم يسبق أن احتفل بالمولد النبوى بمثل ما احتفلت به وبمثل ما أضفيت على الاحتفال به من أبهة كاملة واحترام عميق ؛

« وقد بعثت إليك بهـــذا الخطاب مـــع ضابط يستطيع أن يوقفك على اتجاهاتى ورغبتى فى أن تسودنا علاقات صفاء وسلام لنتعاون معا على ترقيـــة الوسائل المؤدية إلى نمو التجارة وخير البلدين . وأؤكد أنه لايوجد للمسلمين أصدقاء أكثر إخلاصاً من الفرنسيين . » وقد فشل بوڤوازان فى مهمته فشلا ذريعاً ، إذ رفض الجـــزار باشا مقابلته كما رفض الهدية وقال « أَخْرِج حالا

التجار وأرزاقهم من البركندة (١) . ونزّل هذا الكافر مع ترجمانه فى أحد النقاير (٢) ، وأخبره بأن يرجع إلى حيث أتى ، وإن لم يرجع فى هذه الساعة سأحرق فيـه النقيرة » وتم نقل بوفوازان وترجمانه إلى سفينة أخرى عادت بهما مع كميات الأرز إلى دمياط . أما التاجران فقد أمر الجزار باشا بقتلهما ومصادرة بضائعهما (٣).

أما الاتصالات التى قام بها بونابرت مع الصدر الأعظم فقد أخذت صورة مذكرة مؤرخة فى ٢٢ من أغسطس ١٧٩٨ بعث بها وردد فيها قوله أو زعمه أن الجيش الفرنسى قد جاء إلى مصر ليعاقب البكوات المماليك على الإهانات التى دأبوا على توجيهها إلى التجار الفرنسيين ، وقال إن حكومة الديركتوار قد عينت تاليران — بيريجهور Talleyrand-Périgord وزير الخارجية سفيراً فى الآستانة ، وأنها زودته بتعليمات لعقـد معاهدة تستهدف توطيـد العلاقات الودية القديمة بين الدولتين وتذليل ما قد ينشأ من صـعاب بسبب احتلال الجيش الفرنسى لمصر . وقال أيضـا إنه أرسل هـذا الخطاب لتوضيح النوايا الطيبـة للحكومة الفرنسية نحو الدولة العثمانية ، لأنه يخشى أن يكون وصول السفير الفرنسى إلى الآستانة قد تأخر بعض الوقت بسبب بعض الطوارئ . واقترح عليه

(١) بركندة لفظة تستعمل فى اللغة التركية بمعنى سفينة ذات صاريين ، ولها سطح أو ظهر واحد ، وهى مشتقة من الكلمة الأيطالية brigantino ، ومنها دخلت اللغة الفرنسـية brigantin انظر :

Meynard Barbier de; ouvr. cit., t. I, p.196, et p. 394.

(٢) نقاير مفردها نقيرة ، وهى سفينة وكانت تطلق وقتذاك على القرفاطة . corvette

(٣) مذكرات نقولا ترك ص ص ٣٣ — ٣٤ وتتفق رواية نقولا ترك فى جوهرها مع رواية الجبرتى وإن كان نقولا ترك أكثر تفصيلا . ذكر الجبرتى وهو يستعرض حوادث شهر ربيع أول سنة ١٢١٣ « حضر القاصد الذى كان أرسله كبير الفرنساوية بمكاتبات وهدية إلى أحمد باشا الجزار بعكا ، وذلك عند استقرارهم بمصر وصحبته أنفار من النصارى الشوام فى صفة تجار ومعهم جانب أرز ، ونزلوا من ثغر دمياط فى سفينة من سفائن أحمد باشا . فلما وصلوا إلى عكا وعلم بهم أحمد باشا أمر بذلك الفرنساوى فنقلوه إلى بعض النقاير ، ولم يواجهه ولم يأخذ منه شيئا ، وأمره بالرجوع من حيث أتى . وعوق عنده نصارى الشوام الذين كانوا بصحبته » .

فى هذه الحالة أحد حلين : إما أن يرسل الصدر الأعظم مندوبا مزوداً بالتعليمات والصلاحية لإجراء مفاوضات سياسية ، أو يرسل الصـــدر الأعظم فرماناً إلى بونابرت . وعلى ضوء مايجئ فى هذا الفرمان يرسل بونابرت مندوبا للدخول فى مباحثات لتحديد مستقبل مصر ولتسوية المسائل « التى تكون فى مصلحة جلالة السلطان والجمهورية الفرنسية حليفته الأكثر أمانة ، وتوقع فى الارتباك والحيرة البكوات المماليك أعداءنا المشتركين . »

ولم يكن لهذا الخطاب أى صدى فى دوائر الباب العالى، لأن هذه الدوائر كانت قد حزبت أمرها على امتشاق الحسام ضد فرنسا ، وشجعها على ذلك تحطيم الأسطول الفرنسى فى معركة أبى قيرالبحرية ، ثم دخول روسيا الحرب إلى جانب الدولة العثمانية ضد فرنسا . وكان العامل الثانى هو الحاسم فى تحديد موقف الدولة العثمانية .

* * *

الأزهر يتنادى إلى الثورة

حسبنا أن نقف مؤقتاً عند هذه المظاهر التى ذكرناها لسياسة بونابرت الإسلامية لنتبين صداها فى نفوس المصريين، لأنه فى صباح ٢١ من أكتوبر ١٧٩٨ اندلعت ثورة دينية عارمة فى القاهرة ضد الحكم الفرنسى ، تنادى إليها الأزهريون ، وتزعمها الشيخ محمد السادات ، بعد أن كونوا مجلساً لقيادة الثورة ، جعل من الجامع الأزهر مقراً لهذا المجلس الثورى ، وانطلق المؤذنون من مآذن المساجد فى القاهرة يدعون المسلمين إلى الحفاظ على دينهم، بالقيام على الفرنسيين . وكانت استجابة المسلمين من سكان القاهرة والقرى المحطية بها لهذا النداء الدينى الثورى استجابة فورية ، فنفروا خفافاً وثقالا يجاهدون الفرنسيين ، وأخذت شوارع القاهرة تموج بالثوار وهم يهتفون : نصر الله دين الإسلام .

الأزهر ملتقى المعارضين للحكم الفرنسى

ويلاحظ أن الجامع الأزهر كان ملتقى المعارضين للحكم الفـــرنسى ، والساخطين عليه ، ويشير بونابرت فى أكثر من موضع فى مذكراته إلى أن هؤلاء الناقدين على الحكم الفرنسى كانوا يجتمعون فى رحاب الجامع الأزهر كلما صدر عن السلطات الفرنسية تصرف يسىء إليهم ، وحسبنا أن نشير هنا إلى إحدى هذه المرات ، فقد ذكر بونابرت أنه لـــا صدرت الأوامر بهدم المقابر ، تقاطرت وفود سكان القاهرة إلى مقر القيادة العامة للجيش الفـــرنسى فى الأزبكية ، وكان يتزعم هذه الوفود الشعبية أئمة المساجد ومؤذنوها . ويصفهم بونابرت بأنهم قوم مسرفون فى تعصبهم ، وأنهم تكلموا أمامه بانفعال شديد ، وصبوا جام غضبهم على المهندسين الفرنسيين . وعلى الرغم من أنه أصـــدر الأوامر بإيقاف عمليات هدم المقابر فوراً ، فإن المتظاهرين خرجوا من عنده وذهبوا إلى الجامع الأزهر ليتدارسوا الموقف [1] .

أحداث سبقت قيام الثورة

ولنمر مروراً سريعاً ببعض الأحداث التى سبقت قيام الثورة ، وهى أحداث ذات صلة وثيقة بسياسة بونابرت الإسلامية ، ولنبدأ بأول منشور وجهه هذا

(1) Napoléon Ier; Guerre d'Orient. etc., ouvr. cit., t. I. pp. 229-230.

ويشير الجبرتى إلى هـــذا الحادث الذى أثار سكان القاهرة ، وهو يتكلم عن حوادث يوم السبت ١٨ من ربيع آخر ١٢١٣ (٢٩ من سبتمبر ١٧٩٨) فيقول : « ذهبت جماعة من القواسة الذين يخدمون الفرنساوية ، وشرعوا فى هدم التراكيب المبنية على المقابر بتربة الأزبكية ، وتمهيدها بالأرض ، فشاع الخبر بذلك ، وتسامع أصحاب الترب بتلك البقعة ، فخرجوا من كل حدب ينساون ، وأكثرهم النساء الساكنات بحارات المدابغ وباب اللوق وكوم الشيخ سلامة والفـــوالة والناصرة وقنطرة الأمير حسين وقلعة الكلاب ، إلى أن صاروا كالجراد المنتشر ، ولهم صياح وضجيج ، واجتمعوا بالأزبكية ، ووقفوا تحت بيت صارى عسكر ، فنزل لهـــم الترجمون ، واعتذروا بأن صارى عسكر لاعلم له بذلك الهدم ، ولم يأمر به ، وإنما أمر بمنع الدفن فقـــط ، فرجعوا إلى أماكنهم ، ورفع الهدم عنهم » .

انظر الجبرتى ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٢١ .

القائد إلى الشعب المصرى بتاريخ ٢ يوليو ١٧٩٨ ، فنقول إن استجابة الشعب إلى هذا المنشور جاءت على غير ما كان يرجو بونابرت ، إذ لما بلغت القاهرة أنباء انتصار الفرنسيين فى معركة شبراريس[(١)] ، ومواصلة زحفهم على القاهرة ، نودى بالنفير العام ، وصعد عمر مكرم نقيب الأشراف إلى القلعة وأنزل منها علماً كبيراً أطلق عليه العامة « البيرق النبوى » ونشره بين يديه ، ومشى به من القلعة ، مطوفاً بشوارع القاهرة ، داعياً إلى الجهاد الدينى ، وانتهى به المطاف فى بولاق ، حيث كان الأمير إبراهيم بك قد أقام معسكراً لقواته المملوكية على الضفة الشرقية للنيل ، ووقف الأمير مراد بك بقواته فى إمبابة على الضفة الغربية ، وأغلق التجار حوانيتهم ، وخلت الأسواق من روادها ، واشتركت طوائف الحرف فى التطوع ، وكانت كل طائفة تجمع الأموال من أفرادها ، كل على قدر طاقته ، واشترى رؤساء الطوائف الأسلحة والذخائر والخيام ، وتطوع الأثرياء بتجهيز جماعات من المغاربة والشوام بالسلاح والطعام وغير ذلك ، وتوافد على القاهرة جموع كثيفة العدد من عرب البحيرة والشرقية والصعيد ، ليشتركوا فى الكفاح . يقول الجبرتى : « إن جميع الناس بذلوا وسعهم ، وفعلوا مافى قوتهم وطاقتهم ، وسمحت نفوسهم بإنفاق أموالهم . فلم يشح فى ذلك الوقت أحد بشىء يملكه .... ومحصل الأمر أن جميع من بمصر من الرجال تحول إلى بولاق ، وأقام بها من حين نصب إبراهيم بك العرضى هناك[(٢)] ، إلى وقت الهزيمة ، سوى القليل من الناس الذين لا يجدون لهم مكاناً ولا مأوى ، فيرجعون إلى بيوتهم ويبيتون بها ، ثم يصبحون إلى بولاق »[(٣)]

---

(١) تذكر المصادر والمراجع العربية أن المعركة دارت فى بلدة شبراخيت ، بينما تذكر معظم المصادر الفرنسية المعاصرة لأحداث الحملة أن المعركة وقعت فى مكان يسمى شبراريس Choubrâ Reïs وقد سبق أن تعرضنا لهذه المسألة وحددنا مكان قرية شبراريس التى دارت فيها المعركة . انظر ص ٢٤ هامش رقم (٢) فى هذا البحث .

(٢) العرضى كلمة مأخوذة من اللغة التركية : أوردو ، ومعناها معسكر ، وقد وردت فى كتابات بعض الباحثين : أوردى ، أوردو ، أرضى .

(٣) الجبرتى ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٧ .

وبعد انتصار الفرنسيين فى معركة إمبابة ، رفض عمر مكرم ومعه نفر من المصريين أن يكونوا من دعائم الحكم الجديد ، وآثروا الهجرة إلى بلاد الشام ، وفضلوا النفى الاختيارى والتشريد وشظف العيش ، على التعاون مع الفرنسيين فى أية صورة من صور التعاون .

وأصدر بونابرت قراراً بإنشاء ديوان القاهرة ، وحدد فيه أسماء أعضائه — كما ذكرنا — ولكن رفض ثلاثة منهم هم : عمر مكرم ، والشيخ محمد السادات ، والشيخ محمد الأمير عضوية الديوان أنفة ، فحل محلهم ثلاثة آخرون هم المشايخ : الدمنهورى ، والشبراخيتى ، والدواخلى . وسنتعرض فى موطن قادم من هذه الدراسة لطبيعة العلاقات بين الفرنسيين وبين المشايخ علماء الأزهر ، الذين قبلوا عضوية الديوان ، وسنرى كيف أدرك بونابرت وغيره من كبار رجال الحملة أن قلوب علماء الأزهر كانت نافرة من الحكم الفرنسى .

* * *

السبب الرئيسى للثورة

قامت ثورة أكتوبر ١٧٩٨ قبل أن تنقضى ثلاثة أشهر على دخول الفرنسيين القاهرة ، وكان بونابرت حريصاً الحرص كله خلال هذه الأشهر الثلاثة على انتهاج سياسته الإسلامية تقرباً إلى الشعب ، فكان نشوب الثورة دليلا على إخفاق سياسته الإسلامية . وترجع هذه الثورة إلى سبب رئيسى وإلى عوامل مشجعة ، وأخرى مساعدة ، ويتمثل السبب الرئيسى فى استحالة إيجاد جو من التعايش السلمى بين الحكم الفرنسى لمصر الإسلامية وبين الشعب المصرى بسبب اختلاف الدين بين الفرنسيين والمصريين ، وكان الشعب فى القرن الثامن عشر يشكل مجتمعاً دينياً إسلامياً متزمتاً ، ينظر إلى الدولة العثمانية على

أنها دولة الإسلام الكبرى ، وأن سلطانها هــو سلطان المسلمين[1] ، ولم تكن العاطفة القومية قد وجدت بعد بين أفراد الشعب المصرى ، وكانت ثقافتهم ثقافة دينية ، ولم تكن الدولة العثمانية بالنسبة لمصر دولة أجنبية من ناحية الفقه الإسلامى ، لأنه من المبــادئ المقررة فى الشريعة الإسلامية أن بلاد المسلمين جميعها تعتبر داراً واحدة ، مهما تعددت أقاليمها ، والفقه الإسلامى يقسم العالم إلى قسمين : دار الإسلام ، ودار الحرب ، وتشمل الأولى البلاد التى يكون للمسلمين ولاية عليهــا ، وتضم إلى جانب المسلمين أشخاصاً من غير المسلمين هم الذميون والمستأمنون ، أما دار الحرب فتشمل البلاد التى ليس للمسلمين ولاية عليها ، ولا تقام فيها أكثر شعائر الإسلام[2] ؛ يضاف إلى ذلك أن اشتباك الدولة العثمانية فى حروب خارجية ، شنتها عليها الدول الأوروبية طوال القرن الثامن عشر ، والانتصارات التى أحرزتها النمسا والروسيا عليها ، كل أولئك جعل الشعب المصرى يزداد تعلقاً بالدولة العثمانية ، وولاء لسلطانها .

فى هذا الجو الدينى المتزمت هبط الفرنسيون أرض مصر ، واستولوا عليها عنوة ، وغادر مصر أبو بكر باشا الطرابلسى الوالى العثمانى ، ومعه الأمير إبراهيم بك شيخ البلد ، وعمر مكرم نقيب الأشراف ، وعدد من المصريين ،

(١) نذكر هنا حادثين يؤكدان هذه الحقيقة ، وقد وقعا إبان الحكم الفرنسى ، وكان الحادث الأول عندما قدم نلسن بالأسطول الإنجليزى إلى الإسكندرية ، قبل مجىء الحملة الفرنسية يبحث عنها ، وأرسل نلسن مندوباً إلى حاكم الثغر ، وهو السيد محمد كريم ، فقال له الأخير فى سياق حــديث مثير : « هذه بلاد السلطان ، وليس للفرنسيس ، ولا لغيرهم عليها سبيل » .

أما الحادث الثانى ، فقد وقع فى أعقاب ثورة القاهرة الثانية (٢٠ مارس — ٢١ أبريل ١٨٠٠) حين حدد الجنرال كليبر يوم ٣ من مايو ١٨٠٠ موعداً لمقــابلة المشايخ علماء الأزهر ، وفى هــذا الاجتماع قال المشايخ عن السلطان العثمانى إنه « سلطاننا القديم ، وسلطان المسلمين » .

انظر عن هذين الحادثين :

الجبرتى ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ص ٢ — ٣ ، وص ١٠٧ على التوالى .

(٢) دكتور محمد حافظ غانم : مبادئ القانون الدولى العام . دراسة لضوابطه الأصوليــة ، ولأحكامه العامة . القاهرة ، ١٩٦١ ، ص ص ٤١ — ٤٦ .

وبمغادرة الباشا العثمانى البلاد زال مظهر من مظاهر السيادة العثمانية على مصر ، وأصبح بونابرت على رأس النظام الجديد Le Nouveau Régime ، أو الحكم الجديد ، ولم يكن بونابرت مسلماً ولا عثمانياً ولا مملوكياً . ونظر المصريون إليه على حقيقته : حاكماً مسيحياً أوروبياً عسكرياً أجنبياً ، استولى على بلادهم عنوة . وكان المصريون حتى ذلك الوقت لا يعرفون عن أوروبا إلا وجهها الكريه ، فذكريات الحروب الصليبية كانت لا تزال عالقة فى أذهانهم ، . ولم تكن هناك اتصالات اقتصادية أو ثقافية أو اجتماعية بين الشعب المصرى وبين الشعوب الأوروبية ، لأن رواسب الحروب الصليبية كانت تحول دون قيام مثل هذه الاتصالات من ناحية ، ولأن الدولة العثمانية نفسها كانت قد فرضت العزلة على مصر وغيرها من الولايات العربية من ناحية ثانية ، ولأن الظروف التى عاش فى ظلالها المصريون كانت لا تسمح لهم على الإطلاق أن يمدوا أبصارهم عبر البحر المتوسط إلى أوروبا ، لينشئوا معها تلك الصلات حتى ولو كانت الدولة العثمانية قد أذنت لهم فى إيجاد مثل تلك العلاقات من ناحية ثالثة ، فمستوى معيشتهم كان هابطاً ، والاقتصاد المصرى كان اقتصاداً محلياً ، وثقافتهم كانت دينية بحتة ، ولم يتجهوا لدراسة الهندسة ، أو الطب ، أو الزراعة ، أو غيرها من الدراسات العلمية التى كانت تقوم بها معظم الجامعات الأوروبية .

كان المصريون قد اعتادوا الانقلابات السياسية بكثرة ملحوظة ، وبخاصة فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، بحيث كادت تصبح هذه الانقلابات أمراً عادياً فى الحياة السياسية بمصر ، ولكن كانت جميعها على وتيرة واحدة ، لم يأت واحد منها بجديد على النظام السياسى ، أو التقاليد الدينية ، أو الحياة الاجتماعية . كان الأمراء المماليك يتكتلون ضد الباشا العثمانى ، ويجمعون

كلمتهم على إنهاء حكمه ، ويتحرك أرباب العكاكيز ويصعدون إلى القاعة لإبلاغ الباشا بقرار عزله ، فيصدع بما يؤمر ، ويهبط من القاعة إلى إحدى الدور الخاصة ، ريثما تتم محاسبته على تصرفاته المالية ، ثم تتخذ إجراءات ترحيله عن البلاد ، وينزل الباب العالى على رغبة الأمراء المماليك ،ويرسل والياً جديداً يستقر فى قلعة الجبل ، ويمضى فى حكم البلاد ، دون إحداث تغيير أو تطوير فى أجهزة الحكم.وكان شيخ البلد — وهو كبير الأمراء المماليك ، وثانى شخصية فى مصر بعد الباشا — يواجه منافسة خطيرة من أمير مملوكى آخر يتطلع إلى الظفر بهذا المنصب ، تأسيساً على أنه أكثر منه جمعاً ، وأعز نفراً ، وأشد بأساً ، ويقع صراع دموى بين هذين الأميرين المملوكيين ، وينتهى هذا الصراع بمصرع أحدهما أو هزيمته ، وفراره مع فلول قواته إلى أقاصى الصعيد . ويمضى الأمير المنتصر فى مشيخة مصر ، يحكم البلاد ، كما حكمها سلفه من قبل ، دون المساس بالأوضاع السائدة ، ثم يظهر عليه بعد فترة — قد تطول وقد تقصر — أمير مملوكى جديد ، ويتكرر المشهد الدامى، من اندلاع حرب داخلية بين قوات كل منهما ، تسفر عن هزيمة أمير ، وانتصار أمير ينصرف إلى حكم البلاد ، مبقياً على كافة النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، التى اعتادها الشعب جيلا بعد جيل .

عرف أهل القاهرة بصفة خاصة هذه الانقلابات ، وشاهدوها عن كثب ، ولكنهم وقفوا منها موقفاً سلبياً ، ولم يكن يعنيهم انتصار أمير مملوكى معين أو هزيمته ، لأن هذه الانقلابات لم تمس أساويهم فى الحياة ، على الرغم مما كان يسبقها ، أويصحبها ، أويعقبها من اضطراب الأمن ، وتعسف الحاكم المنتصر ، إذ يسرف فى فرض ضرائب جزافية على الشعب الكادح .

هذه الانقلابات المذكورة كانت كلها انقلابات « إسلامية » و « فردية » ، وفى « نطاق الدولة العثمانية » ، ويقصد بالإسلامية أن القادة الذين تزعموا هذه

الانقلابات مسلمون . ويقصد بالفردية أن فرداً واحداً قاد الانقلاب ، وجنى ثمرته حكماً وجاهاً ونفوذاً ، إذا نجح الانقلاب ، أو دفع حياته ثمناً لهذه المغامرة إذا باء بالفشل . ويقصد بعبارة « فى نطاق الدولة العثمانية » أن هذه الانقلابات لم تستهدف الاستقلال عن الدولة العثمانية ، ولذلك فإن الانقلابات أو الحركات التى قامت فى الشرق العربى العثمانى الإسلامى تختلف اختلافاً جذرياً عن الحركات التى قامت فى الولايات العثمانية الأوروبية المسيحية ، فهذه كانت حركات انفصالية أو استقلالية ، دفعت إليها الروح القومية والدينية معاً ، وغذتها الدول الأوروبية مثل النمسا والروسيا . ومما يذكر أن على بك الكبير الذى قام بحركته (١٧٦٨ — ١٧٧٣) لم يجرؤ على إعلان انفصاله عن الدولة العثمانية ، واستقلاله بمصر : حقيقة أنه شل نفوذ الديوان ونفوذ الفرق العسكرية العثمانية ، وانتهز فرصة اندلاع الحرب الروسية التركية فى سنة ١٧٦٨ ، وتخلص من الباشا العثمانى فى أكتوبر من ذات السنة ، ولم يسمح لأى وال عثمانى بدخول مصر ، أو كما يقول الجبرتى : « منع ورود الولاة العثمانيين »(١) ، وامتنع عن إرسال الجزية إلى السلطان ابتداء من سنة ١٧٦٨ ، ولكنه لم يلقب نفسه سلطاناً ، وكانت الوثائق الرسمية الخاصة بهذه الفترة من بدء حركته حتى وفاته تصدر باسم « حضرت على بك ميرلوا — أى أمير لواء — قائمقام محروسة مصر »(٢) ، وأكثر من ذلك أمر على بك بضرب خطيب مسجد الداودية بالقاهرة ، لأنه دعا فى خطبة الجمعة للسلطان العثمانى ، ثم دعا لعلى بك ، وامتعض على بك من هذا التصرف ، وكان يريد أن يكون دعاء الخطيب

---

(١) الجبرتى ، مصدر سبق ذكره ، ج ١ ، ص ٣٨١ .

(٢) دكتور محمد رفعت رمضان : على بك الكبير . القاهرة ، لم تذكر سنة الطبع ، الناشر دار الفكر العربى ، ص ٦١ .

مقصوراً على السلطان وحده ، على الرغم مما كان بين الاثنين من نفور ووحشة (١) كما أنه أمر — بعد أن قام بحركته — بسك عملة جديدة ، فضية أولاً ، وذهبية بعد ذلك ، جعل على أحد وجهيها طغراء باسم السلطان مصطفى الثالث سلطان الدولة العثمانية وقتذاك (١٧٥٧ — ١٧٧٤) ، وعلى وجهها الآخر نقشت عبارة « ضرب فى مصر » ، ونقش اسم « على » بطريقة تنم عن التحايل على عدم ذكر اسمه صراحة ، إذ استخدم حرف الباء فى كلمة ضرب كحرف ياء لكلمة « على » (٢) . واستناداً إلى هذه الأسانيد نستطيع أن نقرر أن على باك الكبير حافظ على بعض الروابط بين مصر والدولة العثمانية ، مثـــل الخطبة والعملة ، وأنه استهدف من حركته الانفـــراد بحكم مصر ، مع بقائها داخل نطاق الدولة العثمانية ، فحركة على بك كانت « إســـلامية » و « فردية » ، و « فى نطاق الدولة العثمانية » .

نخلص من هـــذا التحليل السريع لحركة الانقلابات التى شهدتها مصر فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، إلى أن هذه الانقلابات كانت تختلف

(١) ذكر الجبرتى هـــذا الحادث فقال : « إن على بك صـــلى الجمعة فى أوائل شهر رمضان ١١٨٣ هـ (٢٩ ديسمبر ١٧٦٩ — ٢٧ يناير ١٧٧٠) بجامع الداودية ، فخطب الشيخ عبد ربه ، ودعا للسلطان ، ثم دعا لعلى بك ، فلما انقضت الصلاة ، وقام على بك يريد الانصراف أحضر الخطيب ، وكان رجلا من أهل العلم ، يغلب عليه البله والصلاح . فقال له : « من أمرك بالدعاء باسمى على المنبر ؟ أقيل لك إنى سلطان ؟ فقال : نعم ، أنت سلطان ، وأنا أدعو لك . فأظهـــر الغيظ ، وأمر بضربه ، فبطحوه وضربوه بالعصى . فقام بعـــد ذلك متألمـــاً من الضرب ، وركب حماراً وذهب إلى داره وهو يقول فى طريقه : بدأ الإسلام غريباً ، وسيعود غريباً كما بدأ ، ثم إن على باك أرسل إليه فى ثانى يوم بدراهم وكسوة ، واستسمحه » .

انظر : الجبرتى ؛ مصدر سبق ذكره ، ج ١ ، ص ص ٣٣٦ — ٣٣٧ .

(٢) انظر البحث الذى وضعه Samuel Bernard عن تطور النقود فى مصر عـــبر العصور التاريخية ، منذ عصر الخلفاء حتى عصر الحملة الفرنسية ، ونماذجها ، وأشكالها وأوزانها وأنواعها ، وطرق سكها ، وما إلى ذلك . وقد نشر هذا البحث الضافى بعنوان :

Mèmoire sur les monnoies (*sic*) d'Egypte.
dans:
Description de l'Egypte, t. XVI, pp. 267 - 506.

اختلافاً جذرياً عن الانقلاب الذى تم بنزول الحملة الفرنسية أرض مصر سنة ١٧٩٨ ، فكان اختلاف الدين بين المصريين والفرنسيين هو الحائل الأكبر دون إيجاد جو من التعايش السلمى بين الفريقين ، وكان هو العامل الأهم الذى حدد نوع العلاقات بين الطرفين .

بونابرت يعترف بأهمية العازل الدينى

وقد أوضح بونابرت أهمية اختلاف الدين فى تحديد العلاقات بين الفرنسيين وبين الشعب المصرى ، واعتقد بونابرت بعد إقامته فى مصر ، أو لعله ازداد اعتقاداً ، فى سلامة الآراء التى سبق أن رددها الرحالة الفرنسى ڤولنى Volney عقب زيارته للشام ومصر سنة ١٧٨٥ ، فقد ذكر بونابرت فى مذكراته ، هذه الآراء منسوبة إلى صاحبها الرحالة الفرنسى ، وتتلخص فى أن اختلاف الدين بين الفرنسيين وبين المصريين هو العقبة الرئيسية التى تحول دون توطيد دعائم الحكم الفرنسى فى مصر ، لأن الاستيلاء على مصر يتطلب — فى نظر هذا الرحالة — ثلاثة حروب : الحرب الأولى ضد إنجلترا ، والثانية ضد الدولة العثمانية ، والثالثة وهى أشقها وأصعبها هى ضد المسلمين سكان مصر ، وتتطلب الحرب الأخيرة تضحيات جسيمة ، بحيث تعتبر حرب استنزاف للفرنسيين ، ولا يمكن التغلب عليها [1] .

ومضى بونابرت يقول فى صراحة تامة : إن الجيش الفرنسى قد استولى على الإسكندرية والقاهرة ، وانتصر فى معركتى شبراريس وإمبابة ، ولكن

(١) كان ڤولنى قد قام برحلة إلى بلاد الشام ومصر فى السنوات ١٧٨٣ ، ١٧٨٤ ، ١٧٨٥ ، وأصدر كتاباً عن هذه الرحلة ، وأهدى نسخة منه إلى كاترين الثانية قيصرة روسيا ، وأظهرت تقديراً للمؤلف ، فمنحته وساماً ذهبياً ، وأعيد طبع هذا الكتاب عدة مرات ١٧٩٢ ، ثم فى سنة ١٧٩٩ ثم فى ١٨٠٧ كما ترجم إلى الألمانية والهولندية ، وفى السنة التالية لصدور كتابه ، أى فى سنة ١٧٨٨ أصدر ڤولنى كتيباً جديداً ، أوضح فيه الصعاب التى تحول دون نجاح الفرنسيين فى استعمار مصر ، وكان فى مقدمتها اختلاف الدين والعادات ، والأخلاق .

موقف الفرنسيين لم يكن مستقراً ، بل ظل مزعزعاً ، ولم يتحمل المصريون وجود الفرنسيين فى بلادهم إلا كرهاً ، لأن سرعة الحوادث قد أذهلتهم ، ولم يذعنوا إلا أمام القوة المادية ، ولكنهم — كمؤمنين مسلمين — لايخفون حسرتهم واستياءهم من انتصار غير المؤمنين (١) الذين دنسوا بوجودهم مياه النيل المقدسة ، وكانوا يعتبرون أنه من العار والخزى أن تسقط مصر فريسة فى أيدى الفرنسيين ، لأنها تقع على الطريق المؤدى إلى الحجاز مهد الكعبة ، وغيرها من الآثار المقدسة الإسلامية ، ثم قال إن أئمة المساجد كانوا يختارون فى تلاوة القرآن الكريم الآيات التى تحض المؤمنين على قتال غير المؤمنين Les infidèles ، وقرر بونابرت فى عبارة صريحة أنه كان من الواجب العمل على وقف انتشار هذه الآراء الدينية ، لأن الجيش على الرغم من انتصاراته كانت تحيط به الأخطار ، وكان يصعب على الجيش أن يصمد فى حرب دينية (٢) .

نقولا ترك يؤكد أهمية العازل الدينى

ومما هو جدير بالذكر أن المعلم نقولا ترك — وهو من موارنة لبنان ، وعاصر أحداث الحملة فى مصر — يصور تصويراً دقيقاً هذا العازل الدينى

= انظر :

Volney Constantin F.; Voyage en Syrie et en Egypte pendant les années 1783, 1784 et 1785. Paris - 1787.

t II, Voyage en Syrie et en Egypte pendant les années 1783, 1784 et 1785, suivi de considérations sur la guerre des Russes et des Turcs, publiées en 1788 et 1789. Paris, 1822.

ومما يذكر أن بونابرت أراد ضم فولنى إلى لجنة الفنون والعلوم المرافقة للحملة الفرنسية على مصر ، ولكنه اعتذر لكبر سنه ، ومع ذلك فقد امتد به الأجل حتى سنة ١٨٢٠ (١٧٥٧—١٨٢٠) .

(١) كانت اللفظة التى استخدمها بونابرت هى idolâtres ، ومعناها الكفار ، الوثنيون .

(2) Napoléon 1er, Guerre d'Orient. etc., ouvr. cit., t I, p. 211.

الذى كان يفصل بين الشعب المصرى وبين الحكم الفرنسى ، فهو يقول إن بونابرت أغرق الشعب بالمنشورات ، وإنه كان دءوباً على إذاعتهـــا وتعليقها على حوائط المحلات والمنازل وفى الأسواق «لكى يقرأها الشارد والوارد» . وفى كل منها كان يؤكد تعلقه بالدين الإسلامى ، وبمحمد رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، واحترامه للقرآن الكريم ، ويعد الشعب بأنه سيعتنق هـــو وجنوده الإسلام ، وأنه يعتزم بناء مسجد ضخم لا مثيل له فى العالم الإسلامى. ولم يقف الشعب المصرى من هذه المنشورات موقف الحذر والريبة فحسب ، بل أعلن رأيه فى بونابرت. ولندع نقـــولا ترك يعبر بقلمه فى صراحة مفرطة عن هذا الرأى : « أما المصريون فكانت قلوبهم غير آمنة ولا مطمئنة ، وكانوا يقولون : كل هذا خداع ومخاتلة ريثما يتملك ، وأما هو نصرانى ابن نصرانى[1] » وهى جمـــلة معبرة تصور نظرة المجتمع المصرى الدينى إلى بونابرت ، فلم يصف المصريون بونابرت بأنه أوروبى ابن أوروبى ، ولم يقولوا عنه إنه فرنسى ابن فرنسى ، بل اتخذوا من الدين معياراً لتقييم بونابرت .

وفى موطن آخر من مذكرات نقولا ترك يقول إنه كان مما يحز فى نفوس المصريين خضوع بلادهم لحكم أوروبى مسيحى ، لأن مصر بلد إسلامى منذ أن فتحها عمرو بن العاص ، ولأنها ظلت على هذا الوضع الإسلامى على توالى الأدهر والعصور ، واختلاف الحكام الذين تعاقبوا على حكمها ، وأما محاولة الصليبيين الاستيلاء عليها فى العصور الوسطى فقد باءت بالفشل ، وكان الشعب المصرى يردد أن بلاده كانت فى بعض الفترات مقراً للخلافة الفاطمية ، ثم الخلافة العباسية ، وأنهـــا كانت حصناً حصيناً للإسلام ، ومركزاً مرموقاً للثقافة الدينية العلمية الإسلامية ، ويخلص المعلم نقولا ترك من وصف مشاعر

---

(١) النص العربى لمذكرات نقولا ترك ، نشر وترجمة وتعليق الأستاذ فييت ، ص ٦٠ .

المصريين إلى القول بأن محاولات الفرنسيين اكتساب قلوب المصريين قد أخفقت ، بل إنه ذهب إلى أبعد من ذلك ، فقرر أن قبول المصريين للحكم الفرنسي إنما هو أمر ضد الطبيعة[(١)] :

اختلاف اللغة والزى والثقافة

وهناك عوامل كانت تتصل على نحو من الأنحاء بالسبب الرئيسي للثورة ، وتزيد الفجوة بين الفرنسيين وبين المصريين اتساعاً وعمقاً ، كان من بينهـا عامل اللغة ، فالفرنسيون لا يعرفون اللغة العربية ، والمصريون يجهلون بدورهم الفرنسية ، فحال اختلاف اللغة دون حدوث لقاء فكرى بين الحاكمين والمحكومين ، أو على الأقل اتسم موقف كل فريق من الآخر بطابع العداء ، أو الشك ، أو الحذر . وهناك عامل آخر هو اختلاف الزى بين الفرنسيين والمصريين ، وقد حال هذا العامل دون حدوث تقارب بين الفريقين ، فإن اختلاف الزى كان له أثره السيكولوجي فى نفوس العامة ، كانت البدلة والقبعة عند الفرنسيين يقابلهما القفطان والجبة والعمامة عند المصريين ، وقد عاشت العمامة عصوراً وأدهاراً متعاقبة عند المصريين شعاراً للإسلام ، ورمزاً للفضائل . وارتبطت القبعة فى نظر المصريين — ونحن نتكلم هنا أيهـا السادة العلماء عن المجتمع المصرى فى القرن الثامن عشر — بالحروب الصليبية وبالأجانب الذين عاشوا فى مصر إبان الحكم العثمانى فى أحياء خاصة بهم ، يخضعون لقيود معينة . وقد عبر عن هذه العوامل مجتمعة أحد المعاصرين لأحداث الحملة الفرنسية ، وهو المعلم نقولا ترك ، فقال إن المصريين لم يستطيعوا إطلاقاً تحمل الفرنسيين بسبب اختلاف الدين واللغة والزى ، فضلا عن عداء قديم متأصل بين الفـرنسيين

(١) النص العربى فى المرجع السابق ، ص ٣٠ . ويلاحظ أن الأستاذ ڤييت فى ترجمته النص العربى إلى الفرنسية كتب ما تعريبه : « أمر ضد الطبيعة الإنسانية » .

Mais c'était faire fi de la nature humaine. p. 43. (trad. fr.).

والمصريين يرجع إلى أيام لويس التاسع ملك فرنسا، حين بلغ المنصورة[1] .
ونضيف إلى هذه العوامل عاملا آخر هو أن الفرنسيين ذوو ثقافة أوروبية كانت غريبة على المصريين ، أو كما يقول الجبرتى « لا تسعها عقول أمثالنا »[2] ، وقد انتهجوا سياسة إعلامية نشيطة ، فغمروا المصريين بمنشورات تلاحقت بعضها إثر بعض . حقيقة أن هـذه المنشورات كتبت باللغة العربية أو ترجمت إلى اللغة العربية ، ولكن وجدت فيها بعض الثغرات والمآخذ ، جعلت المصريين يرتابون فى أمر هذه المنشورات ، بل ويتوجسون خيفة من واضعيها ، ونذكر على سبيل المثال المنشور الأول الذى أذاعه بونابرت على المصريين ، فهو يبدأ بالبسملة ، ثم يذكر إحدى الشهادتين ، ويغفل تماماً الشهادة الثانية ، إذ يقول « بسم الله الرحمن الرحيم ، لا إله إلا الله ، لا ولد له ، ولا شريك له فى ملكه » والمسلمون يحرصون دائماً على ذكر الشهادتين ، مقرونتين بعضهما ببعض . حقيقة جاء ذكر النبى الكريم — صلوات الله عليه — فى ثنايا هـذا المنشور ، ولكن كيف يستطيع المصريون تصديق قوم يقررون فى منشورهم أنهم مسلمون مخلصون ، ويغفلون فى صدر المنشور الشهادة الثانية ، وهى أن محمداً رسول الله ؟ والمنشور أيضاً يشير إلى النظام السياسى لفرنسا فى عبارات كانت تجارب المصريين السياسية طوال الحكم العثمانى لاتساعدهم على تفهم معانيها ، فالمنشور الأول أيضاً صدر « من طرف الفرنساوية المبنى على أساس الحرية والتسوية ».
وصدر هذا المنشور مؤرخاً بشهر لم يسمع به المصريون من قبل ، ولم يفقهوا له معنى ، وهو الرابع عشر من ميسيدور . وجاء فى المنشور الثانى الذى أذاعه بونابرت عقب انتصاره فى معركة إمبابة ، وألصقت نسـخ منه فى شوارع القاهرة ، مؤرخاً فى الرابع من تيرميدور ، وكانت ثقافة الشعب لا تسمح له

---

(١) مذكرات نقولا ترك ، نشر وترجمة وتعليق ڤيت ، ص ٢٤ .

(٢) الجبرتى ، ج ٣ ، ص ٣٦ ، وقد كتب هذه العبارة عقب زيارته لمجمع مصر العلمى .

بمعرفة مدلول كل من هذين اللفظين ، وهل كان منتظراً من المثقفين المصريين فضلا عن الجماهير فى أواخر القرن الثامن عشر أن يعلموا أن ميسيدور Messidor هو الشهر العاشر من التقويم الجديد الذى أدخلته الثـورة الفرنسية ، ليحل محل التقويم الجريجورى عقب إعلان إلغاء الملكية فى فرنسا ؟ وأن هذا الشهر يبدأ من اليوم العشرين من شهر يونيو ، وينتهى فى االتاسع عشر من يوليو ؟ وأن معناه شهر الحصاد[1] ؟ ، وهل كان معقولا أن تدرك الجماهير وقتذاك أن تيرميدور Thermidor الذى أرخ به المنشور الثانى هو الشهر الحادى عشر من ذلك التقويم ؟ وأن هذا الشهر يبدأ من اليوم العشرين من يوليو ، ويمتد إلى الثامن عشر من أغسطس ؟ ، وأن معناه شهر الحـر والقيظ[2] ؟ ولقد تتابعت المنشورات والأوراق الرسمية تحمل أسماء شهور أخرى ، مثل بريريال[3] Prairial ، ومعناه شهر المروج الخضراء ، ونيفوز[4] Nivose ومعناه شهر الثلج ، وجيرمينال[5] Germinal ، ومعناه شهر البذور ، وبليفيوز[6] Pluviôse

---

(١) لفظة ميسيدور Messidor مشتقة من الكلمة اللاتينية Messis ، ومعناها Moisson ، أى الحصاد .

(٢) لفظة تيرميدور Thermidor مشتقة من الكلمة اليونانية Thermé ، ومعناها الحـر .

(٣) لفظة بريريال Prairial مشتقة من الكلمة الفرنسية La Prairie ، ومعناها مروج الحشائش ، وتطلق على الشهر التاسع من التقويم الجمهورى ، ويبدأ من ٢٠ مايو ، إلى ١٨ يونيو .

(٤) لفظة نيفوز Nivose مشتقة من الكلمة اللاتينية Nivis ، ومعناها الثلج ، وتطلق على الشهر الرابع من التقويم الجمهورى ، ويبدأ من ٢١ ديسمبر حتى ١٩ يناير .

(٥) لفظة جيرمينال Germinal مشتقة من الكلمة اللاتينية Germen ومعناها البذور ، وتطلق على الشهر السابع من التقويم الجمهورى ، ويبدأ من ٢١ مارس إلى ١٩ أبريل .

(٦) لفظة بليفيوز Pluviôse مشتقة من الكلمة اللاتينية Pluvia ، ومعناها المطر ، وتطلق على الشهر الخامس من التقويم الجمهورى ، ويبدأ من ٢٠ أو ٢١ أو ٢٢ يناير إلى ١٩ أو ٢٠ أو ٢١ فبراير .

ومعناه شهر المطر ، وفريكتيدور[1] Fructus ، ومعناه شهر الفواكه، وفضلا عن ذلك فقد كانت هذه الأسماء الغريبة لشهور السنة تذكر مقرونة بعبارات غريبة أيضاً على المصريين ، فهى تارة تقول شهر كذا « من إقامة الجمهور الفرنساوى » ، وتارة أخرى تقول شهر كذا « من انتشار الجمهور الفرنساوى ».

منشور السلطان إلى الشعب المصرى

ولم يلبث أن وقع حادث خارجى جعل العاطفة الدينية تزداد تأججاً فى نفوس المصريين ، فقد أعلن سليم الثالث — سلطان الدولة العثمانية — الحرب على فرنسا فى سبتمبر ١٧٩٨ ، وأدرك بونابرت خطورة إذاعة هذا النبأ بين جماهير الشعب ، فحاول جهده أن ينفيه ، ونعته بأنه شائعة خبيثة ، روج لها الإنجليز ، والمماليك ، والدراويش المتعصبون . ويقول بعض الباحثين إنه كان لبونابرت مقدرة فائقة على إخفاء الحقائق ، ولكن القوى التى كانت تعمل ضده ، سواء من خارج الحدود المصرية ، أو من داخل البلاد ، كانت أقوى منه وأشد فاعلية ، فقد تسلل إلى القاهرة من بلاد الشام رسل يحملون معهم منشوراً أصدره السلطان ، دعا فيه المصريين إلى الجهاد الدينى ضد الفرنسيين ، واتخذ أولئك الرسل طريقهم إلى الجامع الأزهر سرباً ، وتلقف علماء الأزهر وطلاب الأزهر هذا المنشور[2] .

---

(١) لفظة فريكتيدور Fructidor مشتقة من الكلمة اللاتينية Fructus ومعناها فواكه ، وتطلق على الشهر الثانى عشر من التقويم الجمهورى ويبدأ من ١٨ أغسطس إلى ١٦ سبتمبر .

ومما هو جدير بالذكر أن أوراق الفرنسيين ووثائقهم ظلت طوال إقامتهم فى مصر تصدر مؤرخة بالتقويم الجمهورى ، وبالتالى بهذه الأسماء الغريبة على المصريين ، وقد ألغى هذا التقويم فى فرنسا سنة ١٨٠٤ .

(2) La Jonquière; ouvr. cit., t. III, p. 277.

حمل منشور السلطان على الفرنسيين حملة عنيفة ، فوصفهم بأنهم قوم لا ينكرون وحدانية الله فقط ، ولا ينكرون رسالة محمد فحسب ، بل ينكرون وجود الله ، ويهزأون بكل الأديان ، ولا يعتقدون فى يوم البعث والحساب ، والحياة الآخرة ، وأنهم يحللون ما تحرمه الأديان ، ويعتقدون أن الكتب السماوية ليست إلا مجموعة من الأكاذيب ، أو نوعاً من الأساطير ، وأن موسى وعيسى ومحمداً ليسوا إلا رجالا عاديين لم يخصهم الله بالرسالة التى عهد إلى كل منهم بتبليغها إلى بنى الإنسان :

واهتم المنشور بعد هذا الهجوم على الفرنسيين بتحريض الشعب المصرى على الجهاد الدينى ضدهم ، وأثار فى المصريين العاطفة الدينية ، فخاطبهم بقوله : « يا حماة الإسلام ، يا مدافعين عن العقيدة ، يا من تعبدون الله وحده ، يا من تؤمنون برسالة محمد بن عبد الله ، أجمعوا كلمتكم وانفروا إلى الحرب والله القدير يرعاكم .... إن الإسلام محفور فى قلوبنا ، إنه ينساب فى عروقنا مع دمائنا . وقد قال الله تعالى : « لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين » [1] ، والحديث الشريف يقول : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » . ومضى المنشور يقول مخاطباً المصريين : « لقد دقت ساعة الخلاص ، وآن الوقت لكى تبيدوا قوى الشر ، ولا ترهبكم جموعهم ، لأن الأسود لا تخشى الثعالب . وقد أصدرنا الأمر إلى الباب العالى بحشد قوات من أنحاء الإمبراطورية ، وبعد قليل تتحرك جيوش عديدة مهيبة ، وستغطى مراكب عالية كالجبال سطح البحر ، وستصل مدافع تبرق وترعد ، وأبطال يسترخصون الموت انتصاراً لقضية الله ، وسوف يلقى الفرنسيون الهلاك ، وتنهار آمالهم ، لأن وعد الله حق ، والعظمة لله رب العالمين » .

---

(١) سورة آل عمران ، صدر الآية رقم ٢٨ .

والأمر الذى يلفت نظر الباحث ، هو أن الباحثين الفرنسيين قد حرصوا على ترجمة هذا المنشور ترجمة كاملة إلى اللغة الفرنسية ، نذكر منهم مارتا Martin[(١)] ، وقد نشر كتابه فى جزءين سنة ١٨١٥[(٢)] ، ولوى ريبو وزملاؤه ، وقد نشروا كتابهم الضخم فى عشرة أجزاء فى الفترة من سنة ١٨٣٠ إلى ١٨٣٦[(٣)] ، وقد استقينا من هذين المصدرين الاقتباسات التى أثبتناها فى المتن. أما الجبرتى فقد ذكر صورة موجزة للمنشور فى عبارات عامة ، كأنها رءوس موضوعات ، فقال : « ومضمون ذلك بعد براعة الاستهلال والآيات القرآنية ، والأحاديث والآثار المتعلقة بالجهاد ، ولعن طائفة الإفرنج والحط عليهم ، وذكر عقيدتهم الفاسدة ، وكذبهم وتحيلهم »[(٤)] . وقد رجعنا إلى الكتاب الأول الذى وضعه الجبرتى باسم مظهر التقديس ، فوجدنا أنه نهج فيه نفس النهج ، فلم ينشر فيه نص المنشور . ويوجد خلاف بين الجبرتى وبين المؤرخين الفرنسيين ، المعاصرين للحملة ، فالأول يقرر أن المنشور حمله هجان من بلاد الشام ، وبلغ به القاهرة فى ليلة السبت الرابع والعشرين من جمادى الأولى ١٢١٣ (الثالث من

---

(١) كان مارتا أحد مهندسى الحملة ، وأحد أعضاء لجنة العلوم والفنون ، وأحد الذين أسهموا فى وضع الموسوعة العلمية « وصف مصر » ، فكتب فيها بحثين هما :

a) Notice sur un grand monument souterrain à l'ouest de la ville d'Alexandrie. t.V, pp. 519 - 530.

b) Description hydrographique des provinces de Beny - Souef et du Fayoum. t. XVI, pp. 1 - 72.

وله عدة أبحاث منشورة ، منها بحث عن فيفا دينو ، فنان الحملة الفرنسية .

Vivant Denon en Egypte, 1798 - 1799. (Ann. de l'Acad. de Mâcon, 2e série IV, pp. 119 - 141.

(2) Martin P.D.; Histoire de l'Expédition française en Egypte. (1798 - 1801) précédée d'un précis de la domination arabe. Paris, 1815. 2 vols. vol. I, pp. 243 - 251.

(3) Reybaud Louis et autres; ouvr. cit., t. IV, pp. 142 - 152.

(٤) الجبرتى ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٢٨ .

نوفمبر ١٧٩٨) ، أى بعد الثورة بأسبوعين [(١)] ، بينما يقرر المؤرخون الفرنسيون أن هذا المنشور وزع فى القاهرة فى شهر ڤانديميز من السنة السابعة من التقويم الجمهورى [(٢)] ، وهم فى هذا التحديد الزمنى التقريبى أدنى إلى الحقيقة من الجبرتى ، كما أنهم يقررون أنه لم يكد يبدأ شهر أكتوبر حتى علم سكان القاهرة على بكرة أبيهم أن السلطان العثمانى — سلطان المسلمين — قد أعلن الجهاد الدينى ضد الفرنسيين :

والدراسة التحليلية لمنشور السلطان توضح أنه كشف للشعب المصرى عن عدة مسائل على جانب كبير من الأهمية ، نذكر منها :

أولا : أطاح المنشور بكل إدعاءات ومزاعم بونابرت ، والتى كان يرددها فى منشوراته للشعب المصرى بأنه صديق السلطان ، وأن الفرنسيين لم يحضروا إلى مصر إلا باتفاق تام ومسبق مع السلطان ، وأن مصالح الشعب المصرى تتلاقى مع مصالح الفرنسيين ، لأنهم مسلمون مخلصون ، فقرر المنشور أن السلطان قد أعلن الحرب عليهم ، كما وصفهم بأنهم قوم كافرون .

---

(١) كان الجبرتى قد ذكر قبل ذلك فى حوادث اليوم الثالث من شهر ربيع آخر ١٢١٣ ، (١٤ من سبتمبر ١٧٩٨) أنه وصلت إلى القاهرة عدة خطابات ، وجهها إبراهيم بك إلى المشايخ علماء الأزهر ، وإلى غيرهم ، طلب فيها بذل الجهود لبقاء الجبهة الداخلية فى مصر متماسكة ، ومناشدة الجماهير كى تقف موقفاً عدائياً من الفرنسيين ، وقال : « إن حضرة السلطان مولانا وجه لنا عساكر ، وإن شاء الله تعالى عن قريب نحضر عندكم . » ، وأضاف الجبرتى إلى ذلك أن أمر هذه الخطابات قد ترامى إلى مسامع بونابرت ، واستطاع رجال المخابرات الفرنسية أن يحصلوا له على نسخة منها ، ولما ترجمت له أظهر استخفافاً بها ، وعلق عليها بقوله : « إن المماليك كذابون » انظر ذات المصدر ، ج ٣ ، ص ١٧ .

(٢) Vendémiaire هو الشهر الأول من التقويم الجمهورى الذى أدخلته الثورة الفرنسية ، ويبدأ هذا الشهر فى ٢٢ من سبتمبر ، وينتهى فى ٢١ من أكتوبر ، واللفظة الفرنسية مشتقة من الكلمة اللاتينية vindemia ، ومعناها عملية جنى العنب la vendange أو موسم جنى العنب . Les vendanges

ثانيا : أثار المنشور الحمية الدينية فى نفوس المصريين بذكر بعض الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية ، والعبارات الدينية :

ثالثا : وصف المنشور الحرب التى دعا السلطان إليها الشعب المصرى ، بأنها حرب مقدسة ، أو جهاد دينى[١] ، ومن المبادئ المقررة فى الشريعة الإسلامية أن الجهاد الدينى يعتبر فرض عين على كل مسلم بالغ قادر . والمنشور من هذه الناحية له أهميته ، لأنه أضفى على الثورة الطابع الدينى الإسلامى ، وحدد المشتركين فيها بأنهم المسلمون المؤمنون برسالة محمد ابن عبد الله — صلوات الله وسلامه عليه — ، ولم يفت المعاصرون الفرنسيون للثورة أن يصفوها بأنها حرب مقدسة .

رابعا : شحذ المنشور عزائم المصريين بقوله : إن قوات عسكرية جرارة، برية وبحرية ، فى طريقها إلى مصر ، لشد أزرهم فى محاربة الفرنسيين . وقد كان هذا المنشور سلاحاً قوياً فى يد دعاة الثورة ، استطاعوا بفضله أن يضموا إلى جانبهم جماهير سكان القاهرة . ويقول الأستاذ محمد شفيق غربال : إنه كانت هناك فرمانات مثيرة تصدر عن السلطان بصفته أمير المؤمنين ، وكانت هذه الفرمانات تقرأ علناً فى المساجد ، وقد ذكر فيها أن الفرنسيين قد صححت عزيمتهم على القضاء على الدين الإسلامى ، وكانت هذه الفرمانات تدعو المؤمنين إلى مقاومة رغبة الفرنسيين فى تحطيم الإسلام[٢] .

---

(١) من الكلمات التى كانت منتشرة فى مصر إلى عهد قريب لفظة « الجهادية » ، فكان يقال ديوان الجهادية ، ويقابلها المصطلح الحديث وزارة الحربية أو وزارة الدفاع . وكان يقال إن فلاناً ذهب إلى الجهادية ، أى تم تجنيده فى الجيش المصرى ، أو نفر إلى ساحة الوغى .

(2) "Inflammatory firmans from the Commander of the Faithful were read aloud in the mosques, ascribing to the French the intention of destroying Islam, and the faithful were called upon to resist."

Shafik Ghorbal; ouvr. cit., p. 74,

ومما يذكر أن مارتا Martim أشار إلى واقعة أخرى سبقت إرسال منشور السلطان ، وتتلخص هذه الواقعة فى أن مدينة القاهرة أغرقت منذ ٢٢ من سبتمبر ١٧٩٨ — وهو أول يوم فى شهر ڤانديميير Vendémiaire — بمنشور صدر عن الصدر الأعظم يحوى تكذيباً قاطعاً لكل ما ردده بونابرت فى منشوراته من حدوث تفاهم بينه وبين السلطان ، وقد قرئ هذا المنشور فى المساجد ، وكان فيه تحريض للشعب المصرى على قتل الفرنسيين[١] .

مكاتبات الجزار باشا وإبراهيم بك

وإلى جانب منشور الصدر الأعظم ، ثم منشور السلطان، كان أحمد باشا الجزار والى الشام[٢] يرسل المنشورات — أو « البيورديات[٣] » بمصطلح ذلك العصر — إلى المصريين يبلغهم أن السلطان قد عينه والياً على مصر ، بالإضافة إلى منصبه فى بلاد الشام ، وأنه سيزحف على رأس قوات جرارة لطرد الفرنسيين منها ، ويدعو المصريين إلى « القيام ضد الكفار[٤] » . وكان الأمير إبراهيم بك من ناحيته يبعث بمنشورات أخرى إلى المشايخ علماء الأزهر ،

(1) Martin P.D; ouvr. cit., t. I. p. 241.

(٢) يقول بونابرت فى مذكراته إن الحكومة العثمانية عمدت إلى مد نفوذ أحمد باشا الجزار إلى كل بلاد الشام ، من حلب شمالا حتى بيت المقدس جنوباً ، وذلك رغبة منها فى زيادة إمكانياته البشرية والمادية ، لحشد مزيد من القوات العسكرية الجرارة ، وتوجيهها إلى مصر .

انظر :

Napoléon 1er; Guerre d'Orient. etc., ouvr. cit., t. I, p. 244.

(٣) بيورديات : كلمة تركية ، مفردها بيوردى ، ومعناها أمر صادر من الصدر الأعظم ، أو من شخصية كبيرة مثل الوزير ، وتظهر هذه الكلمة فى صور شتى ، سواء فى صيغة المفرد ، أو فى صيغة الجمع فى المصادر العربية على النحو التالى :

صيغة المفرد : بيوردى — بيورلدى — بيرولدى — بيورولدى .

صيغة الجمع : بيورديات — بيلورديات — بيلوريديات — بيورلايات .

انظر :

Meynard Barbier de; Dictionnaire turc-français. Paris, 1881 - 1886, 2 vols., t. I, p. 366.

Deny; ouvr. cit., p. 147.

(٤) المعلم نقولا ترك ، نشر وترجمة وتعليق الأستاذ ڤييت ، النص العربى ، ص ٢٧ .

يبلغهم أنه فى طريقه إلى القاهرة ، ويطلب منهم تحريض الشعب على الثورة على الفرنسيين ، وكان هناك رسل يأتون خفية من بلاد الشام يحملون تلك المكاتبات ، ويتسللون إلى الجامع الأزهر ، ويلتقون بالعلماء والطلاب ، ويتداولون المنشورات فيما بينهم ، ليقرءوها فى مساجد القاهرة .

عوامل مشجعة

كانت هناك عوامل شجعت سكان القاهرة على القيام بالثورة . وكان من بين هذه العوامل تحطيم الأسطول الفرنسى فى معركة أبى قير البحرية ، وقد تسربت أنباء هذه الكارثة إلى أهل القاهرة ، على الرغم من حرص الفرنسيين الشديد على تكتم أخبارها ، وتهديدهم بقطع لسان كل مصرى ، أو تغريمه مائة ريال إذا خاض فى ذكر هذه الواقعة (١) ، وقد أطاحت هذه الكارثة الحربية بالفكرة التى استقرت فى أذهان المصريين عن تفوق الفرنسيين عسكرياً بعد انتصارهم الخاطف فى معركة إمبابة :

وقد تكلم بونابرت فى إفاضة عن النتائج السيئة لهذه المعركة ، بالنسبة للفرنسيين فى نظر الشعب المصرى ، وقال إنه أمر بزيادة تحركات فرق الجيش الفرنسى فى القاهرة ، وقيام الجيش بعروض عسكرية ، إشعاراً للمصريين بأن الجيش الفرنسى لايزال قوة ضاربة ، كما حاول بونابرت أن يدخل فى روع علماء الأزهر أن أسطولا فرنسياً يتعقب أسطول نلسن الذى ولى الأدبار ، وكان الأسطول الإنجليزى بعد خروجه منتصراً فى هذه المعركة قد اتجه إلى نابولى لعلاج الجرحى (٢) ، وترميم بعض وحداته :

(١) الجبرتى ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ١٥ .

(٢) انظر ماقاله بونابرت تحت عنوان :

Effet de la bataille navale sur le peuple d'Egypte.

« نتيجة المعركة البحرية على شعب مصر » .

فى

Napoléon 1er; Guerre d'Orient, etc., ouvr. cit., t. I, pp, 197-202.

وعلم أهل القاهرة بعد ذلك أن الإنجليز فرضـوا حصاراً محكماً على السواحل المصرية ، بحيث أصبح فى حكم الاستحالة قدوم نجدات عسكرية إلى بونابرت من فرنسا ، وكما يقول المعلم نقولا ترك : « ربط الإنكليز عليهم بوغاز الإسكندرية وبوغاز دمياط ، ولا عاد خارج ولا داخل ، ولا طير يطير وفهموا (أى فهم المصريون) أن الانكليز قفلوا عليهم (أى على الفرنسيين) البواغيز بأقفال إنكليزية ، وانقطع أملهم من إمداد يأتيهم من بلادهم » (١) .

وهناك عامل ثالث شجع سكان القاهرة على الثورة ، هو أنهم علموا أن أهل المنصورة قد قاموا بثورة عارمة على الفرنسيين ، ونالوا منهم منالا عظيما ، وأن سكان دمياط قد نهجوا هذا النهج الثورى ، وانتصروا على الفرنسيين . وإذا كان هذا شأن سكان الأقاليم مع الفرنسيين ، فلا أقل من أن يحذو سكان العاصمة هذا الحذو النضالى الدينى الثورى :

عوامل مساعدة

وكانت هناك أيضاً عوامل مساعدة ، هيأت « المناخ الصحى » لنشـوب الثورة ، ولم تكن هذه العوامل بنت ساعتها ، فقد نشأت فى أوقات متفـاوتة ، وترك كل منها رواسب عميقة فى نفوس المصريين ، وكلما مضت الأيام كانت تلك العوامل يتجمع بعضها مع بعض ، وتسلك مسارب واحدة ، انتهى بها إلى انفجار دينى على الحكم الفرنسى الذى اقترن بإجراءات ، كانت فى نظر زعماء الشعب وجماهيره ، خروجاً على التقاليد الإسلامية .

ونمر مروراً سريعاً على بعض هذه العوامل المساعدة :

---

(١) مذكرات نقولا ترك ، نشر وترجمة وتعليق الأستاذ فييت ، النص العربى ، ص ٢٧ .

أولا : النسائيات

انتشر إبان الحكم الفرنسى نوع من التحرر النسائى ، لم يكن يطيقه مجتمع القاهرة فى ذلك الوقت ، إذ نظر إليه أهل القاهرة على أنه إباحية وفوضى خلقية لا تتمشى مع التقاليد الإسلامية ، التى كان الحكم العثمانى يحرص على احترامها حرصاً بالغاً . انتشر سفور المرأة واختلاطها بالرجال ، وقد بدأت هذه الظاهرة الاجتماعية فى وقت مبكر ، منذ أن دخل الفرنسيون القاهرة . كان بعض الضباط الفرنسيين قد اصطحبوا زوجاتهم أو عشيقاتهم إلى مصر . ويقرر أحد المؤرخين أن هؤلاء السيدات لم يستطعن الصعود إلى سفن الحملة وهى راسية فى موانئ فرنسا إلا بعد أن تنكرن فى زى الرجال [(١)] ، ويقدر أحد الباحثين عددهن بثلاثمائة سيدة تقريباً [(٢)] ، وهو عدد ضئيل جداً بالنسبة لحملة عسكرية جرارة ، تضم ٣٦,٠٠٠ جندى .

وقد عاشت هؤلاء الزوجات أو العشيقات فى مصر حياة متحررة من قيود مجتمع شرقى إسلامى محافظ ، وكن يشبعن ما كانت تهفو إليه نفوسهن من كل ما هو جديد وطريف . ولندع الجبرتى يتكلم عن الحرية التى مارستها السيدات الفرنسيات فى شوارع القاهرة ، وعن ملابسهن ، وعن مداعبتهن للعامة وهن يركبن الحمير : « ومنها تبرج النساء وخروج غالبهن عن الحشمة والحياء ، وهو أنه لما حضر الفرنسيس إلى مصر ، ومع البعض منهم نساؤهم ، كانوا يمشون فى الشوارع مع نسائهم وهن حاسرات الوجوه ، لابسات الفستانات ، والمناديل الحرير الملونة ، ويسدلن على مناكبهن الطرح الكشميرى والمزركشات المصبوغة ، ويركبن الخيول والحمير ، ويسوقونها سوقاً عنيفاً ، مع الضحك

(1) Reybaud (L.) et autres; ouvr. cit., t. IV, p. 70.

(٢) دكتور محمد فؤاد شكرى : عبد الله جاك مينو وخروج الفرنسيين من مصر . القاهرة ، ١٩٥٢ ، ص ٥٧٢ .

والقهقهة، ومداعبة المكارية معهم، وحرافيش العامة ... »[(١)] وكانت السيدات الفرنسيات يراقصن الرجال فى ميدان الأزبكية فى أثناء المهرجان الكبير الذى أقامه الجيش احتفالا بذكرى قيام الجمهورية :

وكان العنصر الثانى من السيدات المتحررات فى مصر يتمثل فى السيدات الشركسيات واليونانيات والأرمنيات ومن إليهن، وقد كن زوجات أو مستولدات أو جوارى للأمراء المماليك والكشاف ، جيء بهن إلى مصر ، وأقمن فى قصور كانت غاية فى الروعة والبهاء[(٢)] ، وعشن حياة مترفة ناعمة باذخة ، وارتدين أرقى أنواع الملابس الحريرية ، المستوردة من مصانع ليون[(٣)] ، والملابس الصوفية وغيرها ، وقد قتل عدد كبير من أزواجهن أو أسيادهن فى المعارك التى خاضوها ببسالة ضد الفرنسيين ، وارتفع عدد القتلى منهم فى معركة إمبابة ، وتشتت شمل العائلات المملوكية ، وانطلقت السيدات إلى حياة التحرر، بعد أن كن يقضين أحلى سنوات العمر وراء المشربيات ، لا يراهن أحد من الأفراد سوى الأغوات الطواشية الذين يقومون على خدمتهن .

---

(١) الجبرتى ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ١٦١ .

(٢) انظر وصفاً لمساكن البكوات المماليك والكشاف فى ص ٣٣٠ من البحث الضافى الذى وضعه جومار ، أحد أعضاء لجنة العلوم والفنون، بعنوان :

Description de la ville et de la citadelle du Kaire accompagnée de l'explication des plans de cette ville et de ses environs, et de renseignemens(*sic*) sur sa distribution, ses monumens (*sic*), sa population, son commerce et son industrie. par M. Jomard.

daus :

Description de l'Egypte. t. XVIII, 2ème partie, pp. 113-538.

(3) Hanotaux (Gabriel); Histoire de la Nation Egyptienne. t. V; L'Egypte turque. Pachas et Mameluks du XVIe au XVIIIe siècle. L'Expédition du génerel Bonaparte par H. Dehérain.

انظر بحثاً بعنوان :

La Demeure des Beys à la ville et à la Campagne. pp. 83-87.

ومما يذكر أن بونابرت قد تكلم فى مذكراته عن نساء المماليك والكشاف — وكن قد طابن مقابلته بعد دخوله القاهرة — وقد بهره ما كن يتمتعن به من قوام رائع ، وأيد جميلة صغيرة ، وصوت رخيم . وأطرى طريقتهن فى الحديث والجلوس والمناقشة ، وقال إنهن من حيث السلوك الاجتماعى الممتاز ، ومن حيث مظهرهن وأناقتهن ، كن يضارعن أرقى السيدات فى المجتمعات الأوروبية. وتكلم بونابرت عن إتمام كثير من الزيجات بتدخله (١) ؛ وقد عاشت هؤلاء السيدات بعد زواجهن من الفرنسيين حياة أوروبية ، مترفة منعمة ، وخرجن سافرات فى صحبة أزواجهن ، وكن يذهبن معهم إلى نادى القوات المسلحة المسمى تيڤولى (٢) Tivoli فى ميدان الأزبكية ، وإلى غيره من أماكن اللهو والتسلية .

---

(1) Napoléon Ier; Guerred' Orient. etc., ouvr. cit., t. I. pp. 235-236.

(٢) فكر فى إنشاء هذا النادى أحد الفرنسيين واسمه Dargevel ، واختار له قصراً من قصور الأمراء المماليك ، بالقرب من ميدان الأزبكية ، وكانت تحف بالقصر حديقة ذات أشجار باسقة ، وأدخلت تعديلات على أبهاء القصر وحجراته ، وخصصت فيه قاعة للموسيقى ، ومرقص ، ومطعم ، ومكتبة ، وقاعة للبليارد ، واختير له اسم ملهى التيڤولى فى باريس ، فأطلق عليه التيڤولى المصرى Le Tivoli Egyptien ، أما الجبرتى فقد سماه « دار الخلاعة » ، ويقول إن الفرنسيين « أحدثوا بغيط النوبى المجاور للأزبكية أبنية على هيئة مخصوصة منتزهة ، يجتمع بها النساء والرجال ، للهو والخلاعة فى أوقات مخصوصة ، وجعلوا على كل من يدخل إليه قدراً مخصوصاً يدفعه ، أو يكون مأذوناً وبيده ورقة » .

ويقرر الأستاذ كرستوفر هيرولد إنه من المحتمل أن يكون هذا النادى أول ناد للقوات المسلحة فى التاريخ .

انظر :

ج . كرستوفر هيرولد : «بونابرت فى مصر» ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، ص ٢٢٤ . ترجمة فؤاد اندراوس .

واسم الكتاب بالإنجليزية :

Christopher Herold (J.); Bonaparte in Egypt. New York, 1962.

وجاءت الإماء عنصراً ثالثاً متحرراً إلى أبعد حدود التحرر فى مدينـــة القاهرة ، والإماء هن الجوارى السود ، وكن أيضاً يعشن فى قصور الأمراء المماليك والكشاف ، وانطلقن من إسار الرق ، وكن أوفر عدداً ، وأكثر جرأة فى تطوير أسلوب حياتهن . قدم الفرنسيون لهن الملابس الأوروبية ، فارتدينها ، وقدموا لهن الخيول ، فركبنها (١) ، وكن يغادرن منازلهن فى أى وقت ، ويطفن فى شوارع القاهرة ، سافرات الوجوه ، تبدو عليهن الأناقة فى ملابسهن وزينتهن ، ومشيتهن ، وحركاتهن (٢) .

ثم جاء عنصر رابع هو زواج الفـــرنسيين من المصريات المسلمات ، ويكشف الجبرتى عن الدافع على هذا الزواج فيقول : « خطب الكثير منهـــم بنات الأعيان ، وتزوجوهن رغبة فى سلطانهم ونوالهم (٣) » ، وقد أفتى البعض بشرعية زواج الفرنسى من المسلمة ، مادام يذكر الشهادتين ، فكان الفرنسى يتدرب على النطق بهما ويعقد قرانه عليها ، وهكذا كانت عقود الأنكحة هذه — فى نظر البعض — زواجاً شرعياً لا شائبة فيه ، ويعلق الجبرتى على زواج الفرنسي بالمسلمة فيقول : « ينطق بالشهادتين ، لأنه ليس له عقيدة يخشى فسادها » . وكان الأزواج الفرنسيون يضفون عليهن الكثير من مظاهر التقدير والتكريم ، ويقول الجبرتى « وتمشى المرأة بنفسها أو معها بعض أترابهـــا على

(١) مذكرات نقولا ترك ، نشر وترجمة وتعليق الأستاذ جاستون فييت ، ص ٦٠ النص العـــربى .

(2) Galland Antoine; Tableau de l'Egypte pendant le séjour de l'armée française, avec la position et la distance réciproque des principaux lieux de l'Egypte; un coup d'œil sur l'économie politique de ce pays, quelques détails sur ses antiquités, et la procédure exacte de Soleyman, assassin du général Kléber. Paris, 1803, 2 vols., vol. I. p. 87 et vol. II. p. 307.

(٣) الجبرتى ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ١٦٢ .

مثل شكلها ، وأمامها القواسة[(١)] والخدم ، وبأيديهم العصى ، يفرقون لهن الناس مثل ما يمر الحاكم ، ويأمرن وينهين فى الأحكام[(٢)] » .

نظر سكان القاهرة إلى هذا الزواج المختلط ، وإلى تحرر المرأة المسلمة ، على أنهما نوع من الرذيلة . وقد عبر نقولا ترك فى مذكراته عن الاستياء الشديد الذى عم المصريين فى ذلك الوقت بقوله : إن المصريين لم يحتملوا إطلاقا وجود الفرنسيين فى القاهرة ، وأنهم كادوا يموتون حزناً وكمداً وغيظاً ، حين رأوا « نساءهم وبناتهم مكشوفات الوجوه ، مماوكات من الفرنسيين جهاراً ، ماشيات معهم فى الطريق ، نائمات وقاعدات فى بيوتهم » ، وأضاف نقولا ترك إلى ذلك أن المصريين كانوا يطلبون الموت فى كل ساعة ، للتخلص من هذه المناظر[(٣)] :

وتزوج الحاكم العسكرى الفرنسى لمنطقة الأزهر بسيدة مصرية « من أولاد البلد المخلوعين » ، وكان يقضى سهراته معها فى مقهى صرح لتابع له ولترجمانه بفتحه فى هذا الحى الشعبى ، وكان أحد صاحبى المقهى يهودياً ، والآخر مسلما من مدينة حلب ، كان من بين أسرى جزيرة مالطة ، الذين أطلق بونابرت سراحهم . وكانت تحدث فى المقهى أعمال منافية للآداب العامة ،

---

(١) القواسة ، وتكتب أحياناً « القواصة » جمع قواس أو قواص un Cawas ومعناها أحد رجال الشرطة .

(٢) الجبرتى ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ١٦٢ ، وانظر أيضاً :

Jehan d'Ivray (Mme Fahmy Bey); Bonaparte et l'Egypte. Paris, 1914.

وقد أفردت المؤلفة الجزء الثانى من كتابها لموضوع النسائيات إبان الاحتلال الفرنسى .

Les femmes sous l'occupation française.

(٣) نقولا ترك : نشر وترجمة وتعليق الأستاذ ڤيت ، ص ٣١ من النص العربى .

بقصد « التسلى والخلاعات » ، وكثر تردد سكان هـذا الحى على المقهى ، وأغرموا بشتى ضروب « المجون والخلاعة ، وتلك طبيعة الفرنساوية » :

وكانت قلة عدد السيدات الأوروبيات فى مصر من أهم المشكلات التى واجهتها قيادة الحملة منذ الأيام الأولى لدخول القاهرة ، وجعلت قيام هـذه الزيجات المختلطة من ناحية ، والعلاقات الآثمة بين الجنود وبعض النسوة المسلمات من ناحية أخـرى ، ظاهرة متفشـية . وقد طلب بونابرت من حكومة الديركتوار أن ترسل إلى مصر زوجات جميع رجال الحماة، فضلا عن أعداد وفيرة من السيدات الفرنسيات ، وفرقة من راقصات الباليه ، وقـد تعذر على حكومة الديركتوار إرسال هذه الشحنات الآدمية بسبب الحصار الذى فرضه الإنجليز على الشواطئ المصرية فى أعقاب انتصارهم فى معركة أبى قير البحـرية .

ولجأت القيادة العامة للجيش الفرنسى إلى حاول ارتجالية : كانت تشجع السيدات الأوروبيات فى القـاهرة على حضور الحفلات الساهرة التى كان الفرنسيون يقيمونها فى دورهم أولا ، ثم فى نادى تيفولى Tivoli ثانياً ، لإعطاء هذه الحفلات لوناً من ألوان البهجة فى نفوس الفرنسيين ، وإبعـاد السأم عن نفوسهم ، ولجأت قيادة الجيش إلى الاتفاق مع المغنيات والراقصات المصريات المحترفات « العوالم » Les Almas، كى يشتركن فى إحياء الحفلات التى كانت تقام فى هذا النادى (١) . وهكذا فرضت المسألة النسائية نفسها فرضاً على المجتمع القاهرى منذ الأيام الأولى للاحتلال الفرنسى .

---

(1) Reybaud Louis et autres, ouvr. cit., t. IV, pp. 66-72.

القاهرة الخليعة

والحق أن موجة التحرر النسائى التى شهدتها القاهرة ، جعلت بعض المؤرخين الفرنسيين يقررون أن القاهرة أصبحت باريس صغرى[1] un petit Paris وجعلت نقولا ترك يقول فى هذا المعنى أيضاً وهو يسمى أولئك المصريات المسلمات — نساء كثيرات من الإسلام — : « وخرجت النساء خروجاً شنيعاً مع الفرنساوية ، وبقيت مدينة مصر مثل باريس فى شرب الخمر والمسكرات والأشياء التى لاترضى رب السموات[2] » . ويتفق الجبرتى ونقولا ترك فى رأى واحد هو شغف الفرنسيين الرائد بالنساء ، فالأول يقول إن للفرنسيين رغبة شديدة « فى النساء وخضوعهم لهن ، وموافقة مرادهن ، وعدم مخالفة هواهن » ، ويقول أيضاً إنهم كانوا ينفقون بسخاء على المصريات.[3] أما الثانى ، وهو المعلم نقولا ترك ، فيقول : « إن الجنس الفرنساوى له مداخلة ومؤانسة ومسايرة لجنس النساء بنوع آخر عن باقى الأجناس الموجودة فى العالم بأسره[4] » .

وقد حولت بعض البيوت إلى أماكن عامة للتسلية والمجون ، ووضعت خارجها لافتات باللغة الفرنسية ، تبين نوع اللهو الذى يمارس داخلها ، وفرشت هذه البيوت بالأثاث الشرقى أو الأوروبى[5] ، وكان أبسط ما يقال عن هذه البيوت إنها تقدم الخمور لروادها ، وتهيئ لهم رقص المخاصرة مع السيدات على أنغام الموسيقى . وأنشئت فى أحياء القاهرة مشارب البيرة — البارات —

(1) Loc. cit.

(٢) نقولا ترك ، نشر وترجمة ديجرانج ، ص ٢٢٢ .

(٣) الجبرتى : مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ١٦٢ .

(٤) نقولا ترك ، نشر وترجمة الأستاذ ڤيت ، ص ٦٠ من النص العربى .

(5) Reybaud Louis et autres; ouvr. cit., t. IV. pp. 66 - 72.

وحولت بعض المقاهى فى الأحياء الشعبية إلى مراقص ، ففى حى الخليفـة — على سبيل المثال — حـول مقهى إلى مرقص ، وكانت الراقصات يتنـاوبن الرقص لرواده ليلا ونهاراً . وفتحت محال الدعارة بكثرة فى شتى أنحاء القاهرة . وأقبل الجنود الفرنسيون على ارتيادها إقبـالا شديداً (١) . واتخـذ الفرنسيون من ميدان الأزبكية مكاناً لحفلاتهم ومهرجاناتهم التى كانوا يقيمونها فى المناسبات السياسية ، وعند بداية أول كل شهر ، طبقاً للتقويم الذى جاءت به الثورة ، وكانت تمارس فى هذه الحفلات على نطاق واسع أمور تتنـافى مع الآداب العامة ، من وجهة نظر المسلمين فى ذلك الوقت :

لقد أراد الفرنسيون أن يجعلوا من القاهرة مدينة أوروبية ، تضارع عاصمتهم باريس فى بهائهـا وملاهيها ، ومقاهيهـا وأنديتها (٢) ، حتى يكفلوا لجنودهم حياة تجمع بين أسباب المتعة والتسلية واللهـو ، وبذلك ترتاح نفوسهم إلى الإقامة فى القـاهرة ، وتخف حدة تذمرهم وسخطهم (٣) . ولكن فات السلطات

(١) دكتور محمد فؤاد شكرى : عبد الله جاك مينو ، مرجع سبق ذكره ، ص ٥٨٠ .

(٢) المرجع السابق ، ص ص ٥٥٢ — ٥٥٣ .

(٣) يتضح عمق كراهية رجال الحملة الفرنسية للإقامة فى مصر من الخطابات الشخصية التى بعث بها رجال الحملة إلى ذويهم فى فرنسا ، وقد وقعت هذه الخطابات فى يد الأسطول الإنجليزى بقيادة نلسن ، وذلك فى أثناء نقلها من مصر إلى فرنسا ، فصادرها نلسن وبعث بها إلى لندن ، وقـد سارعت الحكومة الإنجليزية إلى نشر هذه الخطابات ، مع ترجمة لها بالإنجليزية ، واستعانت بأحد المهاجرين الفرنسيين فى التعليق عليها ، كما وضعت مقدمة لها ، وقامت الحكومة الفرنسية من ناحيتها بالـرد على الملاحظات والتعليقات التى جاءت فى الطبعـة الإنجليزية ، وأردفت بردها الخطابات المصادرة ، فأصبحت هناك مجموعتان :

المجموعة الأولى :

Copies of Original letters from the Army of General Bonaparte in Egypt, intercepted by the Fleet under the command of Admiral Lord Nelson. With an English translation. 1798 - 1799. 2vols., XXIII - 248 pages; XXXI - 236 pages.

وقد طبعت من المجموعة الأولى عدة طبعات .

=

الفرنسية أن تدرك أن مثل هذه الحياة الاجتماعية المتحررة الصاخبة المستهترة ، كانت تتعارض تعارضاً جذرياً مع تقاليد مجتمع إسلامى متزمت ، وبالتالى تعصف بالسياسة الإسلامية التى حرص بونابرت على انتهاجها فى حكم الشعب المصرى . ولم يكن من المنتظر أن يغير الشعب المصرى فى مجموعه، وبين عشية وضحاها ، أسلوبه فى الحياة الاجتماعية ، وهو أسلوب درج عليه أعصراً وأدهراً وأحقاباً ، ولم يجد المصريون من أهل الرأى فى مظاهر الإباحية التى انتشرت فى القاهرة دليلا على انغماس الفرنسيين فى حياة المجون والخلاعة فحسب ، ولم ينظروا إليها على أنها فوضى خلقية فقط ، بل اعتقدوا أن الفرنسيين إنما يهدفون إلى ما هو أخطر من ذلك كله بكثير : إنهم يريدون نشر الفساد والرذيلة بين شباب الشعب المصرى (١) . لقد أطلق أحد الأساتذة المصريين على القاهرة منذ أن دخلها الفرنسيون وصفاً معبراً هو « القاهرة الخليعة » (٢) ، وقال إن هذه التسمية مستمدة من الفكرة التى جالت فى ذهن الجبرتى ونظرائه من عقلاء المصريين . والحق أن الفرنسيين استهتروا بتقاليد الشعب المصرى ، وعاداته ، وأخلاقه ، ومثله العليا . وبقدرما استهوت حياة المجون والفسق ، أفئدة الطبقة الدنيا من سكان القاهرة ، وبعض أفراد قلائل من العائلات الكبيرة ، بقدر ما نفرت بقية قطاعات الشعب منها : وكان القاهريون يقارنون بين

= المجموعة الثانية :

Correspondance de l'Armée française en Egypte, interceptée par l'escadre de Nelson, publiée à Londres, avec une introduction et des notes de la chancellerie anglaise. Traduites en français et suivies d'observations par E. Th. Simon. Paris, an VII (1799).

وقد ترجمت المجموعة الثانية إلى اللغات الإنجليزية والألمانية والهولندية .

(١) دكتور محمد فؤاد شكرى : عبد الله جاك مينو ، مرجع سبق ذكره ، ص ٥٧٣ ، ص ٥٨٠

(٢) المرجع السابق ، ص ٥٧١

الإباحية التى نشرها الفرنسيون ، وبين ما جاء فى منشور بونابرت أن الفرنسيين مسلمون مخلصون .

ثانيا : تعيين يونانى شرس وكيلا لمحافظة القاهرة

ومن بين تصرفات الفرنسيين التى جانبهم فيها التوفيق ، وأثارت سكان القاهرة عليهم ، أنهم عينوا أحد اليونانيين العتاه فى منصب كتخدا مستحفظان — أى وكيل محافظة القاهرة — وكان اسمه برتلمى Barthélemy [١] ، ويسميه الجبرتى برطلمين ، وأطلق عليه أهل القاهرة « فَرْط الرُّمّان » [٢] ، وكان هذا اليونانى — وهو من مواليد جزيرة كسيو Chio إحدى جزر الأرخبيل — معروفاً لأهل القاهرة بكراهيته العميقة للمصريين ، ويقول الجبرتى عنه إنه من سفلة اليونانيين ، اتخذ من العسكرية حرفة له ، والتحق بخدمة الأمير المملوكى محمد بك الألفى فى فرقة الطوبجية — أى سلاح المدفعية — ، كما كان له محل بشارع الموسكى يبيع فيه القوارير الزجاج أيام بطالته . وكان هذا الرجل ضخم الجسم ، فارع القامة ، عريض المنكبين ، تهفو نفسه إلى المشاجرات ، لأنها تتيح له الفرصة لإبراز عضلاته ، وإظهار قوته . وكان سكان القاهرة يتقون شره . ولما جاء الفرنسيون عرض خدماته عليهم ، فعينوه وكيلا لمحافظة القاهرة ، وغدا من صنائع الفرنسيين ، ومن أبرز أعوان الاحتلال الفرنسى . بدت النزعة المظهرية فى خلاقه ، منذ أن صدر قرار تعيينه فى منصبه ، إذ خرج من مقر القيادة العامة للجيش الفرنسى فى موكب رسمى يصفه الجبرتى فى حوادث شهر صفر ١٢١٣ (١٥ يوليو — ١٢ أغسطس ١٧٩٨) ، فيقول : « قلدوا برطلمين النصرانى الرومى ، وهو الذى تسميه العامة (فَرْط الرُّمّان) ، كتخدا مستحفظان ، وركب بموكب من

(١) يرد اسمه فى بعض المراجع التاريخية برتلميو سيرا Bartholomeo Sera

(٢) يرد فى مراجع أخرى هذا الاسم القاهرى مترجما إلى اللغة الفرنسية Grain-de-Grenade

بيت صاری عسكر ، وأمامه عدة من طوائف الأجناد والبطالين[1] ، مشاة بين يديه ، وعلى رأسه حشيشة[2] من الحرير الملون ، وهو لابس فروة بزغادة[3] ، ومن بين يديه الخدم بالحراب المفضضة ، ورتب له بيوك[4] باشى وقاقات[5] عينوا لهم مراكز بأخطاط[6] البلد يجلسون بها ، وسكن المذكور بيت يحيى كاشف الكبير بحارة عابدين ، أخذه بما فيه من فرش ومتاع وجوارى وغير ذلك[7] » .

(١) البطالون : هم الجنود غير النظاميين .

(٢) حشيشة ، معناها لفافة .

(٣) فى الترجمة الفرنسية لكتاب الجبرتى ترد هذه العبارة : un riche pelisse sur le dos. ومعناها معطف ثمين ، مبطن بفرو يتدلى على ظهره .

انظر

Merveilles Biographiques et Historiques, ou Chroniques du Cheikh Abd - El - Rahman El Djabarti. Traduites de l'arabe par Chafik Mansour Bey, Abdul Aziz Khalil Bey, Gabriel Nicolas Kahil Bey et Iskender Ammoun Effendi. Le Caire. Imprimerie Nationale. 1888 - 1897. 9 vols. t. VI. (1891) p. 25.

(٤) بيوك ، كلمة تركية معناها كبير ، وبيوك باشى تحمل معنى الموظف الكبير أو الياور .

(٥) قلقات مصطلح تاريخى ، مفرده قلق ، وهذه اللفظة مأخوذة من الكلمة التركية قوللق ، ومعناها أحد أفراد الشرطة الذين يطوفون ليلا فى دورة عسس .

والجبرتى يعطى فكرة عن المكانة الهامة التى كان يشغلها أولئك القلقات فيقول : إن كبراء الفرنسيين كانوا يذهبون إلى القلق المختص بمنطقة الجامع الأزهر عقب إخماد ثورة القاهرة الأولى ، وتسرب الأنباء بأن الفرنسيين أعدموا عدداً من مشايخ الأزهر سراً ، وكان هؤلاء الفرنسيين الكبار يجتمعون عند القلق من أجل إرهاب المصريين ، خشية قيام فتنة (ج ٣ ، ص ٢٩) .

والجبرتى يعطى أيضاً تحديداً دقيقاً لاختصاصات القلقات ، وهو يتكلم عن سياسة محمد على ، إبان حملة فريزر Fraeser البريطانية على مصر سنة ١٨٠٧ فى تضييق الخناق على الأمراء المماليك المتحصنين بالوجه القبلى — ويسميهم الجبرتى القبالى — خوفاً من حدوث اتصالات مثمرة ، بين الأمراء المماليك فى الصعيد وبين الحملة البريطانية ، مما يؤدى إلى تحالف بين الفريقين ضد محمد على. يقول الجبرتى وهو يتكلم عن حوادث شهر صفر ١٢٢٢ (١٠ أبريل - ٨ مايو ١٨٠٧) « وكذلك نبهوا على القلقات الذين يسمونهم الضوابط المتقيدين بأبواب المدينة مثل باب النصر ، وباب الفتوح ، والبرقية ، والباب الحديد ، بمنع النساء عن الخروج ، خوفاً من خروج نساء القبالى ، وذهابهن إلى أزواجهن » . (ج ٤ ، ص ٥٧) .

(٦) أخطاط ، جمع خط بضم الخاء ، معناها أقسام المدينة .

(٧) الجبرتى ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ص ١١ — ١٢

ومن الغريب أن يصدر قرار تعيينه فى مستهل الحكم الفرنسى وفى ذات اليوم الذى صدر فيــه قرار تشكيل ديوان القاهرة ، وفى الوقت الذى كان بونابرت يحاول استمالة قلوب المصريين إلى الحكم الفرنسى . ولا عبرة بمـــا يقرره أحمد حافظ عوض من أن التبعة فى تعيينه تقع على علماء الأزهر أعضاء الديوان[1] ، فقد اعتمد على رواية الجبرتى بعد أن أدخل تعديلا عليها عصف بمعناها . والعبارة التى ذكرها الجبرتى هى أن أعضاء الديوان أبلغوا الفرنسيين « أن سوقة مصر لا يخافون إلا من الأتراك ، ولا يحكمهم سواهم »[2] ، والعبارة التى جاء بها قلم أحمد حافظ عوض منسوبة إلى الجبرتى هى « إن الذنب فى ذلك واقع على المشايخ الذين أفتوا لهم بأن سوقة مصر لا يخافون إلا من الممـــاليك وأشباههم » . وفارق كبير بين العبارتين ، والأمانة العلمية تقتضى عدم إدخال تعديل على نص تاريخى يعصف بمعناه ، ولم يكن الرأى الذى قرره الجبرتى ينسحب على هذا اليونانى ، ولعل الأستاذ أحمد حافظ عوض قد فاته ما ذكره الجبرتى فى كتابه الأول الذى وضعه باسم « مظهر التقديس » إذ حمل فيه حملة عنيفة على الفرنسيين لتعيينهم هذا اليونانى فى منصب إدارى كبير ، وقال إن هذا التعيين يتنافى مع ما جاء فى المنشور الأول الذى وجهه بونابرت إلى الشعب المصرى فى ٢ من يوليو ١٧٩٨ ، والذى قال فيه : إن الحكم الفرنسى سوف يتيح الفرص أمام المصريين لتقلد المناصب السامية ، واكتساب المراتب العاليـــة . وأضاف الجبرتى إلى ذلك قوله : إنه ممـــا عصف بهذه الوعود « تقليدهم مناصب

---

(١) أحمد حافظ عوض : فتح مصر الحديث أو نابليون بونابرت فى مصر ، القاهرة ، ١٩٢٥ ، ص ٢٥٧

(٢) الجبرتى ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ١١

الأحكام الجليلة للأسافل والرعاع ، كجعلهم برطامين ، وهو المسمى عند العامة (فرط الرمان) ، كتخدا مستحفظان[(١)] » .

ويعطى أحد المؤرخين الفرنسيين تفسيراً أو تبريراً ، لإقدام السلطات الفرنسية على تعيينه فى هذا المنصب ؛ فيقول إنه عقب معركة إمبابة وهروب إبراهيم بك مع قواته إلى الشرقية ، انتهز بعض الغوغاء فرصة عدم وجود قوات أمن فى القاهرة ، فمارسوا عمليات النهب والسلب . وحدث أن هاجمت جموع غفيرة من الرعاع حى الإفرنج ، وكادوا يفتكون بسكانه ، ويسلبون ثرواتهم ، لولا أن تصدى لهم شخص يونانى بمفرده ، كان ذا شجاعة نادرة ، وقوة بدنية جبارة ، وأخذ يطلق النار على المهاجمين ، فردهم على أعقابهم ، وكان هذا اليونانى « الشجاع » هو برتلمى ، فعينه الفرنسيون فى منصب وكيل محافظة القاهرة ، تقديراً منهم لموقفه ، وجهوده فى حماية أرواح الأوروبيين وأموالهم[(٢)] .

ولما شغل برتلمى هذا المنصب برزت بروزاً واضحاً هوايته ، وهى القتل الجماعى للمماليك والمصريين على السواء . كان يطوف فى شوارع القاهرة والسيف مسلول فى يده ، وحوله وأمامه قوة تبلغ المائة من اليونانيين غلاظ القلوب على شاكلته[(٣)] . وكان يجمع فى ملبسه بين الملابس اليونانية والملابس الشرقية .

---

(١) الجبرتى : مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس . النسخة الخطية المودعة فى المكتبة التيمورية بدار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة تحت رقم ١٣٢٨ تاريخ ، المكتبة التيمورية ، ص ٣٣ .

(2) Reybaud Louis et autres; ouvr. cit., t., III, p. 211.

(٣) تقرب اليونانيون المقيمون فى مصر من سلطات الاحتلال الفرنسى ، وقد أمر بونابرت بتكوين ثلاث كتائب من هؤلاء اليونانيين تتولى الحراسة النهرية للسفن الفرنسية ، بعد أن كثر تعرض المصريين لهذه السفن ، وفتكهم بركابها الفرنسيين ، وقد تضمن أمر بونابرت بأن تتكون كل كتيبة من مائة يونانى ، وأن يكون مقر الكتيبة الأولى القاهرة ، ورئيسها نقولا ماركو =

كان يرتدى عمامة بيضاء كبيرة ، يزيد فى بياض لونها لمن يشاهدها بشرته البرونزية ، وكان يرتدى أيضاً سراويل واسعة ، وسترة ضيقة وقصيرة على صدره ، ويضع حول وسطه حزاماً عريضاً أحمر . وكان يطوف أحيـاناً فى صحبة زوجته ، مرتدية الملابس اليونانية الوطنية ، وكانت زوجتـه على شاكلته ، لا يرعبها منظر الدماء المسفوكة ، وكان يداهم البيوت ليلا ، بحجة البحث عن الأسلحة . وكان فى بعض الأحايين يخرج إلى أطراف القاهرة ، بحجة البحث عن الفارين ، أو البدو المتمردين ، فاذا لم يجد أحداً من هؤلاء وأولئك كان يقتل الفلاحين الذين يصادفهم فى طريق عودته إلى القاهرة ، ويجمع رءوسهم ويحملها رجاله معهم (١) . ولذلك كان يحرص على أن يعود من جولاته بنتائج إيجابية ، تتمثل فى رءوس قتلاه . وكان يرى أن أكبر معـرة تلحق به من طوافه أن يعود إلى القلعة بدون « إيراد آدمى » ، سواء كان هذا الإيراد أشخاصاً مقبوضاً عليهم أو رءوس قتلى موضوعة فى زكايب ، وبسبب إسرافه فى القسوة ، وإمعانه فى الظلم ، ورغبته فى التشفى من الشعب المصرى ، أطلق عليه أحد المؤرخين الفرنسيين (٢) اسم « تريستان المصرى » (٣) Le Tristan Egyptien

= Nicolas Marco ، والثانية فى دمياط ، والثالثة فى رشيد .

انظـر :

الوثيقة رقم ٣٥٤٢ مؤرخة فى ٦ برومير من السنة السابعة للتقويم الجمهورى (٢٧ أكتوبر ١٧٩٨) والوثيقة رقم ٣٥٤٣ مؤرخة فى ذات التاريخ السابق ، وموجهة إلى الجنرال برتيه

Correspondance de Napoléon, t. V.

وبالإضافة إلى كتائب الحراسة النهرية شكل الفرنسيون من اليونانيين المقيمين فى مصر كتائب انضمت إلى الجيش العامل ، سداً للنقص فى صفوف الجيش .

(١) حدث أن عاد هذا الرجل فى إحدى المرات من جولاته ، وذهب إلى الجنرال ديبوى الحاكم العسكرى لمدينة القاهرة ، وكان يتناول الغذاء مع بعض ضيوفه ، فقدم إليه زكيبة ، ظن الجنرال أول الأمر أنها تحوى بطيخاً أو شماماً ، فأمر بفض الزكيبة ، فإذا بمحتوياتها عبارة عن اثنى عشر رأساً من رءوس المصريين الذين قتلهم . وامتعض الحاضرون من هذا المشهد الدامى ، وأمر الجنرال بإخراجه مع زكيبته من قاعة الطعام .

(2) Reybaud Louis et autres; ouvr. cit., t. IV. pp. 128 - 131.

(٣) تريستان ، هو رجل سياسى فرنسى ، عاش فى القـرن الخامس عشر ، واستطار شره فى فرنسا ، إذ اشتهر عنه إسرافه فى القسوة ، والتجسس على مواطنيه ، والتحريض على ارتكاب =

ويقول مؤرخ فرنسى آخر: إن كل الآثام الفظيعة التى نسبت إلى الفرنسيين إنما تتجسد فى هذا الرجل اليونانى[1] ، وجدير بالذكر أن الهتافات التى رددها أهل القاهرة إبان الثورات والفتن كانت تدوى بهذا القول المسجع : الله ينصـــر السلطان ، ويهلك فَرْط الرُّمان[2] ، وسنرى أن رعونة هذا اليونانى كانت السبب المباشر فى استفحال الثورة التى تنادى إليها رجال الأزهر فى أكتوبر ١٧٩٨ .

ثالثـاً : استيلاء المسيحيين على إيراد الأوقاف الإسلامية

ومن الأســباب المساعدة استيلاء الأقباط ونصارى الشوام على إيراد الأوقاف الخيرية الإسلامية، وقد اعتبروها غنيمة لهم، وتأثر من هذا الإجراء المستحقون فى الأوقاف ، إذ قطعت عنهم المرتبات التى كانوا يعتمدون عليها فى معيشتهم ، وكان معظمهم من الفقراء ، وقد وصفهم الجبرتى بأنهـــم : «أولاد الكتاتيب والفقهاء ، والعميان والمؤذنين ، وأرباب الوظائف ، والمرضى بالمـــارستان المنصورى ، وأوقاف عبـــد الرحمن كتخدا » وقـــد ذهبوا

= الجرائم التى وصلت إلى حد القتل أو الاغتيال ، وانتهز فرصة الحروب التى كانت مشتعلة بين فرنسا وإنجلترا ، وقيام الاضطرابات الداخلية فى فرنسا ، فأشبع هوايته الإجرامية ، وكان قد وضـــع نفسه فى خدمة ملكين تعاقبا على حكم فرنسا ، همـــا الملك شارل السابع (١٤٢٢ – ١٤٦١) ، والملك لويس الحادى عشر (١٤٦١ – ١٤٨٣) ، سمح له الأول بأن يباشر نفوذاً على كبار قادة الجيش ، وعينه الثـــانى فى منصب كبير الياوران ، وفى جميع المناصب التى شغلها كان تريســتان صورة قبيحة من صور استغلال النفوذ والبطش ، والاستهتار بالقانون ، وسفك الدماء لأتفـــه الأسباب ، وقد انقطعت أخباره بعد سنة ١٤٧٥ ، ويعرف فى تاريخ فرنسا القومى باسم « لويس تريستان ليرميت Louis Tristan Lhermite ، وتكتب هذه اللفظة الأخيرة أحياناً L' Hermite ، وأحياناً أخرى Lhermite ، وأحياناً ثالثة L'Ermite

وهكذا توجد أوجه كثيرة للشبه بين هذه الشخصية الفرنسية وبين برتلمى الذى فرضه الفرنسيون فى منصب حساس فى مدينة القاهرة ، فاستغل سلطات منصبه لممارسة هوايته الإجرامية من ناحية ، ولإشفاء غليله من الشعب المصرى من ناحية أخرى .

(1) Wiet Gaston; Nicolas Turc; ouvr. cit., (Trad. fr.) p.113, note. 2.

(٢) الجبرتى ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٨٨ ، ص ٩٣ .

إلى السيد خليل البكرى نقيب الأشراف ، يلتمسون تدخله لدى السلطات الفرنسية لإعادة الأمور إلى أوضاعها السليمة ، وكانوا جمعاً غفيراً « فواعدهم على حضورهم الديوان وينهوا شكواهم ، ويتشفع لهم ، فذهبوا راجعين »[١] .

رابعا : استعلاء المسيحيين على المسلمين

يضاف إلى هذا الاستيلاء التعسفى سبب آخر ، هو استعلاء العناصر غير الإسلامية فى مصر على مسلميها ، فقد كان المسلمون يخصون أنفسهم بامتيازات ، نذكر منها على سبيل المثال : الحق الذى قرروه لأنفسهم دون سواهم ، وهو ارتداء عمامة بيضاء ، وكذلك السير فى الطرقات على الجانب الأيمن . ولما جاء الحكم الفرنسى لم يتخلص غير المسلمين من القيود المفروضة عليهم فحسب ، بل شمخوا بأنوفهم على المسلمين ، وخاطبوهم بلهجة كانت تنم عن التهكم والازدراء والسخرية[٢] . وواجه الفرنسيون هذه المشكلة منذ الأيام الأولى للحكم الفرنسى . وكان مركزهم حرجاً ، فالجيش فى حاجة إلى معاونة الأقباط والشوام المسيحيين واليونانيين ومن إليهم ، لعدة أسباب ليس هذا البحث مكاناً لمناقشتها ، والجيش تابع لدولة أوروبية ذات نظام جمهورى ، وشعارها الحرية والإخاء والمساواة ، فإذا لم يعمل الفرنسيون على تطبيق هذه المبادئ على الأقليات فى مصر ، فكأنما تنكر الجيش للمبادئ التى جاءت بها الثورة الفرنسية . ولكن أدرك بونابرت من ناحية أخرى أن هذا التحرر يسىء إلى الرأى العام فى مصر ، ويعصف بالسياسة الإسلامية التى أخذ نفسه بها فى حكم الشعب ، فقال فى مذكراته : إنه من العبث إضفاء مظاهر الاحترام والتقدير على علماء الأزهر كوسيلة لاجتذاب قلوب المصريين للحكم الفرنسى « إذا لم نظهر نحن

---

(١) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٤ .

(2) Reybaud Louis et autres; ouvr. cit., t. IV, pp. 138-139.

مزيداً من الاحترام العميق للدين الإسلامى . وإذا كنا نسمح للأقباط واليونانيين واللاتين (المسيحيين الغربيين) بقسط من التحـــرر ، يغير من أوضاعهم وعلاقاتهم المعتادة . وقد أردت أن يكونوا أكثر خضوعاً ، وأكثر احتراماً لكل ما يتصل بالإسلام وبالمسلمين . مما كانوا فى المـــاضى » (١) . والجـــبرتى يؤكد هذا الاتجاه الذى صدر عن بونابرت ، ويقرر أنه حاول الأخذ به ، بعد انتهاء ثورة أكتوبر ١٧٩٨ . فيذكر فى حوادث اليوم السابع من شهر رمضان ١٢١٣ (١٢ من فبراير ١٧٩٩) « أن نصارى الشوام رجعوا إلى عادتهـــم القديمة فى لبس العمائم السود والزرق . وتركوا لبس العمائم البيض ، والشيلان الكشميرى الملونة والمشجرات ، وذلك بمنع الفرنسيس لهم من ذلك . ونهوا أيضاً بالمناداة فى أول رمضان (٦ من فبراير ١٧٩٩) بأن نصارى البلد يمشون على عادتهم مع المسلمين أولا . ولا يتجاهرون بالأكل والشرب فى الأسواق ، ولا يشربون الدخان ولا شيئا من ذلك بمرأى منهم ، كل ذلك للاستجلاب لخواطر الرعية .... » (٢) .

خامسا : كثرة الخمارات والمراقص

ومن جهة أخرى كثر عدد محلات بيع الخمور أو « الخمامير » بمصطلح ذلك العصر ، وتحولت المقاهى فى الأحياء الشعبية إلى مراقص تعمل فيهـــا الراقصات المصريات . ومن اللهن من « بنات البلد المخلوعات » . وكان السهر فى هذه المراقص يمتد إلى ساعة متأخرة بعد منتصف الليل ، وكانت تتم فيهـــا

(1) "Mais ce serait en vain qu'on prendrait ces soins pour eux (les Ulémas), si on ne se montrait pas pénétré du plus profond respect pour la religion de l'Islamisme et si on permettait aux Coptes chrétiens, grecs et latins des émancipations qui changeassent leur rapports habituels. J'ai voulu qu'ils fussent encore plus soumis, plus respectueux pour les choses et les personnes qui tenaient à l'Islamisme, que par le passé".

Nepoléon I^er; Guerre d'Orient. etc., ouvr. cit., t. II, p. 152.

(٢) الجبرتى . مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٤٥ .

أعمال مخلة بالآداب العامة، ونذكر بهذه المناسبة أنه اختفت ، أو كادت تختفى من القاهرة ظاهرة كانت تميز الحيـــاة الاجتماعية فى مصر قبل قدوم الحملة الفرنسية ، فقد كانت المقاهى تقدم لروادها ألواناً من الأدب الشعبى ، وكان المنشدون يجلسون فى صدر المقهى على أريكة مرتفعـــة ، ينشدون على نغمات الربابة قصص البطولة والفداء والحب العذرى ، ويروون فصولا من قصص الأميرة ذات الهمة ، وأبى زيد الهلالى ، وعنترة ، وألف ليلة وليلة، وغير ذلك ، وحل محل الأدب الشعبى أعمال نفرت منها الغالبية الساحقة من مجتمع إسلامى محافظ .

سادسا : تدخل الحكومة فى مسائل اعتبرها المصريون مسائل شخصية

وازداد سخط سكان القاهرة على الحكم الفرنسى ، حين اتخـــذ الفرنسيون تدابير صحية وقائية لمنع انتشار الطاعون ، وغيره من الأوبئة فى مدينة القاهرة بالذات ، نظراً لكثافة السكان بها نسبياً عن سائر مدن مصر، فأمروا القاهريين بأن ينشروا ثيابهم وأمتعتهم وفرشهم على سطوح المنازل ، وتعريضها للشمس والهواء طوال النهار يومياً ، وتبخير البيوت ، وعزل المصابين بأى مرض وبائى عن الأصحاء ، والإبلاغ عن كل مريض ، كى ترسل السلطات الفرنسية طبيباً لفحصه ، خشية أن يكون مصاباً بالطاعون . واهتمت هـــذه السلطات اهتماماً زائداً بتنفيذ هذه الإجراءات الوقائية ، وعهدت إلى مشايخ الحارات ، وعدد من السيدات بالمرور على المنازل ، للتأكد من تنفيذ التعليمات الصحية . وكانت السيدات يصعدن إلى دور الحريم لهذا الغرض ، كما صدرت الأوامر بمنع دفن الموتى فى المقابر القائمة فى أحواش المساكن ، أو القريبة منها. وكانت توجد مقابر فى الأزبكية والرويعى وغيرهما ، فمنع الفرنسيون الدفن بهـــا ، وأمروا باستخدام المدافن الموجودة فى أطراف العاصمة . أما العائلات التى

ليست لها مدافن ، فيسمح لها بأن تدفن موتاها فى مدافن المماليك ، كما طالب من القاهريين تعميق القبور ، بحيث لا يكون القبر قريباً من سطح الأرض . وصدرت الأوامر لأهل القاهرة بكنس الشوارع ورشها ، ومداومة تنظيفها من القمامة والقاذورات ، وقد نظر المصريون شذراً إلى هذه الأوامر واعتبروا صدورها فضولا لا يطاق من السلطات الفرنسية ، وتدخلا منها فيما لا يعنيها ؛ لأنهم كانوا يعتبرون مثل هذه الموضوعات مما يدخل فى نطاق المسائل الشخصية يعالجها كل إنسان بأسلوبه الخاص ، وبطريقته الخاصة . وقد اعتاد المصريون إبان الحكم العثمانى أن يكون التدخل الحكومى محصوراً فى أضيق نطاق لا يتعدى عادة ثلاث مسائل ، هى : جمع الضرائب ، والقضاء ، والأمن ، ولذلك نفر سكان القاهرة من هذه « القيود » التى فرضها الحكم الفرنسى عليهم [1] :

(١) وتتصل بهذه المسألة الأوامر التى أصدرتها السلطات الفرنسية بإنارة الطرق والأسواق ليلا ، وبوضع قنديل أمام كل دار ، وقنديل آخر أمام كل ثلاثة حوانيت . وقد تعسف رجال الشرطة فى تنفيذ هذه الأوامر ، واتخذوا منها وسيلة للكسب الحرام . كانوا إذا وجدوا قنديلا خبا نوره لنفاد زيته ، أو أطفأه الهواء فى ليل ذات ريح عاصف ، فرضوا على صاحب القنديل مبلغاً من المال يذهب لجيوبهم مباشرة . يقول الجبرتى وهو يستعرض حوادث شهر رجب ١٢١٣ : « ومنها كثرة تعدى القلقات ، وتشديدهم على وقود القناديل بالأزقة وهم من أهل البلد ، وإذا مروا بالليل ووجدوا قنديلا أطفأه الهواء ، أو فرغ زيته سمروا الحانوت أو الدار التى هو عليها ، ولا يقلعون المسمار حتى يصالحهم صاحبها على ما أحبوه من الدراهم ، وربما تعمدوا كسر القناديل لأجل ذلك . واتفق أن المطر أطفأ عدة قناديل بسوق أمير الجيوش بسبب كونها فى ظروف من الورق والجريد ، فابتل الورق وسال الماء فأطفأ القناديل ، فسمروا حوانيت السوق ، وأصبح أهلها صالحوا عليها ، ووقع مثل ذلك فى طرق عديدة ، فجمعوا فى ذلك اليوم جملة من الدراهم ، وأمثال ذلك حتى فى الأزقة والعطف الغير نافذة ، حتى كان الناس ليس لهم شغل إلا القناديل وتفقد حالها ، وخصوصاً فى ليل الشتاء الطويل » . وفى الشهر التالى أدخل الفرنسيون تطويراً على نظام الإضاءة فى طرقات القاهرة ، وكان من أهداف هذا التطوير تخفيف الأعباء عن الفقراء ، أو كما يقول الجبرتى : « إزالة هذه الكربة عنهم » نظراً لما لابس نظام الإضاءة من تعنت القلقات مع الجماهير الكادحة . وفى عرضه لحوادث شهر شعبان ١٢١٣ قرر الجبرتى أن الفرنسيين « نادوا بإبطال القناديل التى توقد فى الليل على البيوت والدكاكين ، وأن يوقد عوضها فى وسط السوق مجامع ، فى كل مجمع أربع قناديل ، بين كل مجمع ثلاثون ذراعاً ، ويقوم بذلك الأغنياء ، دون الفقراء ، ولا علاقة للقلقات فى ذلك ، ففرح بذلك فقراء الناس ، وانفرجت عنهم هذه الكربة » .

انظر الجبرتى ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ١٩ ، ص ٣٩ ، ص ٤١ .

وأمر الفرنسيون بخلع البوابات التى كانت قائمة عند رءوس الشـوارع والدروب والحارات النـافذة إلى طرق ومسالك أخرى ، وكان جنود فرق الهندسة العسكرية هم الذين يقومون بعمليات خلع وتحطيم البوابات ، تحت إشراف الضباط المهندسين . وارتاع أهل القاهرة من هذا الإجراء ، لأن هذه البوابات كانت تغلق يومياً من بعد صلاة العشاء حتى مطلع فجر اليوم التالى . وكان وجودها وغلقها ليلا مبعث طمأنينة فى نفوس السكان ، إذ يكونون بمأمن من اعتداء اللصوص . وانتهز المرجفون فى المدينة فرصة هذا الإجراء ، وأذاعوا أن الفرنسيين يعتزمون مهاجمة البيوت ، وقتـل من فيها وقت صلاة الجمعة ، حين يكون الرجال محتشدين فى المساجد يؤدون شعائر صلاة الجمعة . وفى شهر سبتمبر ١٧٩٨ مضى الفرنسيون يخلعون البوابات المقامة على المسالك غير النافذة أيضاً . وكانت البوابة الكبيرة تقطع نصفين ، ثم يرفعها العتالون وينقلونها إلى بركة الأزبكية عند رصيف الخشاب . وزاد هلع الجماهير ، وأغلق التجار حوانيتهم تعبيراً عن احتجاجهم وتذمرهم ، ولكن لم يأبه بونابرت بسخطهم ، واعتقد أن تذمرهم ليس إلا فورة غضب سوف تخبو وشيكاً ، ولكنه كان واهماً فى اعتقاده ، لأن إجراء خلع البوابات ظل عالقاً فى أذهان سكان القاهرة ، فما أن قامت الثورة حتى تحركت الجماهير إلى الدار التى كان يسكنها الجنرال كافارللى Caffarelli قائد سلاح المهندسين فى الجيش ، باعتباره الضابط الذى كان يتولى الإشراف على تنفيذ خلع البوابات ، واقتحم القاهريون داره ، وقتلوا من كان فيها ، ولم ينقذ هـذا الضابط الكبير من الموت فى ذلك اليوم إلا تواجده خارج القـاهرة مع بونابرت . ويجمـع الباحثون على أن الضرورات الحربية كانت وراء خلع البوابات ، إذ خشى بونابرت أن تعرقل هذه البوابات تحركات وحدات الجيش فى حالة اندلاع ثورة ضد الفرنسيين ، وقد يستخدم الأهالى البوابات بمثابة متاريس يحتمون بهـا ،

وتتضح الأهمية التى كان يعلقها بونابرت على خلع البوابات من كثرة عدد الأوامر التى كان يصدرها تباعاً فى هذا الصدد إلى سلاح المهندسين[1]، وقد ربط أهل القاهرة فى أذهانهم بين خلع البوابات وتحطيمها، وبين تسليح القلعة الذى كان قائماً على قدم وساق قبيل نشوب الثورة، كما سنرى فى موطن قادم :

سابعا : إعدام السيد محمد كريم

ومن التصرفات التى أثارت المسلمين بوجه خاص على الحكم الفرنسى إعدام السيد محمد كريم حاكم الإسكندرية الوطنى رمياً بالرصاص فى الرميلة بالقاهرة، فى السادس من سبتمبر ١٧٩٨، ثم أقدم الفرنسيون على قطع رأسه وأمروا برفعها على نبوت، وطافوا بها فى شوارع القاهرة، والمنادى يقول : « هذا جزاء من يخالف الفرنسيس » . وقد اعتبر سكان القاهرة هذا العمل من جانب الفرنسيين تمثيلا بجثمان رجل من الأشراف[2].

(١) انظر على سبيل المثال الوثائق الآتية :

الوثيقة رقم ٢٩٤٥ — أمر من بونابرت إلى الجنرال كافاريلى، مؤرخ فى ١٦ من ترميدور من السنة السادسة من التقويم الجمهورى (٣ من أغسطس ١٧٩٨) .

الوثيقة رقم ٢٩٥٦ — أمر من بونابرت إلى الجنرال دومارتا Dommartin مؤرخ فى ١٦ من ترميدور من السنة السادسة من التقويم الجمهورى (٣ من أغسطس ١٧٩٨) .

الوثيقة رقم ٢٩٥٧ — أمر من بونابرت إلى الجنرال ديبوى Dupuy فى ذات التاريخ السابق .

الوثيقة رقم ٢٩٧٨ — أمر من بونابرت إلى الجنرال كافاريلى مؤرخ فى ٢٨ من ترميدور من السنة السادسة التقويم الجمهورى (٥ من أغسطس ١٧٩٨) .

وهذه الوثائق مذكورة فى المجلد الرابع من :
Correspondance de Napoléon.

(٢) انظر على سبيل المثال الوثائق ذات الأرقام الآتية :

٢٨٨٥، ٢٩٢٥، ٢٩٢٦، ٣٠٢٥، ٣٢٤٧، ٣٢٤٨ فى المجلد الرابع من المصدر السابق، وكل هذه الوثائق خاصة بإعدام السيد محمد كريم .

وانظر أيضاً :

جريدة Courrier de l'Egypte، العدد الرابع الصادر فى ٢٤ من شهر فركتيدور من السنة السادسة من التقويم الجمهورى، (١٠ من شهر سبتمبر ١٧٩٨)، وقد أذيع فى هذا العدد نبأ إعدامه، وأسباب الإعدام، والطواف برأسه فى شوارع القاهرة .

ثامنا : القروض الإجبارية

وأسرف بونابرت فى فرض قروض إجبـارية على سكان القـاهرة من التجار والصناع والحرفيين ومن إليهم ، وكانوا يلتمسون تخفيض قيمتهـا ، ولكنهم لم يجدوا استجابة لالتماساتهم المكرورة ، وعمد بونابرت بعـد ذلك إلى مصادرة الممتلكات ، وابتزاز الأموال من نساء البكوات المماليك ، ولم تكن هذه الإجراءات المـالية التعسفية ، أو معظمها بعبارة أدق ، أمراً جديداً ، بالنسبة لمجتمع القاهرة فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، حين كان الأمراء المماليك يملأون القاهرة ظلماً وعدواناً ونهباً واغتصاباً .

ويمكن أن يضاف إلى أسباب التذمر تعرض التجارة للكساد ، بسبب توقف قدوم القوافل التجارية من شمالى أفريقيا ومن السودان ، وتعطل التجارة الخارجية البحرية استيراداً وتصديراً ، على الرغم من أن حجم هذه التجارة الخارجية كان ضئيلا نسبياً ، إلا أنها كان لها دور فى الاقتصاد المصرى فى ذلك الـوقت .

ولم تكن جميع هذه الأسباب تبرر اندلاع ثورة عارمة كالتى قام بهـا سكان القاهرة فى صباح ٢١من أكتوبر ١٧٩٨ ، إن كل ما يمكن أن يقـال فى هذا الصدد إن تلك الأسباب قد أضافت مزيداً إلى رصيد النفور الذى شعر به المصريون من الحكم الفرنسى ، ثم جاءت تشريعات مالية استحدثها الفرنسيون واستغلها رجال الأزهر ، لتحريك ثورة كانوا يعدون لها من قبل ، كما سنرى فى سياق هذه الدراسة .

تاسعا : التشريعات المـالية

كان بونابرت قد عهد إلى أحد رجال الاقتصاد الفرنسيين وهو پوسيلج Poussielgue تدبير موارد جديدة للمالية المصرية ، لمواجهة نفقـات

الإدارة والحكم والحرب ، وكان بوسيلج يشغل منصب مدير الشئون المـــالية لجيش الشرق ، ويسميه الجبرتى تارة « بوسليك المعروف بمدير الحدود ، وهو عبارة عن الروزنامجى » [1] ، ويسميه تارة أخرى « بوسليك رئيس الكتّاب ومدبّر الحدود » [2] ، وتارة ثالثة « مدبر الجمهور » [3] . أما المعلم نقولا ترك فيطلق عليه « بوسلج مدبّر الحدود فى مشيخة الفرنساوية » [4] ، وقـــد تفتق ذهن هـــذا الفـــرنسى عن وضع عدة مشروعات مالية ، منها ما يتصل بفرض ضرائب جديدة على التركات والعقارات والهبات والمبايعات والإشهادات ، وعلى السفر من مكان إلى آخر ، وتسجيل المواليد ، وكان يطلق على العملية الأخـــيرة : « إثبات الحياة » ، وتسجيل عقود الملكية ، والمؤاجرات وما إلى ذلك ، ولكى

---

(١) الجبرتى ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٢٨ .

والروزنامجى هو المدير العام لديوان الروزنامة ، وكانت مهمة هذا الديوان إبان الحكم العثمانى جمع الأموال الأميرية ، وصرفها فى وجوهها المقررة ، تحت إشراف الديوان الدفترى .

(٢) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٩٠ .

(٣) المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٩٢ .

(٤) مذكرات نقولا ترك ، نشر وترجمة وتعليق الأستاذ ڤيت ، ص ٦٥ ، ويلاحظ أن نقولا ترك يذكره فى مواضع أخرى بحرف الكاف ، فيقول بوسلك (ص ٦٧) .

ويلاحظ الخلط الذى وقـــع فى كتاب الجبرتى ، فأحيانا (ص ٢٨) تظهـــر عبارة (مـــدير الحـــدود) بحرف الياء فى كلمة مدير . وأحيانا أخـــرى (ص ٩٠) تظهر بحرف الباء . أما نقولا ترك فيذكره دائماً مدبر الحدود بحرف الباء . ونجم عن هذا الخلط أن ظهرت هذه العبارة فى المراجع الفرنسية تارة بمعنى مدير الحدود Directeur des Frontières

أو

Commissaire pour la délimitation des frontières.

انظـــر :

Desgranges; Histoire de l'Expédition des Français en Egypte par Nakoula - el - Turk, Paris, 1839, p. 140, et. pp. 150- 151.

وظهرت تارة أخرى بمعنى مدبر الحدود .

Régulateur des Limites.

انظـــر :

Deny; ouvr. cit., pp. 137 - 138.

يضفى على التشريعات المـــالية الجديدة صفة شرعية جمع بونابرت فى العاصمة منذ الأسبوع الأول من أكتوبر ١٧٩٨ مجلساً أطلق عليه الديوان العـــام ، أو « الديوان العمومى » ، ضم علماء وأعيان القاهرة والإسكندرية ورشيد ودمياط « وبقية البنادر » ، وعرض عليهم مشروعات هذه القوانين ومسائل أخرى. ونجح فى استصدار موافقة الديوان العام على هذه التشريعات ، قبل أن يفض جلساته فى العشرين من أكتوبر ».

تكوين مجلس الثورة

ذكرنا أن بعض علماء الأزهر رأوا ضرورة القيام على الفرنسيين ، وكان المنشور الذى وجهه السلطان العثمانى — سلطان المسلمين — إلى الشعب المصرى بإعلان الجهاد الدينى ضد الفرنسيين ، وكذلك رسائل الجزار باشا وإبراهيم بك ومن إليهم ، بمثابة خطة عمل لعلماء الأزهر . فتكونت فى الجامع الأزهر ، وفى وقت مبكر على صدور التشريعات المـــالية لجنة لقيادة الثورة ، أطلق بونابرت عليها حيناً « مجلس الثوار » Le Conseil de Revoltés [(١)] وحيناً آخر « ديوان المتمردين » : Le Divan des Insurgés [(٢)] ، وحيناً ثالثاً « ديوان الدفاع » Le Divan de Défense [(٣)] ، كما أطلق عليها بعض الفرنسيين اسماً رابعاً هو « اللجنة المتآمرة » Le Comité Conspirateur [(٤)] ، وكان يرأس هـــذه اللجنة أحد علماء الأزهر المرموقين ، وهو الشيخ محمد السادات ، ولقبه الشيخ شمس الدين محمد أبو الأنوار بن عبد الرحمن المعروف بابن عارفين

---

(١) انظر التقرير الذى وضعه بونابرت عن ثورة أكتوبر ، ورفعه إلى حكومة الديركتوار Napoléon 1er; Guerre d'Orient etc., ouvr. cit., t. I. pp. 369 - 371.

(2) Op. cit., p. 250.

(3) Loc. cit.

(4) Reybaud Louis et autres; ouvr. cit., t. IV, p. 139.

سبط بنى الوفاء ، وكان يجمع بين شرف المحتد ومجد العلم ، تولى خلافة آل السادات ومشيخة سجادتهم على عهد على بك الكبير ، أما أعضاء مجلس الثورة فكانوا من علماء الأزهر من غير أعضاء الديوان وأئمة المساجد وبعض المغاربة . وقدر بونابرت عدد أعضاء اللجنة بما يقرب من المـائة ، ويبدو أن بونابرت كان مبالغاً فى هذا التقدير ، لأن التشكيلات الثورية تكون فى العادة محصورة فى نطاق ضيق ، وخصوصاً فى مرحلة الإعداد للثورة . وأخذت اللجنة تخطـط للثورة ، وتدرس الوسائل اللازمة لتحريك الثورة ، واختيار الوقت المنـاسب لإشعالها ، وشراء الأسلحة وإيداعها فى أماكن بعيدة عن عيون الفـرنسيين وعملائهـم :

وقد وضع مجلس الثورة فى اعتباره الاعتماد على التكوين الطائفى لمجتمع القاهرة فى ذلك الوقت ، فقد كان من سمات المجتمع المصرى وجود طوائف الحرف guilds ، وكان شيخ كل طائفة يمارس سلطات واسعة فنيـة وإدارية وتأديبية على أفراد طائفته . وكان علماء الأزهر على صلات وثيقـة بشيوخ الطوائف (١) ، ومن المظاهر المألوفة فى حياة المجتمع القاهرى أن شيوخ بعض الطوائف كانوا يتخذون من المساجد مكاناً مختاراً ، يمارسون فيه

---

(١) كان علماء الأزهر فى العصر العثمانى يعتمدون على شيوخ الطوائف إذا أرادوا تحـريك ثورة شعبية عارمة ضد أمير مملوكى ظلوم ، وكان شيخ الطائفة يحرص الحرص كله على أن يشهد عدد من كبار علماء الأزهر الاحتفالات التى تقيمها طائفته فى شتى المناسبات ، وبخاصة تلك التى تشبه الاحتفالات التى تقام فى الوقت الحاضر ، ويطلق عليها حفلات التخرج . فكانت تقـام احتفالات عندما يرتقى « عريف » إلى مرتبة « معلم » ، ويصبح له الحق فى مزاولة مهنته أو حرفته فى محل مستقل . وكان أحد كبار علماء الأزهر يخطب فى مثل هذا الحفل ، كما كانت « الإجازة » التى تعطى « للمعلم » الجديد من صياغة أحد علماء الأزهر ، وكان يغلب عليها الطابع الدينى ، وذكر بعض الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية .

اختصاصاتهم العديدة المتشعبة[١] ، وفى القرن الثـامن عشر حـدث تلاحم شديد بين رؤساء ثلاث هيئات : علماء الأزهر ، وشيوخ طوائف التجار والحرف ، وأرباب الطرق الصوفية[٢] ، وكان هذا التلاحم نتيجة طبيعية لتدهور نظم الحكم العثمانى من جهة ، وللمظالم التى انهالت على الجماهير الكادحة من جهة أخرى ، وكان الجامع الأزهر هو ملتقى هذه القيادات ، وفى ظـل هذه الأوضاع حدثت اتصالات مسبقة بين مجلس الثورة وبين شيوخ الطوائف كى يصدر كل شيخ التعليمات إلى أفراد طائفته ، إما بإغلاق محلاتهم عنـد صـدور أول إشارة ، وإما بالامتناع عن العمل إذا لم يكونوا من أصحاب المحلات ، وأن يكون الجامع الأزهر هو مكان التجمع :

ولجأ مجلس الثورة إلى تعبئة الشعور الدينى ضد الفرنسيين ، وكان مؤذنو المساجد من بين الذين اعتمد عليهم المجلس فى هذا المجال ، وأخذ المؤذنون يحرضون الشعب على القيام على الفرنسيين ، من منارات المساجد خمس مرات فى اليوم مع آذان الصلاة ، فكانت الدعوة إلى الصلاة والدعوة إلى الثـورة تختلطان علناً فى آذان سكان القاهرة . ويقول بونابرت فى مذكراته فى هـذا

---

(1) Ibrahim Salama Dr.; L'Enseignement Islamique en Egypte. Le Caire, 1939, p. 217.

وانظر أيضاً بحث de Chabrol الذى سبقت الإشارة إليه فى هذه الدراسة .

(٢) انظر البحث الـذى تقدمت به الدكتورة عفاف لطفى السيد إلى مؤتمر تاريخ مصر الحديث الذى عقد فى لندن فى أبريل ١٩٦٥ ، وكان عنوان بحثها :

The Role of the "Ulamā" in Egypt during the early nineteenth century.

وانظر على وجه التخصيص الجزء الذى جاء فى بحثها عن مصر فى العصر العثمانى المملـوكى ، بعنوان : Mamluk Egypt

وقد نشر بحثها فى مجلد أبحاث المؤتمر :

Political and Social Change in Modern Egypt. Historical Studies from the Ottoman Conquest to the United Arab Republic; edited by Holt P.M. London, 1968, pp. 264 -280.

الصدد : « إنه من فوق أربعمائة منارة من مساجد القاهرة كانت تنطلق أصوات المؤذنين تطلب من المسلمين القيام على الفرنسيين ، وكان المؤذنون يصفونهم تارة بأنهم أعداء الله ، وتارة أخرى بأنهم غير مؤمنين ، وتارة ثالثة بأنهم كفرة »(1). واعتمد المجلس أيضاً على أئمة المساجد ومقرئيها فى إلهاب المشاعر الدينية لدى الجماهير . كانت خطب الجمعة التى تلقى فى المساجد تدور حول ضرورة الجهاد الدينى ، وكذلك كانت تختار الآيات القرآنية التى يرد فيها ذكر الجهاد ، ليتلوها المقرئون فى المساجد ، سواء قبل صلاة الجمعة أو يومياً ، قبل أداء صلاة العصر .

وكانت حرب الشائعات من الوسائل التى لجأ إليها مجلس الثورة ، لإثارة نفوس المصريين ، تمهيداً لإشعال الثورة فى الوقت المناسب ، وتحريكها جارفة هادرة ، فأذاع أنباء غير صحيحة ، كان بعضها أنباء دينية مثيرة ، تتلخص فى أن بونابرت قرر تنصير جميع المسلمين من سكان القاهرة ، وأنه يعتزم استخدام العنف ضد أى فرد تحدثه نفسه بالاستمساك بالدين الإسلامى . وكان الهدف من إذاعة هذا النوع من الشائعات هو شحن عواطف المصريين الدينية وإشعارهم أن هناك أخطاراً تتهددهم فى عقيدتهم ، مما يحتم عليهم التصدى للفرنسيين . وكان البعض الآخر من الأنباء التى روج لها مجلس الثورة ذا طابع عسكرى ، فأذاع أن الأمير مراد بك رد الفرنسيين فى الصعيد على أعقابهم إلى الجيزة ، وأن الجزار باشا قد عين قائداً عاماً للجيش العثمانى الزاحف على مصر من بلاد الشام ، وأنه وصل فعلا ومعه الأمير إبراهيم بك إلى بلبيس ،

---

(1) Napoléon I^er; Guerre d'Orient. etc., ouvr. cit., t. I. p. 251.

عاصمة مديرية الشرقية فى ذلك الوقت ، وأن جيشاً عثمانياً آخر سوف ينزل إلى الشواطئ المصرية . وكان الهدف من إطلاق هذا النوع من الشائعات هو تأكيد المعانى التى استقرت فى أذهان الشعب المصرى عن ضعف القوات الفرنسية بعد معركة أبى قير البحرية ، وانقطاع الاتصال بين الحملة وبين فرنسا ، ونقص عدد أفراد الجيش يوماً بعد يوم ، ثم تشجيع الجماهير على انتهاز هذه الفرصة التى يحيق فيها الخطر من كل جانب بالقوات الفرنسية كى يقوموا على الفرنسيين . وأضاف مجلس الثورة إلى هذه الشائعات شائعة أخرى هى أن الفرنسيين يستعدون للنجاة بأنفسهم ، وأنهم هدموا أبواب الأزقة ، تمهيداً لنهب البيوت عند رحيلهم :

وكان من بين حرب الشائعات التى لجأ إليها مجلس الثورة ، تشويه سمعة أعضاء الديوان . فأثار دعاة الثورة جواً من الظنون والشكوك حول أعضاء الديوان ، وصوروهم أمام الشعب بمظهر الخونة المارقين ، المتعاونين مع الفرنسيين . وكان الهدف من هذه الشائعة الإساءة إلى مراكزهم بصفتهم الدينية والشعبية ، فلا يستمع شعب القاهرة إلى أية نصيحة من المشايخ علماء الأزهر أعضاء الديوان بالإخلاد إلى السكينة . وقد نجحت هذه الوسيلة ، إذ أخذ الشعب ينظر شذراً إلى أعضاء الديوان ، واهتزت صورتهم فى ذهنه : ويقول بونابرت فى مذكراته إن مجلس الثورة تولى تنظيم الثوار ، وتوزيع العمل الثورى عليهم ، وأخرج الأسلحة من مخابئها ، ولم يترك هذا المجلس صغيرة ولا كبيرة من المسائل التى تكفل نجاح الثورة إلا ناقشها ونظمها :

---

(١) انظر بخصوص حرب الشائعات كلا من :

Napoléon 1er; Guerre d'Orient. ouvr. cit., t. I, pp. 244 - 245.

Reybaud Louis et autres; ouvr. cit., t. IV, pp. 139 - 140.

وأراد الفرنسيون الرد على هذه الشائعات ، بعد أن استفحل أمرها ، وتناقلها الخاص والعام ، فأصدروا منشوراً وجهوه إلى سكان القاهرة كذبوا فيه تكذيباً قاطعاً الأنباء التى تداولتها الألسنة ، وقالوا إن مجىء أحمد باشا الجزار واجتيازه الصحراء أمر من نسج الخيال ، أما نزع البوابات فأمر يخضع للوائح الشرطة ، وأما تسليح القلعة فليس إلا استكمالا لمنشآت عسكرية . وعمد الفرنسيون فى منشورهم إلى تهديد سكان القاهرة بتذكيرهم بما حدث فى معركة إمبابة من سحق قوات المماليك : ويقرر بونابرت أن هذا المنشور جاء بنتيجة عكسية ، لأن دعاة الثورة أذاعوا أن الفرنسيين خائفون ، فازداد سكان القاهرة عداء للفرنسيين ، واستخفافاً بهم (1) :

مجلس الثورة يحدد ساعة الصفر

وفى مساء السبت ٢٠ أكتوبر اجتمع فى الجامع الأزهر ثلاثون من أعضاء مجلس الثورة ، وعدد من رسل المماليك ، ولم يكن اجتماعهم ليثير شكوك الفرنسيين ، لأن الاجتماع يتم فى المسجد ، وتقام فيه شعائر الصلاة بانتظام ، والفترة التى اجتمعوا فيها تقع بين موعد صلاة المغرب وموعد صلاة العشاء ، وهى لا تزيد عن ساعة ونصف ساعة ، وكثير من المسلمين يفضلون البقاء فى المسجد بعد أداء صلاة المغرب ، انتظاراً لحلول موعد صلاة العشاء ، فيؤدونها قبل أن يعودوا إلى بيوتهم . واستقر رأى المجتمعين على إشعال الثورة فى صباح الأحد ٢١ أكتوبر ، وأن يكون أول مظهرها إغلاق الحوانيت ، ودعوة التجار والصناع والحرفيين وغيرهم إلى التوجه فى هذا الوقت المحدد إلى الجامع الأزهر ، حيث تبدأ المسيرة الشعبية إلى القيادة العامة للجيش الفرنسى فى الأزبكية ، بحجة التظلم من فرض النظام الضريبى الجديد الذى صدرت به التشريعات المالية فى اليوم السابق (٢٠ أكتوبر) ، وقد وضع

(1) Napoléon 1er; Guerre d'Orient, etc., ouvr. cit., t. I, p 251.

أعضاء مجلس الثورة فى حسابهم أن يكون اجتماع هذه الحشود ومسيرتها فى شوارع القاهرة ، مقدمة لإحداث الشغب ، والإخلال بالأمن ، مما يتيح الجو المناسب لإشعال الثورة . وعلى هذا النحو اتخذ دعاة الثورة من التشريعات المالية شرارة أوقدوا بها ثورة عارمة ، كانت بواعثها الدينية قد اختمرت فى نفوس سكان القاهرة ، وحولتها إلى عداء دينى متأجج ضد الحكم الفرنسى. ويلاحظ أن العوامل المشجعة ، والعوامل المساعدة ، التى سبق أن استعرضنا طرفاً منها ، يجب ألا تحجب حقيقة ثورة القاهرة فى أكتوبر ١٧٩٨ ، فهى فى لحمتها وسداها ثورة دينية ، انبثقت عن سبب رئيسى دينى ، وسنعود لمناقشة الطابع الدينى لهذه الثورة فى موطن قادم من هذه الدراسة .

أربع حقائق عن بداية الثورة

وهناك عدة حقائق تفرض نفسها فرضاً فى هذا الموقف ، نذكرمنها :

أولا : إن التلاحق السريع بين إقرار التشريعات المالية فى ٢٠ أكتوبر وبين اندلاع الثورة فى صباح ٢١ أكتوبر ، دليل على أن مجلس الثورة كان يعد لها فى داخل الأزهر التدابير منذ زمن سابق على صدور التشريعات المالية، وأن غالبية سكان القاهرة المسلمين كانوا على علم مسبق بأمر الثورة ، ومن ثم كانت الاستجابة السريعة لأول نداء دينى يذاع فى شوارع القاهرة بتحديد بدء الجهاد ضد الفرنسيين ، والانتصار لدين الإسلام . يقول نقولا ترك : « وكان أغلب أهل البلد عندهم ألاس بذلك (١) .... ففى الحين والساعة قفلت البلد (٢) » .

ثانيا : إن الاتصالات المسبقة بين بعض أعضاء المجلس وبين شيوخ الطوائف ، جاءت بالنتيجة المرتجاة ، فقد كان الأزهر يموج بالحشود الشعبية فى ساعة الصفر .

(١) ترجم الأستاذ فييت كلمة « ألاس » على هذا النحو :

"La plupart des habitants étaient au courant."

كان غالبية السكان على علم بها ، أى بالثورة .

p. 41 (trad. fr.)

(٢) مذكرات نقولا ترك ، النص العربى ، ص ٢٨ من الأصل العربى .

ثالثا : إن التشريعات المــالية لم تمس إلا مصالح الموسرين من أهل القاهرة. وهؤلاء لم يسهموا إسهاماً فعالا فى وقائع الثورة ، أما العامة والسوقة — أو الحرافيش — بمصطلح ذلك العصر — والذين كانوا وقود الثــورة ، فلم تلحق التشريعات المــالية بهم أضراراً تذكر .

رابعا : إن الثوار لم يصبوا جام غضبهم فى أثنــاء ثورتهم على أعضاء « الديوان العمومى » الذين أقروا مشروعات القوانين المــالية ، بل اتجــه نشاطهم الثورى ضد الفرنسيين ، وبعض الأجانب المستوطنين فى مصر ممن انضموا صراحة إلى الفرنسيين :

كان الفرنسيون يتوقعون قيام القاهرة بالثورة

يقرر بعض الباحثين أن الفرنسيين لم يتوقعوا نشوب ثورة فى القــاهرة ، ويستند هــذا الفريق من الباحثين إلى واقعتين : أولاهما أن بونابرت غادر القاهرة فى الصباح المبكر من يوم الأحد الحادى والعشرين من أكتوبر ، وذهب فى صحبة جماعة من كبار قادة الجيش إلى جزيرة الروضة ، وتفقــد ترسانة الجيزة ، وأنه لو كان يتوقع قيام الثورة ، لظل فى القاهرة. وثانيتهما أن الجنرال ديبوى Dupuy الحاكم العسكرى لمدينة القاهرة اســتخف بالثورة عند نشوبها ، وانتقل إلى مكان الاضطرابات الشعبية ، دون أن ترافقه قوة عسكرية كافية ، فكان أن لقى مصرعه فى أول مواجهة مع الثورة :

والواقع أن الفرنسيين كانوا يتوقعون من يوم لآخر اندلاع الثورة فى القاهرة ، ولكنهم كانوا يجهلون ساعة الصفر ، أى لم يكونوا يعلمون توقيت قيامها ، والأدلة على ذلك التوقع متوفرة ، نستقيها من الأوامر الرسمية التى أصدرهــا بونابرت تباعاً قبل نشوب الثورة ، ومن مذكراته ، ومن يوميات الجبرتى ، ومن كتابات المؤرخين المعاصرين لأحداث الثورة . ويفهم من هذه المصادر العديدة أن السلطات الفرنسية قــد اتخذت تدابير أمن مشددة ، وإجراءات

عسكرية ، وأخرى مدنية وقائية . وكان اتخاذ هـــذه الإجراءات دليلا على شعور الفرنسيين بأن نذر الثورة تتجمع فى سماء القاهرة ، واتسم بعض هذه التدابير بطابع العنف الذى وصل إلى حد إزهاق الأرواح :

أصدر بونابرت قبيل نشوب ثورة القاهرة أوامر بتسليح القاهرة بصفة عامة ، وقلعة الجبل بصفة خاصة . وإن مما يلفت نظر الباحث كثرة عدد هذه الأوامر وتلاحقها . وكان من بين هذه الأوامر أمر مؤرخ فى الخامس من أغسطس ١٧٩٨ إلى الجنرال كافاريلى قائد سلاح المهندسين بتسليح القلعة[١] ، وأمر مؤرخ فى السابع والعشرين من سبتمبر إلى الجنرال برتية رئيس أركان حرب الجيش يطلب منـــه موافاته بمعلومات عن القلعة وتسليحها[٢] ، وأمر مؤرخ فى الثامن والعشرين من سبتمبر إلى كافاريلى بأن يكون فى القلعة خمسمائة رجل بصفة دائمة ، يخصصون لأعمال التحصينات[٣] ، وأمر مؤرخ فى التاسع من أكتوبر بإنشاء بطارية مدفعيـــة فى جزيرة الروضة[٤] ، وأمر مؤرخ فى الثـــانى عشر من أكتوبر إلى كافاريلى بضرورة الإسراع فى أعمال التحصينات فى مدينة القاهرة

---

(١) وثيقة رقم ٢٩٧٨ — بتاريخ ١٨ من شهر ترميدور من السنة السادسة من التقويم الجمهورى ، فى Correspondance de Napoléon, t. IV.

(٢) وثيقة رقم ٣٣٩١ — بتاريخ ٦ من شهر ڤانديمير من السنة السابعة من التقويم الجمهورى فى الجـــزء الخامس من المصدر السابق .

(٣) وثيقة رقم ٣٣٩٤ — بتاريخ ٧ من شهر ڤانديمير من السنة السابعة من التقويم الجمهورى فى الجـــزء الخامس من المصدر السابق .

(٤) وثيقة رقم ٣٤٤٥ — بتاريخ ١٨ من شهر ڤانديمير من السنة السابعة من التقويم الجمهورى فى الجـــزء الخامس من المصدر السابق .

ومما يذكر أن بونابرت أصدر أمراً بتاريخ ١٨ ڤانديمير من السنة السابعة (٩ من أكتوبر ١٧٩٨) إلى پوسيلج Poussielgue بأن تكون كل جزيرة الروضـــة ملكاً للجمهورية الفرنسية ، وأن يستولى على جميع الدور والمبانى القائمة بها ، وأن يقيم منشآت عسكرية فى الجزيرة .

انظـــر :

الوثيقة رقم ٣٤٥٠ — فى الجزء الخامس من المصدر السابق .

حتى يمكن الفراغ من هذه الأعمال فى أسرع وقت[١]، وفى المذكرات التى أملاها بونابرت فى منفاه بجزيرة سانت هيلانة قرر أن الفرنسيين اشتغلوا ليلا ونهاراً فى أعمال التحصينات، وهدموا عدداً كبيراً من المنازل ومسجداً، وأقاموا مكانه بطارية مدفعية[٢].

والدراسة الدقيقة للأحداث التى كتبها الجبرتى، وهو يسجل يوميات شهر ربيع الآخر سنة ١٢١٣ تكشف عن تدابير الأمن والإجراءات العسكرية التى اتخذها الفرنسيون فى خلال هذا الشهر الذى انتهى قبل نشوب الثورة بعشرة أيام (١٢ سبتمبر — ١٠ أكتوبر ١٧٩٨)، وكان هذا الشهر حافلا بالأحداث حتى كادت تضيع فى زحمتها تلك التدابير والإجراءات، ونستخلص من دراستنا ليوميات الجبرتى أربعة مظاهر:

١ — اتجاه الفرنسيين إلى ترحيل المغاربة من مصر:

استشعر الفرنسيون الخطر من وجود عناصر إسلامية غير مصرية فى مدينة القاهرة، واتجهت أنظارهم إلى المغاربة، واستقر رأى السلطات الفرنسية على أنهم عنصر غير مرغوب فى تواجده، فطلبت من المغاربة فى منتصف شهر ربيع آخر ١٢١٣ (حوالى ٢٦ سبتمبر ١٧٩٨) مغادرة الديار المصرية كلية، وأمهلتهم ثلاثة أيام للرحيل، ثم مدت لهم المهلة أربعاً وعشرين ساعة. وذهب وفد من المغاربة إلى بونابرت، وشرحوا له تعذر رحيلهم، لأن الطريق البحرى مغلق بسبب الحصار الذى فرضه الأسطول البريطانى على شواطئ مصر، وأما الطريق البرى فقد وقفت فيه حركة سفر القوافل التى تسير على

---

(١) وثيقة رقم ٣٤٥٥ بتاريخ ٢١ من شهر فانديمير من السنة السابعة من التقويم الجمهورى، فى الجزء الخامس من المصدر السابق.

(2) Napoléon 1er; Guerre d'Orient, etc., ouvr. cit., t. I, p. 245.

الشريط الساحلى ، وأضافوا إلى ذلك أنه يتعذر عليهم الرحيل من القــاهرة ، والإقامة فى الإسكندرية لارتفاع أسعار المعيشة فيها نسبياً عن مثيلاتها بالقاهرة ، وعدم توفر ماء الشرب فيها . وقد صرف بونابرت النظر عن ترحيلهم [(١)].

ب — إخراج سكان القلعة :

أخرج الفرنسيون سكان القلعة من منازلهم ، وأنزلوهم إلى المدينة ، وأخذ هؤلاء السكان يبحثون عن مساكن لهم ، بينما شرع الفرنسيون فى إقامة تحصينات عسكرية فى القلعة ، وأقاموا فيها مدفعية ثقيلة . يقول الجبرتى : إن الفرنسيين « أمروا سكان القلعة بالخروج من منازلهم ، والنزول إلى المدينة ، ليسكنوا بها فنزلوا ، وأصعدوا إلى القلعة مدافع ركزوها بعدة مواضع ، وهدموا بهــا أبنية كثيرة ، وشرعوا فى بناء حيطان وكرانك وأسوار ، وهدموا أبنية عالية وأعلوا مواضع منخفضة ، وبنوا على بدنات [(٢)] باب العزب [(٣)] بالرميلة ، وغيروا معالمها ، وأبدلوا محاسنها ، ومحوا ما كان بهــا من معالم السلاطين ، وآثار الحكماء والعظماء » [(٤)].

ج — قتل رسل المماليك :

لاحظ الفرنسيون أن الاتصالات قد نشطت بين رجال الدولة العثمانية فى بلاد الشام وبين رجال الأزهر ، فقبضوا على اثنين من الرسل الذين يعملون

---

(١) الجبرتى ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ١٩ .

(٢) بدنات معناها جوانب ، أو حواف ، أو كتل حجرية .

(٣) باب العزب موجود بقلعة الجبل ، وهو يطل على ميدان صلاح الدين ، وكان يعــرف باسم باب « السلسلة » أو « باب الاصطبل » ، وله بدنتان ضخمتان ، وقد جدده الأمير رضوان كتخدا الجلفى سنة ١٧٤٧ ، ثم أقيم الممر الذى أمامه سنة ١٨٦٨ ، والداخل منه يقابله مسجد أحمد كتخدا عزبان .

انظــر :

دكتور عبد الرحمن زكى : موسوعة مدينة القاهرة فى ألف عام ، القاهرة ، ١٩٦٩ ، ص ٢٢ .

(٤) الجبرتى ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٢٠ .

فى نقل المكاتبات ، وأمروا بإعدامهما ، وبأن يطاف برأسيهما فى شوارع القاهرة ، مهددين متوعدين كل من تسول له نفسه إحضار مكاتبات من الخارج ، أو نقل الردود عليها . يقول الجبرتى فى سياق استعراضه لأحداث ذلك الشهر إن الفرنسيين « قتلوا شخصين وطاقوا برءوسهما ، وهم ينادون عليهما ويقولون : هذا جزاء من يأتى بمكاتيب من عند المماليك ، ويذهب إليهم بمكاتيب » (١) .

الأمر بعدم استضافة الأغراب

أصدر الفرنسيون أوامر إلى سكان القاهرة بألا يستضيفوا فى منازلهم أحداً من « الأغراب » ، وبمقتضى هذه الأوامر أيضا كان على القاهريين أن يخطروا أغات مستحفظان — أى محافظ القاهرة — بأسماء الراغبين فى السفر ، على ألا يسمح لأحد بالرحيل بدون حصوله على إذن من المحافظ (٢) .

الفرنسيون يجهلون ساعة الصفر

وعلى الرغم من أن الفرنسيين كانوا يتوقعون نشوب ثورة فى القاهرة ، وكانت بعض مدن الوجه البحرى قد سبقت القاهرة فى القيام على الفرنسيين ، فإنهم كانوا يجهلون تماما ساعة الصفر . وكان جهلهم بها دليلا على براعة أعضاء مجلس الثورة ، فإنهم أخفوا التخطيط والتوقيت للثورة ، ولم يتيحوا للسلطات الفرنسية الفرصة لضرب الثورة فى مهدها ، واعتقال زعمائها من

---

(١) المصدر السابق ، ص ٢١ ، وفى الأوامر الصادرة عن بونابرت نجد أمراً مؤرخاً فى ٢٧ سبتمبر ١٧٩٨ إلى جنرال ديبوى حاكم القاهرة العسكرى بقطع رأس جاسوسين ، والطواف برأسيهما فى شوارع القاهرة .

وثيقة رقم ٣٣٩٢ : — بتاريخ ٦ من شهر فانديير من السنة السابعة من التقويم الجمهورى فى :
Correspondance de Napoléon, t. V.

(٢) الجبرتى ج ٣ ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢٢ .

أول لحظة ، ولذلك نجحوا فى تجنيب الثورة عوامل الفشل الأولى ، وكم من ثورات لم تر النور بسبب تسرب أخبارها قبل قيامها . كان بونابرت قد غادر القاهرة فى شروق ذلك اليوم إلى الجيزة والروضة ، وصحب معه بعض كبار القادة ، وكان من بينهم الجنرال كافاريلى Caffarelli قائد سلاح المهندسين ، والجنرال دومارتا Dommartin قائد سلاح المدفعية ، والكولونيل ديتروا Detroye أركان حرب سلاح المهندسين ، وقد قرر بونابرت فى مذكراته أنه ذهب لزيارة ترسانة الجيزة ، وأخذت المصادر والمراجع الفرنسية بهذا التفسير أو التبرير ، لتغطية موقفه وموقف زملائه :

عرض سريع لأحداث الثورة

ولنمر مروراً سريعاً على أحداث الثورة التى بدأت وفق التخطيط الذى وضعته لجنة الثورة ، ففى الصباح الباكر من يوم الأحد ٢١ أكتوبر ١٧٩٨ انطلق رجال الأزهر — شيوخه وطلابه — فى شوارع منطقة الأزهر يتنادون إلى الثورة ، ويلهبون مشاعر الأهالى بخطبهم الحماسية ، ويدعونهم إلى الجهاد الدينى ضد الفرنسيين ، ويطالبون منهم التجمع فى الجامع الأزهر ، وصعد المؤذنون إلى مآذن المساجد يدعون المسلمين إلى المشاركة فى حماية الدين بالقيام على الفرنسيين [1] ، ووقفت النساء على سطوح المنازل ، وعند طيقان البيوت ، يطلقن بأعلى أصواتهن صيحات مدوية ، تعبيراً عن مشاعر الغضب على الفرنسيين ، فكانت أصواتهن تبعث فى سكان القاهرة مزيداً من الرغبة فى التحرك والانضمام

(١) يقول لاجونكير : إن تجمعات الجماهير بدأت فى الساعة السادسة من صباح يوم الأحد ٢١ أكتوبر .
انظر :

da La Jonquière; ouvr. cit., t. III, p. 279·

إلى ركب الثوار ، وسرعان ما ظهرت فى أيدى أفراد الشعب الأسلحة التى كانت محجوبة عن الأنظار ، وغدت منطقة الأزهر تموج بحشود شعبية من الثوار ، حاملين مختلف الأسلحة ، مثل البنادق والرماح والسيوف والنبابيت ، وغيرها . ويصف ريبو هـذه الحال فيقول : « سادت الجلبة ، واختلطت الأصوات ، وعلت الصيحات . فكان هذا المنظر يبعث الرهبة فى نفـوس أشجع الأفراد ، ولم يعد هناك شك فى أن الثورة قد بدأت[١] » ، ويمضى فيقول إن الذين احتشدوا فى الجامع الأزهر ، وفى ساحته بلغ عددهم خمسة عشر ألف شخص ، فاض بهم الحماس ، فأقسموا الأيمان على إحراز النصر أو الاستشهاد فى سبيل الله .

اتجهت جموع من الثوار إلى دار قاضى القضاة العثمانى إبراهيم أدهم أفندى[٢] ، وقد وصفه بونابرت بأنه رجل محترم بأخلاقه وصفاته[٣] ، ودخل الدار وفـد يتكون من عشرين فرداً تقريباً[٤] ، وكان على رأس الوفد السيد بدر المقدسى — يقـال إنه رجل شامى الأصل من بيت المقدس[٥] — وطلب أعضاء الوفد من قاضى القضاة مرافقتهم إلى مقر القيادة العامة للجيش الفرنسى لمقابلة بونابرت ، والتظلم من التشريعات المـالية ، واستجاب الرجل لرغبتهم ، ولكنه لم يكد يغادر عتبة داره حتى هالته كثرة الحشود الشعبية ، وانطلقت هتافات الجماهير : « إلى بونابرت » ، « ليذهب القاضى إلى بونابرت » ، وأدرك القاضى أن المسألة

---

(1) Reybaud Louis et autres; ouvr, cit., t. IV. P 167.

(٢) يسميه الجبرتى بقمش زاده (ج ٣ ، ص ٤٣) ، وكان يطلق على قاضى القضاة العثمانى فى مصر : قاضى عسكر أفندى .

(٣) انظر التقرير الذى وضعه بونابرت فى ٦ من برومير من السنة السابعة من التقويم الجمهورى (٢٧ أكتوبر ١٧٩٨) عن ثورة القاهرة ، وقد سبق أن أشرنا إلى هذا التقرير .

(4) Reybaud Louis et autres; ouvr. cit., t IV. P.156

(٥) أحمد حافظ عوض ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٤٢ .

ليست إبلاغ شكوى إلى بونابرت من تشريعات مالية جائرة ، بل هى أعمق من ذلك بكثير : إنها ثورة هادرة ، وإن مطالبته بالخروج مع الثوار ليست إلا حيلة لضمه إليهم ابتغاء استدراج شتى الطوائف إلى هذه المسيرة الشعبية ، وتحويلها إلى ثورة عارمة ، وإضفاء طابع رسمى عليهـــا ، يكسبها مزيداً من الأهمية ، فعاد إبراهيم أدهم إلى داره وهجم عليه الثوار ورجموه بالحجارة ، وأوسعوه ضرباً مع أفراد أسرته ، وتسللت بعض العناصر من الثوار ، ونهبت داره .

مقتل الحاكم العسكرى لمنطقة القاهرة

علم الجنرال ديبوى Dupuy الحاكم العسكرى لمنطقة القاهرة بأنباء الحشود الشعبية فى منطقة الأزهر ، فأصدر الأمر إلى القوات المرابطة فى بركة الفيل ، برفع الاســتعداد إلى الدرجة القصوى ، وقرر الانتقال إلى منطقـــة الاضطرابات ، فتحرك على رأس كتيبة من الفرسان ، واتجه إلى الموسكى ، فى طريقه إلى الغورية ، وأراد أن يعرج على بيت القاضى . وكانت شوارع القاهرة فى القرن الثامن عشر ضيقة قصيرة متعرجة ،وكانت أقرب إلى الأزقة والعطف ، منها إلى الشوارع الفسيحة المستقيمة الطويلة ، التى شاهدت القاهرة بعضاً منها فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر . وقد سهل على الثـــوار الإحاطة بالجنرال ديبوى فى مثل هذه الشوارع الضيقة ، وقطعوا الطـــريق عليه ، وأمطروه هو وفرسانه وابلا من الأحجار . وفى هـــذا الوقت جاء برتلمى اليونانى — أو فرط الرمان — فى كوكبة من رجاله ، وأطلق عيـــاراً نارياً قتل أحد الثوار ، فازداد هياجهم ، واسترخصوا الموت فى سبيل النيل من الفرنسيين ، وأصابوا الجنرال ديبوى بطعنة رمح فى ثديه الأيسر ، قطعت

شريانه ، وأخفقت المحاولات التى بذلها لارى Larrey كبير الجراحين فى الجيش لإنقاذ حياته ، ففاضت روحه بعد ثمانى دقائق من إصابته [١].

ومن المسائل التى تلفت نظر الباحث أن بونابرت تجنب أن يذكر اسم برتلمى اليونانى ، وذلك فى التقرير الذى وضعه ورفعه إلى حكومة الديركتوار عن ثورة القاهرة ، كما تحاشى فى ذات التقرير أن يذكر الوظيفة التى كان يشغلها ، وعمد أيضاً إلى تبرير فعلة هذا اليونانى القبيح [٢].

الثوار يهاجمون دار قائد سلاح المهندسين

انتشر بسرعة نبأ مصرع ديبوى ، وزادت حماسة الثوار ، واعتقدوا أنهم — وقد قتلوا حاكم القاهرة — فقد غدا أمراً ميسوراً قتل سائر القواد والجنود بعد هذا النصر الذى أحرزته الثورة فى جولتها الأولى . ولم يكن الجنرال ديبوى هو الضحية الوحيدة ، فقد قرر الكولونيل ديترو أن الثوار قتلوا عدداً

---

(١) كان مقتل الجنرال ديبوى على هذا النحو مدعاة لأن يرميه الجنرال برتيه رئيس هيئة أركان حرب الجيش الفرنسى بالرعونة والاندفاع ، دون اتخاذ احتياطات كافية .

انظر خطابين أرسلهما الجنرال برتيه : الأول بتاريخ ٢١ أكتوبر إلى الجنرال مينو فى رشيد ، والثانى بتاريخ ٢٣ أكتوبر إلى الجنرال دجوا Dugua فى المنصورة

La Jonquière, ouvr. cit., t. III, pp. 285 - 286.

(٢) جاء فى تقرير بونابرت عن هذه الواقعة ما يلى :

«Un chef de bataillon turc, attaché à la police, qui venait deux cents pas dèrrière, voyant le tumulte et l'impossibilité de le faire cesser par la douceur, tira un coup de tromblon. La populace devint furieuse.»

ومعنى هذه العبارة أن قائد كتيبة تركية ملحق بقوة الشرطة كان يقف على مسافة مائتى خطوة خلف ديبوى ، وأن هذا القائد رأى حوادث الشغب ، واستحال عليه تهدئة الموقف بالحسنى ، فأطلق عياراً نارياً ، الأمر الذى أثار غضب الجماهير ، وجعلها فى حالة هياج شديد عاصف .

وواضح من عبارة بونابرت أنه تجنب ذكر اسم برتلمى ، وتحاشى اسم الوظيفة التى كان يشغلها ، وهى كتخدا مستحفظان ، أى وكيل محافظة القاهرة ، ولم يذكر أنه يونانى ، ولم يذكر أن تهوره كان سبباً فى ازدياد هياج الشعب ، وقتل الجنرال ديبوى .

كبيراً من الجنود الذين كانوا فى كتيبة الجنرال القتيل . ويقول بونابرت إن زعماء الثورة قد عملوا بعد مقتل ديبوى على زيادة إشعال العاطفة الدينية فى نفوس سكان القاهرة ، فأطلقوا شائعات تقول إن الفرنسيين كشفوا عن وجوههم ، وظهروا على حقيقتهم أعداء للإسلام ، وأنهم يذبحون المسلمين ، وصعد المؤذنون مرة أخرى إلى منارات مساجد القاهرة ، يطلبون من المسلمين حماية مساجدهم .(١)

كانت جموع الثوار تتمثل إلى ذلك الوقت فى الأزهريين رجال الصف الثانى من المشايخ علماء الأزهر والمجاورين ، وهم طلبة الأزهر ، وأئمة المساجد ومؤذنيها ، والدراويش والطبقات الدنيا من العامة ، ويطلق عليهم الحرافيش ، والزعر ، والمغاربة ، ووقف بجانب هؤلاء وأولئك التجار ، والصناع والحرفيون ، ثم انضمت إلى الثوار بعد هذا النصر الأول العناصر الهادئة ، واقتحموا حى الأروام ، وقتلوا الرجال ، واتجهوا إلى دار الجنرال كافاريلى قائد سلاح المهندسين ، وكان يسكن دار مصطفى كاشف بالدرب الأحمر ، وقد ذكره بونابرت فى مذكراته باسم الجنرال دى فالجا(٢) de Falga نسبة إلى مسقط رأسه ، وكان سكان القاهرة يمقتون هذا الضابط مقتاً شديداً ،

---

(1) Napoléon 1er; Guerre d'Orient, etc., ouvr. cit., t. I. p. 249 .

(٢) اسم هذا القائد ماكسيمليان كافاريلى دى فالجا Maximilien Caffarelli de Falga وتقع فالجا فى الحوض الأعلى لنهر الجارون ، وهو من أسرة إيطالية نزحت إلى فرنسا على عهد لويس الثالث عشر (١٦١٠ — ١٦٤٣) ، ويسميه الجبرتى « كفرلى المسمى بأبى خشبة » ، لأنه جاء إلى مصر بقدم طبيعية واحدة ، وأخرى خشبية بعد أن فقد القدم الأخرى فى حصار مايتز Mayence سنة ١٧٩٥ ، وقد قتل فى حصار عكا فى ربيع ١٧٩٩ عن ثلاثة وأربعين عاماً (١٧٥٦–١٧٩٩) ، وقد نعاه بونابرت إلى كليبر وإلى حكومة الديركتوار (انظر =

لأنه هو الذى باشر هدم بعض المساجد والمقابر ، وانتزاع أبواب الحارات . واقتحم الثـوار داره ، ولكنه لم يكن موجوداً بها ، إذ كان قـد صحب بونابرت فى ذلك اليوم إلى الجـيزة والروضة ، وكان غيابه عن داره سبباً فى نجـاته من موت محقق . فأعمل الثوار القتـل فى عدد من العلماء كانوا موجودين فى داره ، ويذكر بونابرت أنهم كانوا خمسة أو ستة أشخاص ، وأن الثوار علقوا رءوسهم على باب الجامع الأزهر (١) . وحطم الثوار الأجهزة العلمية التى وجدوها فى الدار ، فكانت خسارة كبيرة نزلت بالعلم (٢) . يقول الجبرتى : « وكان بتلك الدار شىء كثير من آلات الصنائع والنظارات الغريبة والآلات الفلكية والهندسية ، والعلوم الرياضية ، وغير ذلك مما هو معـدوم النظير ، كل آلة لاقيمة لها عند من يعرف (٣) صنعتها ومنفعتها ، فبدد ذلك كله العامة وكسروه قطعاً ، وصعب ذلك على الفرنسيين جداً ، وقاموا مدة طويلة

= مراسلات نابليون ، ج ٥
الوثيقة رقم ٤١١٠ بتاريخ ٨ من شهرفلوريال Floréal من السنة السابعة من التقويم الجمهورى (٢٧ من أبريل ١٧٩٩) والوثيقة رقم ٤١٢٤ بتاريخ ٢١ من شهرفلوريال (١٠ من مايو ١٧٩٩) على التوالى .

وعلى الرغم من أنه كان موضع تندر جنود الحمـلة ، لأنه كان ذا قدم خشبية ، إلا أنه كان من أكفأ قواد الحمـلة ، وأغزرهم علماً ، وأوفرهم نشاطاً .

(1) Napoléon 1 er ; Guerre d'Orient., etc., ouvr. cit., t. I., p. 249.

وكان من بين القتلى فى دار قائد سلاح المهندسين :

تيڤنو Thevenot ، دوڤال Duval } وهما من مهندسى القناطر والجسور .

تستيڤيود Testeviude } كبير المهندسين الجغرافيين ، وكان فى طريقه إلى دار قائد سلاح المهندسين ، فقتله الثوار فى الطريق .

روسل Roussel ، مانجـا Mangin } جراحان

دوبريه Duperrès رسام .

(٢) انظر تفصيلات عن هجوم الثوار على دار قائد سلاح المهندسين فى :
La Jonquière; ouvr. cit., t. III, pp. 282-283.

(٣) وردت فى النص الأصلى فى كتاب الجبرتى على هذه الصورة ، وهذا خطأ مطبعى ، وصحة العبارة : كل آلة لاقيمة لها عند من لايعرف صنعتها ومنفعتها .

يفحصون عن تلك الآلات ، ويجعلون لمن يأتيهم بها عظيم الجعالات » ، وقد أسرعت قوة من الجيش الفرنسي من القلعة إلى دار قائد سلاح المهندسين ، وحاصرت الدار ، وأطلقت النار على الثوار المزدحمين بالباب الخارجي ، ثم دخل الجنود الدار « وقتلوا من وجدوه بها من المسلمين ، وكانوا جملة كثيرة ، ...... وكان من بين القتلى الشيخ محمد الزهار » [١] .

الثوار يهاجمون الجنود

وكان عدد من الجنود الفرنسيين يسيرون في شوارع القاهرة ولا يحملون أسلحة ، وفوجئوا بالثورة ، فنال الثوار منهم منالا عظيما . وكان من عادة الجنود الفرنسيين التجول في شوارع القاهرة ، دون أن يحملوا معهم سلاحاً . وقد لاحظ اثنان من المعاصرين للحملة هذه الظاهرة ، فقد قرر المعلم نقولا ترك وهو يتكلم عن الفرنسيين في اليوم الأول للثورة ، أنهم كانوا يتجولون بدون أسلحة في شوارع القاهرة ، ولم يقفوا على حقيقة الموقف ، لأنهم كانوا يجهلون اللغة العربية ، مما أدى إلى قتل عدد كبير منهم [٢] . أما الجبرتي فقد ذكر أن الفرنسيين منذ أول يوم دخلوا فيه القاهرة « مشوا في الأسواق بغير سلاح ولا تعديل ، بل صاروا يضاحكون الناس ويشترون مايحتاجون إليه بأغلى ثمن » [٣] ، وكانت هوايتهم المفضلة ركوب الحمير ، وقضاء ساعات طويلة على ظهورها ، وسوقها سوقاً عنيفاً ، « وهم يغنون ويضحكون ويصيحون

---

(١) الجبرتي ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٣١ .

(٢) نقولا ترك ، مرجع سبق ذكره ص ٢٩ النص العربي ، نشر الأستاذ ڤييت .

(٣) الجبرتي ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ١١ .

ويتمسخرون »[١] ، حتى قال فيهم الشيخ حسن العطار[٢] الذى عين فيما بعد شيخاً للأزهـــر :

إن الفرنسيس قد ضاعت دراهمهم   فى مصرنا بين حمّـــار وخمّار

وعن قريب لهم فى الشام مهلكة   يضيع لهم فيها آجال أعمـــار

وكان بعض الفرنسيين المدنيين قد أقاموا عدداً من المطاعم والمقـــاهى ، وأماكن اللهو فى أطراف القاهرة ، فأصبحوا صيداً ثميناً للثوار ، فقتلوهـــم ، ونهبوا دورهم . وسيطر الثوار على القاهرة كلها ، باستثناء ميدان الأزبكية ، وقلعة الجبل ، وبركة الفيل ، حيث كانت ترابط معظم القوات ، وانقطع الاتصال بين هذه المراكز الرئيسية الثلاثة . وانطلق الثوار يهاجمون دوريات الجنود من كل مكان ، وتركت جثث الفرنسيين فى الشوارع[٣] . وكان الجنود يضطرون فى معظم الأحوال إلى التراجع ، ووزع الثوار أنفسهم إلى مجموعات هاجمت مواقع المخافر الفرنســية ، وفتكوا بحراسها . وازداد الثوار ثقـــة بأنفسهم ، وغدا مركز الفرنسيين حرجاً للغاية .

---

(١) المصدر السابق ، ص ٤٤ .

(٢) كان الشيخ حسن العطار أحد علماء الأزهر ، ولمـــا جاءت الحملة الفرنسية آثر الهجرة إلى الصعيد ، ولكنه ما لبث أن عاد إلى القاهرة ، واتصل عن كثب ببعض علماء الحملة ، وقـــدر فيهم تفوقهم العلمى ، وسافر إلى بلاد الشام والأناضول . ولمـــا رجع إلى مصر اشتغل بالتدريس فى الأزهر ، وكانت الحلق التى يتصدرها فى الأزهر تزدحم بالطلاب ، يستمعون إلى دروســـه فى التفسير ، ثم عين شيخاً للأزهر ، خلفاً للشيخ أحمد الدمهوجى سنة ١٢٤٦ هـ (١٨٣٠ م) .

انظر ترجمته فى :

على مبارك : الخطط التوفيقية ، مرجع سبق ذكره ، ج ٤ ، ص ص ٣٨ — ٤٠ ، وتجـــد أيضاً بعض ملامح لشخصيته من الترجمة التى وضعها الجبرتى لصديقه اسماعيل الخشاب فى وفيـــات سنة ١٢٣٠ هـ ، وقد توفى الأخير فى ٢ من ذى الحجة ١٢٣٠ (٥ من نوفمبر ١٨١٥) .

انظـــر :

الجبرتى ، مصدر سبق ذكره ، ج ٤ ، ص ص ٢٣٨ — ٢٤١ .

(3) La Jonquière, ouvr. cit., t. III, p. 279.

استدعاء بونابرت

أرسل الجنرال جونو Junot رسولا إلى بونابرت يخطره باندلاع الثورة ، فعاد إلى القاهرة مسرعاً ، وأراد أن يدخلها مع رفاقه من ناحية مصر القديمة ، فاستحال عليهم دخولها ، لأن الثوار أمطروهم وابلا من الأحجار ، فاتجهوا إلى بولاق ، ومنها دخلوا القاهرة ، ووصلوا إلى مقر القيادة العامة للجيش فى الأزبكية . ووجد بونابرت أن لهيب الثورة قد عم أنحاء القاهرة ، وعلم أن الجامع الأزهر هو مركز الثورة ، وأن الثوار أقاموا المتاريس والحواجز فى الطرقات والأزقة المؤدية إلى الجامع الأزهر ، وأنه غدا من المتعذر أن يقتحمه الجنود ، سواء كانوا مشاة أو فرساناً [(١)] .

اتخذ بونابرت إجراءات سريعة لمواجهة الموقف الذى كان يتطور لمصلحة الثوار ، فعين الجنرال بون Bon حاكماً عسكرياً لمنطقة القاهرة خلفاً للجنرال ديبوى القتيل ، وأصدر أمراً إلى الجنرال دومارتا قائد سلاح المدفعية بنصب المدافع على جبل المقطم ، وتعزيز مدفعية القلعة . وأصدر أوامر متتالية إلى قادة الجيش بالتحرك إلى عدة مواقع فى القاهرة [(٢)] . وتحركت كتائب إلى أحياء القاهرة المتطرفة ، وهناك أطلق جنودها النار على الأهالى ، فردوا عليهم بالمثل . وكانت الطلقات تسمع فى كل مكان ، بين الثوار من ناحية ، وبين الفرنسيين ومن انضم إليهم من الأجانب الذين استوطنوا القاهرة من ناحية أخرى .

---

(1) Op. cit., p. 280.

(٢) انظر على سبيل المثال الوثائق ذات الأرقام التالية ، ٣٥٢٠ ، ٣٥٢١ ، ٣٥٢٣ ، وكلها تحمل تاريخا واحداً هو ٣٠ من شهر فانديمير من السنة السابعة من التقويم الجمهورى (٢١ من أكتوبر ١٧٩٨)

Correspondance de Napoléon, t. V.

الأزهر مركز الثورة

نقل رجال المخابرات العسكرية الفرنسية إلى الجنرال بون أن الجامع الأزهر هو موئل زعماء الثورة ، وأنه يضم خمسة عشر ألف ثائر ، يرابطون فى داخله ، وفى ساحته الخارجية ، وفى الأزقة الملاصقة له ، والجهات المجاورة له ، مثل الصنادقية ، وبيت القاضى ، والجمالية ، والنحاسين ، والغورية ، فأرسل إلى بونابرت التقرير الحربى الموجز الآتى :

٣٠ ڤانديمير ، الساعة ١٠ مساء .

« إن مركز الثورة لا يزال فى حى العرب ، حيث يوجد أكبر جامع — الأزهر — ، وقد أقام الثوار متاريس صغيرة فى جميع الشوارع المؤدية إليه : وهذه الشوارع ليست مضاءة على الإطلاق ، وقد تعرضت دورياتنا لطلقات الرصاص برهة . والمعتقد أن هذه الحشود التى تتخذ من هذا الحى مكاناً للتجمع ، لن تتفرق غداً فى الصباح ، وأرى فى هذه الحالة أن تأمروا باتخاذ إجراءات عنيفة جداً » (١) .

---

(١) لم يرد هذا التقرير الحربى فى مجموعة مراسلات بونابرت ، ولكن أورد نصه لاچونكير

"Le foyer de la révolte existe toujours dans le quartier des arabes, où se trouve la plus grande mosquée. Les insurgés ont élevé des petites barricades dans toutes les rues qui aboutissent à ce point. Ces rues ne sont point éclairées. Il n'y à qu'un instant que nos patrouilles y ont été fusillées. Il est à croire que les attroupements, dont ce quartier est le point de ralliement, ne seront point dissipés demain au jour. Je pense que, dans ce cas, vous ordonnerez des mesures très sévères."

انظر :

La Jonquière ; ouvr. cit., t. III, p. 280.

وكان الفرنسيون قد أمضوا سحابة النهار وزلفاً من الليل فى إقامة المدافع على ربى المقطم ، وفى تعزيز مدفعية القلعة ، وانتقل الجنرال دومارتا ليلا إلى هاتين المنطقتين ، واختار المواقع التى تنصب عليها المدافع الجديدة . وأصدر إليه رئيس هيئة أركان حرب الجيش أمراً فى منتصف الليل (٢١—٢٢ أكتوبر) بأن يضع بطاريات قوية من المدفعية على المرتفعات الواقعة بين القبة والقلعة ، وكانت هذه المرتفعات تتسلط على منطقة الأزهر (١) ، أما الثوار فقد اهتموا بتعزيز مواقعهم بإقامة مزيد من المتاريس ، والحصول على أسلحة ، وأرسلوا فى المساء رسلا إلى البلاد المجاورة للقاهرة ، يطلبون من سكانها الحضور إلى العاصمة ، والانضمام إلى الثورة . وكانت أحاديثهم تدور حول ضرورة الانتصار للدين الإسلامى الذى يتهدده الفرنسيون . ولقيت دعوة لجنة الثورة استجابة فورية من السكان . وأقبل بعضهم فى ظلمة الليل ، والبعض الآخر مع خيوط الفجر إلى القاهرة ، يحملون البنادق والرماح ، والسيوف والعصى . وكان الثوار لا يزالون يسيطرون على بوابات القاهرة ففتحوها لهم . وعلى هذه الصورة انقضى اليوم الأول بليله ، والفريقان يتأهبان لاستئناف القتال فى اليوم التالى .

الثورة فى يومها الثانى

وفى صباح اليوم التالى ، وهو الاثنين ٢٢ من أكتوبر ، نقل رجال المخابرات العسكرية إلى بونابرت أن المصريين يتدفقون على العاصمة من البلاد المجاورة لها ،

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٨٠ ، الهامش رقم ١ .

وانظر أيضا :

التقرير الذى أرسله بونابرت إلى حكومة الديركتوار عن الثورة بتاريخ ٦ من شهر برومير من السنة السابعة من التقويم الجمهورى (٢٧ أكتوبر ١٧٩٨) ، والذى سبقت الإشارة إليه فى هذه الدراسة .

وينضمون إلى الثوار ، فوجه بعض قواته إلى أطراف المدينة لمنع دخول أحد من خارجها . ونجحت القوات الفرنسية فى صد حشود كثيرة من الأهالى كانوا فى طريقهم إلى القاهرة فى ضحى هذا اليوم ، وبذلك استطاع بونابرت حصر الثورة فى القاهرة ، وعزل ثوارها عن باقى سكان القطر . وكان الأهالى الذين استطاعوا دخولها هم الذين جاءوها ليلا أو فجراً ، ومع ذلك قتل الثوار شخصية عسكرية كبيرة هو الكولونيل سلكووسكى Sulkowski ياور بونابرت ، وكان قد خرج فى الصباح فى شرذمة من حرس القائد العام إلى طريق بلبيس ، ليمنع وصول الأهالى إلى القاهرة ، وبينما كان عائداً إلى العاصمة ، تلقاه ثوار القاهرة عند باب النصر ، والتحموا معه فى معركة بالسلاح الأبيض وقتلوه ، ويقرر بونابرت فى تقريره عن الثورة أن نجاح الثوار فى قتله يرجع إلى عاملين : أن جواده كبا به وطرحه أرضاً ، وأن هذا الضابط كان لايزال يشكو من جراح أصابته فى الصالحية . وقد قتل الثوار تسعة من الحراس الخمسة عشر المرافقين له ، وقد حزن بونابرت عليه حزناً شديداً.[1]

وأدرك ثوار القاهرة أن سلاح المدفعية هو السلاح المفضل لدى الفرنسيين ، وأن هذا السلاح هو الذى كفل لهم الانتصار فى المعارك التى خاضوها ضد المماليك والمصريين ، ولذلك اتجهت جهود الثوار إلى كسر حدة هذا السلاح ، فخرجت جموع منهم قدرها بونابرت فى مذكراته بين سبعة آلاف وثمانية آلاف من باب الفتوح ، واتجهت إلى المرتفعات التى نصبت عليها المدافع ، فصدهم الفرنسيون .

---

(١) كان هذا الضابط بولونى الأصل ، ينحدر من أسرة عريقة ، وكان مناضلا عسكريا من أجل تحرير وطنه الأصلى تحت لواء كوشيسكو Kosciuszko Thadée (١٧٤٦ – ١٨١٧) بطل بولندا . ولما لقى الهزيمة أمام الجيش الروسى تطوع سلكووسكى فى الجيش الفرنسى ، وكان مثاليا ، تغلب عليه المبادئ الراديكالية ، وقد عينه بونابرت ياوراً له تقديراً لكفايته ، كما عينه عضواً فى شعبة الاقتصاد السياسى فى مجمع مصر العلمى .

وصعد فريق من الثوار إلى سطح مسجد السلطان حسن ومناراته لضرب الفرنسيين المرابطين فى القلعة ، والقابعين وراء مدفعيتهم الثقيلة ، فأخفقت محاولتهـــم .

وكانت كتيبة فرنسية تضم قوة من الفرسان ومدفعين، ترابط عند مدخل حارة تؤدى إلى ميدان الأزبكية ، وأدرك الثوار عبث الهجوم عليها هجوماً مباشراً ، فتسلقوا المنازل المجاورة ، واحتلوا مسجداً صغيراً يشرف على موقع الكتيبة ، وأمطروها بوابل من بنادقهم ، وتكبد الفرنسيون خسائر فى أفراد الكتيبة ، ولكن سرعان ما خفت نجـــدة فرنسية واقتحمت المسجد ، وقتلت جميع الثوار المعتصمين به ، ثم قصفت المدفعية المسجد حتى انهارت دعائمه .

الثوار يرفضون وساطة أعضاء الديوان

وفى ضحى هذا اليوم سعى مشايخ الأزهر أعضاء الديوان لمقابلة بونابرت والتمســوا منه إصدار الأمر بوقف القتال. وكانت مقابلته لهـــم فاترة جافة، حمّلهم مسئولية ما حدث ، وتظاهر برغبته فى وقف القتال، ولكنه طلب منهم أن يتصلوا بزعماء الثورة فى الأزهر لإلقاء السلاح كشرط أساسى للتوقف عن ضرب المدينة . ولمـــا ذهب أعضاء الديوان إلى الأزهر رفض الثوار أن يسمحوا لهم بدخول الجامع ، أو حتى تخطى المتاريس المقـــامة فى مداخل الشـــوارع والأزقة المؤدية إلى الجامع . وفشلت وساطتهم ، ومع ذلك أمسك علمـــاء الأزهر عن إبلاغ بونابرت بالإخفاق الذى انتهى إليه مسعاهم . واعتقـــد زعماء الثورة أن السفارة التى قام بها علماء الأزهر أعضاء الديوان لديهم ، قد تمت بإيعاز من بونابرت ، وبنوا على هذا الاعتقاد أفكاراً وآراء روجوا لها بين الثوار ، فأذاعوا أن المركز الحربى للفرنسيين يتدهور سريعاً ، ومن ثم أوعز بونابرت إلى علماء الأزهر ببذل وساطتهم لوقف القتال ، وتلقف الثوار

هذا الرأي على أنه حقيقة لامراء فيها ، وغلب عليهم الحماس ، وأخذوا يتكلمون عن مسيرة ثورية كبرى ، تتحرك من داخل الجامع الأزهر إلى مواقع الفرنسيين في القاهرة ، ويقوم الثوار بذبحهم جميعاً ، ضباطاً وجنوداً (١) .

لم تدم هذه الآمال طويلا ، كان بونابرت قد علم بما لقيه أعضاء الديوان من الثوار ، وأدرك أنه لامناص من استخدام أقسى وسائل العنف لسحق الثورة . واستمر القتال يدور بين الفريقين بضراوة بالغة ، ولكن أخذت كفة الفرنسيين ترجح ، كلما مضت ساعات النهار ، إذ كانوا يمثلون جيشاً نظامياً ، مدرباً على أحدث أساليب القتال ، ومزوداً بالأسلحة والعتاد ، بينما كان الثوار أخلاطاً شتى من الرجال ، لئن جمعتهم وحدة العقيدة الدينية ، وغلبت عليهم الشجاعة والفدائية ، إلا أنهم كانت تعوزهم الأسلحة والذخائر ، وكان ينقصهم التدريب والمران ، ولذلك تغلبت القوات الفرنسية على الثوار في معظم أحياء القاهرة ، وظلت الثورة مشتعلة في حي الأزهر ، وأرسل الجنرال بون الحاكم العسكري لمنطقة القاهرة تقريراً حربياً إلى بونابرت ، يشير عليه باتخاذ وسائل عنيفة للقضاء على الثوار المحتشدين في حي الأزهر ، واقترح عليه توجيه القوات للزحف على الجامع الأزهر من جميع الجهات التي تؤدي إليه ، وهذا هو التقرير الحربي ، وهو مؤرخ في أول بروميير من السنة السابعة من التقويم الجمهوري (٢٢ من أكتوبر) :

« إن الدوريات التي قامت في فجر اليوم باستطلاع الجامع الكبير (الأزهر) أبلغتني أن الهدوء يسود هذا الحي ، ولكن دوريات لاحقة وصلت الآن ، أخبرتني عكس ذلك ، ومن الضروري ، أيها المواطن الجنرال ، اتخاذ إجراءات عنيفة ، لتشتيت الجموع المسلحة التي تتجمع في هذا الحي ، إني في انتظار

(1) Reybaud Louis et autres; ouvr. cit. t. IV, p. 176.

أوامركم ، ومن رأيي أن توجه قوات تزحف على هذا المسجد ، ولكن من الأفضل أن نحمل عليه — بواسطة تحركات مشتركة — من جميع النواحي التي تؤدي إلى الجامع » (1) ؟

بونابرت يأمر بقصف الجامع الأزهر بالمدفعية

أخذ بونابرت باقتراح الجنرال بون ، فأصدر في ذات اليوم إلى الجنرال برتييـه رئيس أركان حرب الجيش أمراً عسكرياً تضمن سرعة اتخاذ أعنف الوسائل لسحق الثورة ، من قصف الجامع بالمدفعية ، وقتل الثوار ، وإحراق المنازل ، واحتلال الجامع بالجنود ، إلى غير ذلك من إجراءات ، وقد أبلغ رئيس أركان حرب الجيش هذا الأمر في الساعة الثانية بعد الظهر إلى الجنرال بون لتنفيذه فوراً ، وهذا هو نص الأمر :

« عهد إليّ القائد العام بأن أبلغكم ، أيها المواطن القائد ، بأن تهاجموا بصفة عاجلة جداً الحي الثائر ، وأن تضربوا الجامع (الأزهر) بالمدافع ، وأن تضعوا المدافع في أفضل موقع ، ليكون الضرب أشد أثراً .

« أصدروا الأمر إلى الجنرال دومارتا بأن يفعل نفس الشيء ، وأن يستولى على مدخل الأزهر ، والمنازل الرئيسية التي تؤدي إلى الجامع ، وعليكم أن

---

(1) Les patrouilles qui ont paru à la pointe du jour à la grande mosquée m'avaient fait le rapport que la tranquillité régnait dans ce quartier; mais des patrouilles postérieures qui viennent de rentrer assurent le contraire..... Il serait essentiel, Citoyen Général, de faire des dispositions rigoureuses pour dissiper les rassemblements armés qui se forment dans ce quartier; mandez-moi vos ordres, j'aurais fait marcher des forces sur cette mosquée, mais il sera mieux de s'y porter par des mouvements combinés sur les différents points qui y aboutissent.....".

La Jonquière, ouvr. cit., t. III. p. 281, note 2.

تقتحموا الجـــامع الأزهر بكتائبكم تحت حماية المدفعية ، وعليكم أن تأمروا الجنرال دومارتا بأن يفعل نفس الشيء فى نفس اللحظة .

« إن القائد العـــام يأمر بقتل كل من تلقونه مسلحاً فى الشوارع ، وأن يكون القتل بحد السنك .

« وعليكم أن تعلنوا الأهالى بأن كل منزل تلقى منه أحجار فى الشارع يحرق فوراً ، وعليكم أن تعفوا عن بقية المنازل .

« وعليكم أن تقتلوا جميع من فى الجامع ، وأن تضعوا فيه حرساً قوياً ، وعليكم أن تحتّموا إنارة المنازل فى أثناء الليل .

« وعليكم أن تصدروا أمراً إلى الجنرال دومارتا بأن يضع ، فى أثنـــاء الليل وفى فجر الغد ، على المرتفعات التى يحتلها قوات رادعة .

« ولمـــا كانت الساعة الآن الثانية ، فليس أمامكم لحظة واحدة تضيعونها .»

Quartier général, 1er brumaire an VII, 2 heures.
Au Général Bon.

Le Général en chef me charge de vous dire, Citoyen général, qu' il est extrèmement urgent d'attaquer le quartier insurgé; faites bombarder la mosquée; placez les obusiers dans l'endroit le plus favorable pour pouvoir faire le plus d'effet.

Faites passer l'ordre au général Dommartin de faire la même chose et de s'emparer de la porte et des principales maisons qui conduisent à la mosquée. Sous la protection de ce feu, vous ferez entrer vos bataillons. Vous ordonnerez au général Dommartin de faire la même chose au même moment.

Le Général en chef ordonne que vous fassiez passer au fil de l'épée tous ceux que l'on rencontrera dans les rues, armés.

Vouz ferez publier que toutes les maisons qui jetteront dans les rues des pierres seront sur - le - champ brûlées, et pardon aux autres.

Exterminez tout ce qui sera dans la mosquée et établissez de fortes patrouilles. Pendant la nuit, exigez que toutes les maisons éclairent.

Vous ordonnerez au général Dommartin que, pendant la nuit et demain à la pointe du jour, il y ait sur les hauteurs qu'il occupe des forces imposantes.

Comme il est deux heures, il n'y a pas un instant à perdre."(1)

قصف الأزهر بالمدفعية

ونفذ هذا الأمر الحربى تنفيذاً صارماً ، وأخذت مدفعية القلعة ومدفعية المقطم ، وسائر بطاريات المدفعية المقامة على المرتفعات تقصف حى الأزهر قصفاً مركزاً متواصلا (٢) . ورغبة فى التنكيل بالثوار ، بحيث يأتيهم المـوت من كل مكان ، ولا يكون أمامهم طريق للنجاة بأنفسهم من الموت المحقق ، احتلت كتائب من الجنود الدروب والطرق المؤدية إلى الجامع ، وبذلك تحصر القوات الفرنسية الثوار فى الأزهر بين نارين : قذائف المدفعيـة ، وطلقات البنادق (٣) . فإذا نجا الثوار من قذائف المدفعية ، فإنهم ملاقون الموت من طلقات بنادق الجنود المشاة ؛ وسرعان ما أصبح الجامع الأزهر وملحقاته ، وشارع الغورية ، وشارع الصنادقية ، أهدافاً لمدفعية الفرنسيين ، وأحدثت القذائف ثقوباً فى جدران المسجد ، حتى أوشك أن يتداعى من شدة الضرب ، ولم يكن يشاهد فى منطقة الأزهر إلا مبان محترقة ، ودور منهارة ، وقد دفنت عائلات

---

(١) الوثيقة رقم ٣٥٢٤ فى الجزء الخامس من
Correspondance de Napoléon.

(٢) يقول ريبو إن قصف المدفعية للأزهر ومنطقته بدأ فى الساعة الرابعة من بعد الظهر . انظـر :
Reybaud Louis et autres; ouvr. cit., t. IV, p. 177.

(3) Loc. cit.

بأكملها تحت الأنقاض ، وكان يسمع لأفرادها أنين موجع ، وأصوات خافتة تنبعث من تحت الأنقاض.[١]

ويقـــول الجبرتى عن قصف المدفعية للأزهر : « إن الفـــرنسيين ضربوا بالمدافع والبنبات[٢] على البيوت والحارات ، وتعمدوا بالخصوص الجامع الأزهر وجرروا عليـــه المدافع والقنبر[٣] ، وكذلك ما جاوره من أماكن المحاربين ، كسوق الغـــورية والفحامين ، فلما سقط عليهـــم ذلك ورأوه ، ولم يكونوا فى عمرهم عاينوه ، نادوا يا سلام من هذه الآلام ، يا خفى الألطاف ، نجنـــا ممـــا نخاف ، وهربوا من كل سوق ، ودخلوا فى الشقوق ، وتتابع الرمى من القلعة والكيمان حتى تزعزعت الأركان ، وهدمت فى مرورها حيطان الدور ، وسقطت فى بعض القصور ، ونزلت فى البيوت والوكائل ، وأصمت الآذان بصوتها الهائل »[٤] .

نفاد الذخيرة من الثوار

وأمام هذا القصف المركز ، تزعزعت جبهة الثوار فى منطقـــة الأزهر ، وأيقنوا أنه لا أمل لهم فى مواصلة النضال ، وقد نفدت منهم الذخيرة ، وازداد عدد قتلاهم زيادة رهيبة ، فطلب البقية الباقية منهم التسليم . ويقرر الجبرتى بصريح العبارة أن نفاد الذخيرة من الثوار حملهم على طلب التسليم ، وكان قد مضى ما يقرب من ثلاث ساعات بعد أن جن الليل[٥] . يقول الجبرتى فى هـــذا

(1) Loc. cit.

(٢) مفردها بنبة ، ومعناها قنبلة .

(٣) القنبر ، وتكتب أيضا قنابر ، بمعنى القنابل .

(٤) الجبرتى ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٢٦ .

(٥) هذا الموعد الذى حدده الجبرتى يقرب من الموعد الذى ذكره مارتا Martin من أن الضرب انتهى فى الساعة الثامنة مساء ، وإذا علمنا أن غروب الشمس فى العشر الأواخر من شهـــر أكتوبر يكون فى حوالى الساعة الخامسة والنصف ، كان معنى ذلك أن توقف القتال قد تم فى حوالى الساعة الثامنة والنصف مساء ، أما ريبو Reybaud فيقول إن الضرب قد توقف فى الساعة السادسة مساء ، ونحن نأخذ بالرأى الأول .

الصدد : « وأما أهل الحسينية ، والعطوف البرانية ، فانهم لم يزالوا مستمرين ، وعلى الرمى والقتال ملازمين ، ولكن خانهم المقصود ، وفرغ منهم البارود ، والإفرنج أثخنوهم بالرمى المتتابع بالقنابر والمدافع ، إلى أن مضى من الليل نحو ثلاث ساعات ، وفرغت من عندهم الأدوات ، فعجزوا عن ذلك ، وانصرفوا »(١) :

فظائع الفرنسيين داخل الأزهر

وعندئذ تقدم الجنود الفرنسيون إلى مواقع المتاريس ، ورفعوها من الدروب والشوارع ، والأزقة المؤدية إلى الجامع الأزهر ، واقتحموه مشاة وفرساناً ، اقتحام الضوارى ، وأعملوا القتل فى بقايا الثوار الذين كانوا معتصمين داخل الجامع .

واتسمت أعمال الجنود بطابعين : هما الانتقام ، ثم النهب والسلب : أما الانتقام ، ففضلا عن المذبحة التى ارتكبوها داخل الأزهر ، ربط الجنود خيولهم فى قبلة المسجد ، وأخذوا يبولون ، ويقضون حاجتهم فى شتى أرجاء الجامع ، وألقوا بالمصاحف على الأرض ، وداسوا عليها بأحذيتهم . أما أعمال النهب والسلب فقد كسروا خزائن الطلبة ، ونهبوا ما وجدوه فيها من الأموال والودائع ، ذات القيمة المادية الكبيرة . وكان سبب وجود هذه الثروات فى الجامع الأزهر اعتقاد المصريين أن الفرنسيين لا يجرؤون على دخوله ، فحولوا إليه ما غلا ثمنه وخف حمله ، وتركوا هذه الثروات ودائع فى خزائن الطلبة ، فوقعت غنيمة باردة فى أيدى الجنود . وكانوا فى شراهتهم للنهب ينشرون الكتب التى فى خزائن الطلبة ، يحدوهم الأمل فى أن يجدوا شيئاً ذا قيمة خلف غلاف الكتاب ، ويقول الشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الجامع

(١) الجبرتى ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٢٦ .

الأزهـر إن اليهـود انتهزوا الفرصـة ، فدخلوا الأزهر فى أثر الجنـود ، واستولوا على مصاحف نفيسة وكتب قيمة [1] . ولم يرع الجنود حرمة الجامع ، فقضوا ليلتهم يشربون الشراب . ويصف الجبرتى حزيناً المشهد الدامى فى تاريخ الأزهر ، وجاءت صياغته لهذا المشهد فى أسلوب مسجع ، أخذ عليه وقتـه وتفكيره ، لأن السجع فى أسلوب الجبرتى قليل نسبياً : « وبعد هجعة من الليل ، دخل الإفرنج المدينة كالسيل ، ومروا فى الأزقة والشوارع ، لا يجدون لهم ممانع ، كأنهم الشياطين ، أو جند إبليس ، وهدموا ما وجدوه من المتاريس ، ودخل طائفة من باب البرقية [2] ، ومشوا إلى الغورية ، وكروا ورجعوا ، وترددوا

(١) عبد الله الشرقاوى : تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من الولاة والسلاطين . القاهرة ، مطبعة بولاق ، ١٢٨٦ هـ (١٨٦٩ - ١٨٧٠) ص ٥٥ .

وتوجد فى دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة عدة طبعات من هذا الكتاب ، نذكر منها :

أ طبعة بولاق السابق الإشارة إليهـا ، والتى نستقى منها المـادة العلمية ، ونشير إليهـا فى هوامش هذه الدراسة ، وتقع فى ستين صفحة ، ورقمها ١٠٥٢ تاريخ .

ب طبعة مصطفى وهبة ١٢٨١ هـ (١٨٦٤ - ١٨٦٥ م) ، وتقع فى ٨٢ صفحة ، وتوجد عدة نسخ من هذه الطبعة تحمل أرقام ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٢٩١٠ ، ٢٩١٤ ، ٢٩١٥ ، ٢٠٦٤ تاريخ .

ج المطبعة العثمانية ١٣٠٤ هـ (١٨٨٦ - ١٨٨٧ م) ، وهـذه الطبعة تقع فى جزءين ، فى مجلدين برقم ٢٠٥٢ تاريخ .

د طبعة على هامش كتاب « أخبار الأول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول (تأليف محمد عبد المعطى بن أبى الفتح بن أحمد بن عبد الغنى بن على الإسحاقى المنوفى ، بأرقام ٤٧٢ ، ٧٣١ ، ٧٠٩ ، ١٢٩٤ ، ١٢٩٥ تاريخ ، طبعة سنة ١٣٠٠ هـ (١٨٨٢ - ١٨٨٣ م) .

(٢) كان هذا الباب خارج حارة البرقية التى اختطها جمـاعة من أهل برقة ، ومكانها الآن الدراسة ، ويقول الأستاذ الدكتور عبد الرحمن زكى إنه كان هناك بابان يعرفان بهذا الاسم ، فى سور القـاهرة الشرقى : الباب الأول أنشأه جوهر الصقلى سنة ٩٧٠ (٣٥٩ هـ) ، وقد عرف باسم باب الغريب أو بوابة الخلاء ، لوقوعه شرقى جامع الغريب ، وقد هدم هذا الباب سنة ١٩٣٦ ، عند إنشاء مبانى الكليات الأزهرية الثلاث ، والباب الثانى أنشأه صلاح الدين سنة ١١٨٤ (٥٦٩ هـ) حينما أراد توسيع القـاهرة من الجهة الشرقية ، وهو يقع على بعد ١٢٠ متراً من الجهـة الشرقية لمبانى جامعة الأزهر بالدراسة .

انظـر :

على مبارك : الخطط التوفيقية ، مصدر سبق ذكره ، ج ١ ، ص ٦ .

دكتور عبد الرحمن زكى : موسوعة مدينة القاهرة فى ألف عام ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٩ .

وما هجعوا ، وعلموا باليقين أن لادافع لهم ولا كمين ، وتراساوا إرسالا ، ركباناً ورجالا ، ثم دخلوا إلى الجامع الأزهر ، وهم راكبون الخيول ، وبينهم المشاة كالوعول ، وتفرقوا بصحنه ومقصورته ، وربطوا خيولهم بقبلتـه ، وعاثوا بالأروقة والحارات ، وكسروا القناديل والسهارات ، وهشموا خزائن الطلبـة ، والمجاورين والكتبة ، ونهبـوا ما وجدوه من المتـاع والأوانى ، والقصاع والودائع ، والمخبآت بالدواليب والخـزانات ، ودشـتوا الكتب والمصاحف ، وعلى الأرض طرحوها ، وبأرجلهم ونعالهم داسوها ، وأحدثوا فيه وتغوطوا ، وبالوا وتمخطوا ، وشربوا الشراب ، وكسروا أوانيـه ، وكسروها بصحنه ونواحيه ، وكل من صادفوه عروه ، ومن ثيابه أخرجوه »[١].

كان ذلك فى ليلة الثلاثاء ٢٢ — ٢٣ من أكتوبر (١٢—١٣ من جمادى الأولى ١٢١٣) ، وباتت القاهرة فى هذه الليلة الدهماء ، فى لجة من الظلام ، ولجـة من الفزع[٢] .

فظائع لايستطاع تبريرها

والباحث المحايد لا يستطيع تبرير أعمال الانتقام التى أقدم عليها الفرنسيون فى الجامع الأزهر . قد يقول البعض إن الجيش الفرنسى كان فى صدد إخماد ثورة عارمة ، قد يمتد لهيبها إلى سائر جهات القطر إذا استطال أمدها ، ممـا كان يتهدد الوجود الفـرنسى فى مصر ، فلا تثريب على الجيش إذا استخدم أقسى وسائل العنف فى ضرب مركز الثورة ، وهو الجامع الأزهر . وهذا القول يبدو فى ظاهره سليما ومنطقياً ، ولكنه فى حقيقة الأمر تبرير واه يتهاوى

(١) الجبرتى ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٢٦ .

(٢) عبد الرحمن الرافعى : تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر . ج ١ ، القاهرة ، ١٩٥٥ ، الطبعة الرابعة ، ص ٢٨٧ .

ويصير إلى هباء أمام النقد الموضوعى . إن المصاحف ليست أهدافاً عسكرية ، حتى يلقى بها الجنود على الأرض ، ويدوسوا عليها دوساً بأحذيتهم ، وكذلك الأعمال المنكرة التى ارتكبها الفرنسيون فى حماقة داخل الجامع ، دون اكتراث لحرمته الدينية ، ودون مراعاة لمكانتــه فى نفوس المسلمين . وإن احتــلال الجامع الأزهــر لم يكن يتطلب ارتكاب مثل هــذه المنكرات والحماقات ، فى أعقاب احتلال الجنود له .

ومما هو جدير بالذكر أن بونابرت — فى تقريره الذى رفعه إلى حكومة الــديركتوار — تجنــب أن يشــير من قــريب أو من بعيــد إلى الأفعــال المنكرة التى ارتكبها الجنود داخل الجامع الأزهر ، واكتفى بأن قال : « وبعد أقل من عشرين دقيقة من قصف المدفعية رفعت المتاريس ، وأخلى حى الأزهر ، وأصبح المسجد فى قبضة قواتنا ، وعاد الهــدوء تماماً إلى حالته السابقة »(1) ، وبونابرت فى هذا التقرير يعمد إلى التهوين من شأن الثورة ، ويختزل المــدة التى استمرت فيها المدفعية تقصف الجامع الأزهر ومنطقته إلى أقل من عشرين دقيقة ، مع أنهــا استطالت عدة ساعات ، ثم هو يغفل تمــاماً فظائع الجنود فى داخل الجامع الأزهر ، وهذا الإغفال المتعمد له مغزاه ، فهو لا يريد أن يسجل على نفسه تناقضاً فى سياســته الإسلامية ، ومن ثم أسقط من تقريره الأفعال المنكرة التى ارتكبها الجنود فى الجامع الأزهر ، فى الوقت الذى حرص على أن ينعى فى تقريره الجنرال ديبوى حاكم القاهرة العسكرى ، والكولونيل سلكوسكى ياوره ، وأن يذكر مناقبهما .

---

1) "En moins de vingt minutes de bombardement les barricades furent levées, le quartier évacué, la mosquée entre les mains de nos troupes, et la tranquillité fut parfaitement rétablie."

Napoléon 1er; Guerre d'Oriente.etc., ouvr. cit., t. I,pp. 369-371.

لم ينس المصريون ما وقع للجامع الأزهر على يد الفرنسيين فى ثورة القاهرة . وكانت هذه الأفعال السبب الأهم فى القطيعة التى وقعت بين الشعب المصرى وبين الفرنسيين ، على الرغم من أن بونابرت مضى فى سياسته الإسلامية بعد إخماد ثورة القاهرة ، ويقول أحد الأساتذة : « وأخيراً تم (الانفصال) بين الفريقين ، لما دخل الفرنسيون الأزهر ، موطن احترامهم ومهبط إيمانهم ، بخيولهم ، وعاثوا فيه فساداً . وعندها تحقق المصريون أن هؤلاء المغيرين شعب آخر من طراز آخر ، غير المماليك أو العثمانيين »[1] . والحق أن الشعب المصرى كان يعلم علماً يقينياً قبل اندلاع الثورة أن الفرنسيين كانوا يختلفون عنه ديناً ولغة وثقافة ، وعادات وتقاليد ، ثم جاءت أفعال الجنود المنكرة فى الأزهر ، فجسدت هذه الفروق فى أذهان الشعب تجسيداً .

بونابرت يأمر بهدم الأزهر ليلا إذا أمكن

كان احتلال الجيش الفرنسى للجامع الأزهر ، والآثام التى ارتكبها الجنود فى داخل الجامع عصفاً بالسياسة الإسلامية التى حرص بونابرت على انتهاجها فى حكمه للشعب المصرى ، منذ أول يوم جاء فيه إلى مصر . وفى تقديرنا يعد هذا التصرف أكبر خطأ عسكرى وسياسى وقع فيه بونابرت حيال الشعب المصرى . والسياسى الحصيف هو الذى يستطيع أن يكبح جماح عواطفه وقت الشدائد ، وخلال الأزمات . وقد عجز بونابرت أن يكون على شاكلة هذا الطراز من رجال السياسة ، فى أثناء الثورة والأيام التى أعقبتها . فقد تملكته فى هذه الفترة رغبة قوية فى الانتقام من الأزهر ، ومن رجال الأزهر ، ومن يلوذ بالأزهر . ولم يقنع بالمحن التى أصابت الأزهر على يديه ،

---

(١) دكتور أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم فى عصر محمد على . القاهرة ، ١٩٣٨ ، ص ٢١ .

بل أصدر أمراً في يوم الثلاثاء ٢٣ أكتوبر بهدم الجامع الأزهر فى أثنــاء الليل وذلك بتحطيم بعض الأعمدة فيه إذا كان ذلك ممكناً ، وتضمن هــذا الأمر أيضاً إنشاء نقطة مراقبة قوية فى الجامع ، وتنظيم دوريات فى الحى ، وهدم المتاريس والأبواب التى تسد الشوارع ، حتى تكون المواصلات مفتوحة بين الأزهر والقلعة، وسائر مراكز تجمعات الجيش الفرنسى (١) .

ومن الصعب تبرير هذا الأمر الحربى الذى أصدره بونابرت بهدم الجامع الأزهر ، وهذا الأمر مسجل فى المجموعة الرئيسية التى حوت أوراق هــذا القائد ، ولولا ذلك لكانت الشكوك تنتاب الباحث حول حقيقة هــذا الأمر الحربى . وواضح أنه لم يكن هناك ما يتطلب هدم الجامع ، بعــد أن احتله الجيش ، ورابط فيه الجنود ، وانتهكوا حرماته . إن التفسير الذى يمكن أن يساق فى هذا الصدد هو أن بونابرت أدرك من ثورة أكتوبر ، وأكثر من أى وقت مضى ، الدور القيادى البارز الذى كان يضطلع به الأزهر فى الحيــاة المصرية العامة السياسية والدينية ، وأدرك أيضاً من ثورة أكتوبر التضحيات التى جاد بهــا الأزهريون فى سبيل تحرير الشعب المصرى من الحكم المسيحى الأوروبى ، وعرف من هذه الثورة كذلك قدرة الأزهريين على تحريك الجماهير ثورياً ودينياً فكان ، وهو فى ذروة غضبه ، أن استقر رأيه على أنه لا أمل يرتجى فى إيجاد

(1) Quartier général au Caire, 2 brumaire au VII.
An Général Bon.

Ordre au général Bon de faire jeter à terre, pendant la nuit, la grande mosqueé, en brisant quelques colonnes, si cela est possible; de tenir un fort poste dans la mosquée, et de lui faire faire des patrouilles dans le quartier; de maintenir libre la communication à cet effet, de jeter à terre les barrières, portes, etc qui obstrueraient les rues. Il aura soin surtout de maintenir libre sa communication avec le Général Veaux.

انظــر :

وثيقة رقم ٣٥٢٦ ، مؤرخة فى ٢ من شهر برومير من السنة السابعة من التقويم الجمهورى (٢٣ من شهر أكتوبر ١٧٩٨) فى

Correspondance de Napoléon, t. V .

علاقات سلمية مع الشعب المصرى ، إلا إذا قضى على الأزهر موئل المعارضة للحكم الفرنسى .

بقى أن نذكر أن هدم الأزهر لم يتم ، وبقى صرحه قائماً شامخاً ، يطاول الزمن وجوداً . والتزمت المصادر الفرنسية والعربية الصمت إزاء هـذا الأمر الحربى الذى أصدره بونابرت . ولعل بونابرت قد راجع موقفه ، بعـد أن هدأت هواجسه قليلا ، وجدّت عوامل خففت إلى حد ما فورة غضبه ، وكان من بين هـذه العوامل سعى كبار علماء الأزهر أعضاء الديوان إلى مقابلتـه فى مقر القيادة العامة للجيش الفرنسى .

مقابلة بونابرت لمشايخ الأزهر أعضاء الديوان

وبعد أن سيطر الفرنسيون على الموقف فى الأزهر ومنطقته ، اسـتقبل بونابرت المشايخ أعضاء الديوان[1] ، وألقى فيهم خطبة طويلة ، جمع فيهـا بين التقريع واللوم ، وإعلان الصفح عن سكان القاهرة ، وكان مما جاء فى كلمته أنه علم أن موقف معظم المشايخ كان يتسم بالضعف ، ثم قال : إنه يحب أن يعتقد أن أعضاء الديوان لم يشاركوا مشاركة فعالة فى إشعال الثورة ، وكان التعبير الحرفى الذى جاء على لسانه : لم يكن أحـد منكم مجرماً[2] ، ثم مضى يقـول لهم إن النبى — صلوات الله وسلامه عليه — كان يمقت مقتاً شديداً إثارة الفتن ونكران الجميل . وأكد لهم أنه لا يريد أن يمر يوم واحد على مدينة القاهرة دون أن تقـام فى مساجدها شعائر الصلاة كالمعتاد . وقال لهم إن الجيش الفرنسى قد استولى على الجامع الأزهر ، وإن الدماء جرت فيـه

---

(١) يقول الجبرتى إن هذه المقابلة تمت يوم الأربعاء ، وكان يوافق ٢٤ أكتوبر ١٧٩٨

(2) "Je sais que beaucoup de vous ont été faibles, mais j'aime à croire qu'aucun n'est criminel."

أنهاراً ، وطاب منهم أن يذهبوا إلى الجامع ويعملوا على تنظيفه . وأعان أنه يرد لهم المصاحف التى استولى عليها جنود الجيش ، وأنه لايبغى الانتقام من سكان القاهرة ، وحسبه العـــدد الكبير من الثوار الذين حصــدتهم نيران الفرنسيين . وأخيراً طلب بونابرت من أعضاء الديوان أن ينقلوا إلى أهـــل القاهرة أنه لا يزال رءوفاً بهم ، شفوقاً عليهم ، وأنه عفا عنهم ، وأن ماحدث كان فى الكتاب مسطوراً . واستلم المشايخ المصاحف لإعادتها إلى الجامع الأزهر ، حمل كل شيخ مجموعة منها ، وحرص كل شيخ على تقبيل كل مصحف يحمله . وذهب المشايخ إلى الجامع الأزهر ، ودخلته معهم الجماهير ، ورفعوا منه الجثث . وبعد أن تم تنظيفه صعد الشيخ عبد الله الشرقاوى المنبر وخطب فى الجماهير ، ونقل إليهم تصريحات بونابرت (١) .

ويهمنا من كلمة بونابرت ثلاث نقاط ، هى :

(١) إن بونابرت لم يكن مطمئناً إلى إخلاص علماء الأزهر أعضاء الديوان للفـــرنسيين .

(٢) إن بونابرت كان لا يزال متمسكاً بسياسته الإسلامية ، على الرغم من قيام سكان القاهرة على الفرنسيين ، وكان من مظاهر هذا التمسك إعلان حرصه على الاستمرار فى إقامة الصلاة فى المساجد ، وإعادة المصاحف التى نهبها الجيش إلى الجامع الأزهر .

(٣) إن التصريح الذى أدلى به وهو أن الجيش الفرنسى قد استولى على الجامع الأزهر — وهى حقيقة كان يعلمها علماً يقينياً علماء الأزهر — يدل على اعتراف بونابرت بأهمية الاستيلاء على الأزهر ، باعتباره معقـــل الثورة ،

---

(1) Napoléon Ier; Guerre d'Orient. etc., ouvr. cit., t. I. pp. 255-256.

وأنه كان هدفاً عسكرياً رئيسياً من بين جميع العمليات الحربية التى قام بهـا الجيش للقضاء على الثورة .

وتتفق رواية بونابرت فى إطارها العام مع رواية الجبرتى ، إذ يقـول : « وأصبح يوم الأربع ، فركب فيه المشايخ أجمع ، وذهبوا إلى بيت صارى عسكر ، وقابلوه ، وخاطبوه فى العفو ولاطفوه ، والتمسوا منه أماناً كافياً ، وعفواً ينـادون به باللغتين شافياً ، لتطمئن بذلك قلوب الرعيـة ، ويسكن روعهم من هـذه الرزية ، فوعدهم وعداً مشوباً بالتسويف ، وطالبهـم بالتبيين والتعريف عمن تسبب من المتعممين فى إثارة العـوام ، وحرضهم على الخلاف والقيام ، فغالطوه عن تلك المقاصد ، فقـال على لسان الترجمان : نحن نعرفهم بالواحد ، فترجوا عنـده فى إخراج العسكر من الجـامع الأزهر ، فأجابهم لذلك السؤال ، وأمر بإخراجهم فى الحال ، وأبقوا منهـم السبعين ، أسكنوهم فى الخطة كالضابطين ، ليكونوا للأمور كالراصـدين ، وبالأحكام متقيـدين » [1] .

ويهمنا من رواية الجبرتى أربع نقاط هامة هى :

(١) إن نيـة بونابرت كانت مبيتة على الانتقام من المحرضين على الثورة ، إذ طلب من المشايخ موافاته بأسماء « المتعممين » الذين أثاروا العامة .

(٢) إن المشايخ رفضوا الإدلاء بأسماء المحرضين .

(٣) إن بونابرت استجاب لالتماس المشايخ بإخراج الجنود من الأزهر استجابة فورية ، وصدرت الأوامر بإخراج الجنود فى الحال .

(٤) استبقى الفرنسيون قوة من الجنود للطوارئ ، والمحافظة على الأمن والنظام فى منطقة الأزهر ، وكان قوام هذه القوة سبعين فرداً .

(١) الجبرتى ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٢٧ .

رواية المعلم نقولا ترك

ويذكر المعلم نقولا ترك رواية تتعارض مع ما جاء فى كل من مذكرات بونابرت ويوميات الجبرتى ، فهو يقول إن بونابرت رفض وساطة المشايخ فى إخلاء الجامع الأزهر من الجنود الفرنسيين ، فخرجوا من عنده وأرسلوا له الشيخ محمد الجوهرى ، وهو أحد كبار العلماء ، ويصفه بأنه أمضى حياته معتكفاً منصرفاً إلى عبادة الله ، وأنه لم يقابل فى حياته حاكماً ، ولم يأخذ رشوة ، أو يقبل هدية من أى حاكم ، وكان الأمراء المماليك أيام سطوتهم يخطبون وده ، ويلتمسون منه الدعاء ، فذهب هذا الشيخ الوقور إلى بونابرت وقال له : إنه لم يلتمس فى حياته مقابلة حاكم ، سواء كان عادلا أو طاغية ، ولكنه جاء إلى بونابرت متوسلا إليه كى يأمر بإخراج الجنود من الجامع الأزهر ، وقال إذا استجاب بونابرت لرجاء الشيخ ، فإن الشيخ سيقضى حياته شاكراً له هذه المنة ، داعياً له بالتوفيق . « فانشرح منه أمير الجيوش ، وأمر برفع العسكر من الأزهر ، وخامس يوم أطلق المنادى بالأمن والأمان »[1] .

ومن الصعب الأخذ برواية نقولا ترك عن وساطة الشيخ الجوهرى ، فقد كانت تربط هذا الشيخ الوقور بالجبرتى أوثق الصلات العلمية والاجتماعية . وقد ترجم له الجبرتى فى وفيات سنة ١٢١٥ (٢٥ مايو ١٨٠٠ — ١٣ مايو ١٨٠١) ترجمة ضافية[2] ، وذكر مناقبه ، وأشاد بأستاذيته الشامخة ، وعلو مركزه ، ولكنه لم يشر — لا من قريب ولا من بعيد — إلى وساطته لدى بونابرت من أجل إخلاء الجامع الأزهر من الجنود الفرنسيين ، وإعادة فتح أبوابه للعلماء والمجاورين . ولو كانت هذه الواقعة صحيحة ، لما تردد الجبرتى فى ذكرها بل وفى إبرازها إبرازاً قوياً ، وبخاصة لأن الجبرتى سجل للشيخ الجوهرى

(١) مذكرات المعلم نقولا ترك ، نشر الأستاذ ڤيت ، ص ص ٢٩ — ٣٠ .

(٢) الجبرتى ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ص ١٦٤ — ١٦٦ .

مواقف هامة ومشرفة ، تتصل بمشيخة الأزهر . إن كل ما سطره الجبرتى عن حياة الشيخ الجوهرى إبان الحكم الفرنسى لايتعدى هـــذه العبارات : « ولم يزل وافر الحرمة ، معتقداً عند الخاص والعام ، حتى حضرالفرنساوية واختلت الأمور ، وشارك النـــاس فى تلقى البـــلاء ، وذهب ما كان له بأيدى التجار ، ونهب بيته وكتبه التى جمعها ، وتراكمت عليه الهموم والأمراض ، وحصل له اختلاط ، ولم يزل حتى توفى يوم الأحد حادى عشرين شهرالقعدة سنة تاريخه ، بحارة برجوان ، وصلى عليه بالأزهر فى مشهد حافل »[١] :

وهناك واقعة تضعف رواية المعلم نقولا ترك ، وتثير حولها مزيداً من الشكوك ، فقد أذاع علماء الأزهر أعضاء الديوان فى ذات اليوم الذى قابلوا فيه بونابرت[٢] بياناً إلى سكان القاهرة ، قـــرروا فيه أن بونابرت استجاب لشفاعتهم ، وطلبوا من السكان الإخلاد إلى السكينة ، تجنباً لسفك مزيد من الدماء ، وحفظاً لعائلاتهم ، وإبقاء على دينهم ، كما نصحوا أهل القـــاهرة بالرضاء بأمر الله « فإن الله سبحانه وتعـــالى يؤتى ملكه من يشاء ، ويحكم ما يريد .... والدين النصيحة والسلام »[٣] .ولاحاجة بنا إلى القول بأن هذا البيان قد كتب بإيحاء من بونابرت ، شأن كل البيانات التى أذاعها علماء الأزهر أعضاء الديوان ، سواء على عهـــد بونابرت ، أو كليبر ، أو مينو .

---

(١) المصدر السابق .

(٢) تاريخ هذا المنشور هو ١٤ من جمادى الأولى ١٢١٣ (الأربعاء ٢٤ من أكتوبر) ، خلافاً لـــا يذكره الجبرتى من أن تاريخه أول جمادى الآخرة ، وقد أثبت الأستاذ عبـــد الرحمن الرافعى بالأدلة المـــادية القاطعة خطأ الجبرتى فى ذكر تاريخ هذا المنشور . انظر :

عبد الرحمن الرافعى : تاريخ الحركة القومية ، مرجع سبق ذكره ، ج ١ ، ص ٣٠٨ .

وانظر أيضاً بخصوص ما أثير حول تاريخ هذا المنشور :

La Jonquière, ouvr. cit., t. III, p. 285, note I.

(٣) الجبرتى ، مصدرسبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٣٠ .

ويلاحظ أن بعض الذين كتبوا فى تاريخ مصر الحديث ، قــد أخذوا برواية المعلم نقولا ترك أخذاً حرفياً ، دون أن يناقشوها من جوانبها المختلفة ، وإن مجرد ترديدهم لوساطة الشيخ محمد الجوهرى لن يضفى قوة على هــذه الواقعة ، التى تظل ضعيفة ، ما لم تقم أسانيد قوية تؤيدها .

ومضى يوم الأربعاء ٢٤من أكتوبر بجلاء الجنود الفرنسيين عن الجامع الأزهر ، وتنظيفه ، وفتح أبوابه لعلمائه ومجاوريه ، يواصــلون فى رحابه رسالتهم العلمية والدينية نشراً وتعليما ، ووفد سائر الأهالى إلى جامعهم العتيد يؤدون فيه شعائر الصلاة . وكانت الفرحة تغمر الجميع باستعادة الأزهرحياته العلمية والدينية ، ودوره القيادى فى حياة الأمة .

أما الفرنسيون فقد أمضوا هذا اليوم فى إزالة الأحجار التى استخدمها الثوار فى إقامة المتاريس . يقول الجبرتى : « ووقف جماعة من الفرنسيس ، ونظفوا مراكز المتاريس ، وأزالوا ما بها من الأتربة والأحجار المتراكمة ، ووضعوها فى ناحية ، لتصير طرق المرور خالية »(١) . وواضح من عبــارة الجبرتى أن الفرنسيين استهدفوا من تنظيف الشوارع أغراضاً عسكرية بحتــة لضمان حرية وسرعة تحرك وحدات الجيش فى الشوارع المــؤدية إلى الجامع الأزهر ، إذا عاد الشعب إلى امتشاق الحسام فى وجههم ، وبخاصــة لأن الفرنسيين كانوا يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم ، فقد أعلن بونابرت العفو عن سكان القاهرة ، وأذاع علماء الأزهر على سكان العاصمة البيــان

---

(١) المصدر السابق ص ٢٧ .

الذى أشرنا إليه [١] ، وقد استهلوه بهذه العبارة « نصيحة من كافة علماء الإسلام بمصر المحروسة [٢] » ، وقرروا فيه أن الفتنة قد انحسرت وسكنت ، لأن بونابرت « رجل كامل العقل ، عنده رحمة وشفقة على المسلمين ، ومحبة إلى الفقـراء والمساكين ، ولولاه لكانت العساكر أحرقت جميع المدينة ، ونهبت جميـع الأموال ، وقتلوا كامل أهل مصر » . وقد دلت الأحداث التاليـة على أن بونابرت كان فى ذات الوقت يضمر الانتقـام الذريع من سكان القاهرة ومن علماء الأزهر بعد أن يخلد الجميع إلى السكينة :

إسراف الفرنسيين فى الانتقام من سكان القاهرة

بعد أن نكل الفرنسيون بالثوار فى مذبحة رهيبة — على حد تعبير الجنرال برتيه رئيس أركان حرب الجيش الفرنسى [٣] — ، وبعد أن أعلن بونابرت العفو عن سكان القاهرة ، كان من المتوقع أن تعمل السلطات الفرنسية على إيجاد علاقات ودية ، أو شبه ودية ، مع أفراد الشعب المصرى ، تضميداً لجراحهم . ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث ، بل على العكس أسرف الفرنسيون فى الانتقام من سكان القاهرة وضواحيها ، واتسمت أعمالهم بطابع العنف البالغ ، والرغبة فى التنكيل والتشفى إلى أبعد الحدود :

---

(١) كان هذا البيان موجهاً إلى سكان القاهرة فقط ، خلافاً لبيان ثان أذاعه علماء الأزهر ، بتاريخ ٨ من جمادى الآخرة ١٢١٣ (١٧ من نوفمبر ١٧٩٨) ، وكان موجهاً إلى الشعب المصرى ، أو كما جاء فى البيان : « نصيحة من علماء الإسلام بمصر المحروسة : نخبركم يا أهل المـدائن والأمصار من المؤمنين ، ويا سكان الأرياف من العربان والفلاحين ، أن ...... » .

(٢) مصر المحروسة ، يقصد بها مدينة القاهرة .

(3) "Nous avons fait un massacre terrible de ces scélérats ...."

من خطاب أرسله الجنرال برتيه رئيس هيئة أركان حرب الجيش الفرنسى إلى الجنرال دجوا Dugua فى ٢٣ من أكتوبر من ١٧٩٨ .

انظـر :

La Jonquière; ouvr. cit., t. III, p. 286.

فبعد أن احتل الفرنسيون الجامع الأزهر ، انتشر الجنود فى المنـــاطق المجاورة له ، يقتحمون البيـــوت ، وينهبونها بحجة البحث عن الأسلحة ، ويتعرضون للمارة ، ويصادرون ما يجدونه من مال ، ويقتلون من يبدى أية مقاومة أو اعتراض . واضطر سكان حى الأزهر والمناطق القريبة منـــه إلى مغادرة بيوتهم . والجبرتى — كأحد سكان شارع الصنادقية القريب من الجامع الأزهر — يبدى أسفه العميق على ما حل بهذه المنطقة على أيدى الفرنسيين ، ويصفها بأنها أشرف البقاع ، فيقول : « وانتهكت حرمة تلك البقعة ، بعد أن كانت أشرف البقاع ، ويرغب الناس فى سكناها ، ويودعون عنـــد أهلها ما يخافون عليـــه الضياع ، والفرنساوية لا يمـــرون بهـــا إلا فى النـــادر ، ويحترمونها عن غيرها فى الباطن والظاهر ، فانقلب بهذه الحركة منها الموضوع ، وانخفض على غير القياس المرفوع ، ثم ترددوا فى الأسواق ، ووقفوا صفوفاً ، مثيناً وألوفاً ، فإن مر بهم أحد فتشوه ، وأخذوا ما معه ، وربما قتلوه »(1) .

وأصدر بونابرت أمراً فى ٢٣ من أكتوبر إلى الجنرال برتيه رئيس أركان حرب الجيش بأن يطلب من الحاكم العسكرى لمدينة القاهرة قطع رءوس جميع المعتقلين الذين قبض عليهم ومعهم أسلحة ، وأن تلقى جثثهم بدون رءوس فى النيل ، فى المنطقة الواقعة بين بولاق ومصر القديمة(2) . ويلاحظ أن الفرنسيين كانوا يحرصون على إلقـــاء الجثث بدون رءوس فى النيل ، حتى يتعـــذر الاستدلال على شخصية أصحابها ، إذا طفت الجثث فى يوم ما على سطح النيل .

---

(1) الجبرتى ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٢٧ .

(2) الوثيقة رقم ٣٥٢٧ ، مؤرخة فى الثانى من برومير السنة السابعة من التقويم الجمهـــورى (٢٣ من أكتوبر ١٧٩٨) .

Correspondance de Napoléon t. V.

وانظر أيضا

La Jonquière; ouvr. cit., t. III, p. 286.

وقرر بونابرت فى مذكراته أن السلطات الفرنسية ألقت القبض على ثمانين شخصاً ، قال بونابرت عنهم إنهم من بين مائة عضو كانوا يشكلون مجلس الثورة[١] ، وقد تم القبض عليهم ليلا . وفى الساعة السادسة من صباح يوم ٢٤ أكتوبر حكمت محكمة عسكرية بإعدامهم جميعاً ، تأسيساً على أنهم أعضاء فى مجلس الثورة . ومن المعروف أن أحكام الإعدام العسكرية التى تصدر فى ملابسات ثورة تنفذ فوراً ، ومعنى ذلك إن إعدام الثمانين شخصاً قد تم فى ٢٤ أكتوبر ، وهو اليوم الذى تمت فيه مقابلة علماء الأزهر أعضاء الديوان لبونابرت ، يلتمسون منه إخلاء الجامع الأزهر من الجنود الفرنسيين .

إعدام علماء الأزهر بطريقة وحشية

ومضى الفرنسيون فى سياسة القتل الجماعى . ألقوا القبض على خمسة من علماء الأزهر[٢] ، واعتقلوهم فى دار البكرى . وفى منتصف ليلة الأحد ٣ — ٤ نوفمبر جاءت قوة من الجنود الفرنسيين إلى دار البكرى ، وطلب رئيس

(1) Napoléon Ier; Guerre d'Orient. etc., ouvr. cit., t. I, pp, 253-254.

(٢) كان هؤلاء العلماء :

الشيخ سليمان الجوسقى ، شيخ طائفة المكفوفين .

الشيخ أحمد الشرقاوى .

الشيخ عبد الوهاب الشبراوى .

الشيخ يوسف المصيلحى .

الشيخ اسماعيل البراوى .

واستطاع السيد بدر المقدسى الإفلات من السلطات الفرنسية وسافر إلى الشام ، وكان هذا الرجل قد توجه على رأس حشود من الثوار إلى دار قاضى القضاة فى صباح اليوم الأول للثورة ، وقبضت السلطات الفرنسية أيضاً على إبراهيم أفندى كاتب جمرك البهار ، وكانت التهم الموجهة إليه كما يقول الجبرتى ؛ « إنه جمع له جمعاً من الشطار ، وأعطاهم الأسلحة والمساوق ، وكان عنده عدة من المماليك المخفيين ، والرجال المعدودين » . ج ٣ ، ص ٢٨ ، وقد حبس فى بيت الأغا ، ثم أصدر بونابرت أمراً بإطلاق سراحه ، ويلوح أن السبب فى صدور العفو عنه كان حاجة الفرنسيين إلى خبرته ومعلوماته عن منابع الإيراد الحكومى ، إذ كان بوسيليج من بين الذين تشفعوا من أجله لدى بونابرت .

القوة مرافقة هؤلاء العلماء إلى بونابرت بحجة أنه يريد التحدث معهم ، وما كادوا يغادرون الدار حتى وجدوا حشداً كاثراً من الجنود قبضوا عليهم وذهبوا بهم إلى دار الجنرال بون حاكم القاهرة العسكرى ، وكانت داره فى درب الجماميز . ويصف الجبرتى المصير التعس الذى لقيه أولئك العلماء مشايخ الأزهر فيقول : «فلما وصلوا بهم هناك عروهم من ثيابهم ، وصعدوا بهم إلى القلعة ، فسجنوهم إلى الصباح ، فأخرجوهم وقتلوهم بالبنادق ، وألقوهم من السور خلف القلعة ، وتغيب حالهم عن أكثر الناس أياماً»[١] :

وقد غطى أحد المؤرخين الفرنسيين هذا الوصف الموجز الذى ذكره الجبرتى ، فأعطى صورة مفزعة عن الدقائق الأخيرة فى حياة هؤلاء العلماء ، فذكر أنهم اقتيدوا من سجنهم إلى ميدان القلعة فى حراسة مشددة من الجنود ، وكان على رأس القوة المرافقة لهم برتلمى اليونانى ، فأجلسهم القرفصاء على الأرض ، وأطلق على كل شيخ من أولئك العلماء عياراً نارياً أرداه قتيلا ، الواحد تلو الآخر[٢] : وأضافت جريدة Courrier de l'Egypte جديداً إلى هذا المشهد الدامى ، فقد نشرت بياناً رسمياً جاء فيه : إنه فى الساعة التاسعة من صباح ١٤ برومير قد قطعت فى ميدان القلعة رقاب ستة علماء ، وذكرت نفس الأسماء الخمسة التى سجلها الجبرتى ، وأضافت إليهم السيد عبد الكريم ، وقالت إنه ثبتت عليهم تهمة التحريض على الثورة التى قامت فى ٣٠ فانديمير ، وأول برومير ، وقال البيان إن معظم هؤلاء المشايخ اشتركوا فى الثورة ، مدفوعين بكراهيتهم لزملائهم المشايخ الذين استخدمهم بونابرت فى الشئون العامة[٣] . وهذا القول من جانب الجريدة الرسمية للاحتلال

(١) الجبرتى ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٢٩ .

(2) Reybaud Louis et autres,; ouvr. cit., t. IV, p. 191.

(٣) العدد رقم ٥١ الصادر فى ٢٠ برومير من السنة السابعة من التقويم الجمهورى (أول نوفمبر ١٧٩٨) .

الفرنسى تبرير هزيل للقتل الجماعى الذى ارتكبه الفرنسيون مع فريق من علماء الأزهر . وقد ظل مصير هؤلاء العلماء مجهولا لسكان القاهرة عدة أيام ، وتردد أعضاء الديوان عدة مرات على بونابرت يلتمسون منــه الإفراج عن هؤلاء العلماء وغيرهم من المعتقلين ، سواء من كان فى القلعة أو فى دار البكرى ، أو فى بيت الأغا . وكان بونابرت يســتمهلهم ، ويروغ من الإجابة عن استفساراتهم . وأدرك الشعب أن فى الأمر سراً يحاول الفرنسيون إخفاءه ، وازدادت هواجسه حين مضت الأيام ولم يفرج عن المعتقلين . واشتم الشعب رائحة الغدر ، وصحت نبوءته . وواجه الفرنسيون هــذا الموقف بنشر الرهبة فى نفوس سكان منطقة الأزهر ، فأرسلوا قوات عسكرية إلى منطقة الأزهر بالذات لمراقبة الموقف عن كثب ، وسحق أية حركة قد يقوم بها الشعب الثائر تعبيراً عن سخطه على إعدام علماء الأزهر [(١)] .

ويقرر الشيخ عبد الله الشرقاوى أن الفرنسيين قتلوا من علماء مصر نحو ثلاثة عشر عالمــاً [(٢)] ، ونعتقد أن هذا التقدير الرقمى لاينطوى على مبالغــة ، لأن الشيخ الشرقاوى — كشيخ للجامع الأزهر — كان أدرى من غيره بالعلماء واسمائهم ، ولا بد أنه وقف على عدد واسماء العلماء الذين قضوا نحبهم فى هذه الثورة ، وهو قد أضاف إلى العلماء الذين نفذ فيهم الفرنسيون أحكام الإعدام : علماء آخرين لقوا حتفهم برصاص الفرنسيين ، أو بقذائف مدفعيتهم .

وتقديراً للدور القيادى والبطولى الذى قام به الأزهر فى ثورة أكتوبر ١٧٩٨ ، ووفاء لعلمائه الذين أعدمهم الفرنسيون بطريقة تتنــافى مع أبسط مبادئ الإنسانية ، نشير إلى المركز العلمى والاجتماعى لهؤلاء الشهداء . لقــد

---

(١) انظر يوميات الجبرتى ابتداء من يوم الأحد ١٨ من جمادى الأولى ١٢١٣ ، ج ٣ ، ص ٢٨ وما بعدها .

(٢) عبد الله الشرقاوى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٥٥ .

ترجم الجبرتى لخمسة من علماء الأزهر الذين أعدمهم الفرنسيون فى أعقاب ثورة أكتوبر ، وقد بدأ بالشيخ أحمد الشرقاوى ، فوصفه بأنه علامة فقيه ، وقال عنه إنه تصدر للتدريس فى الأزهر بعد وفاة أبيه الشيخ إبراهيم الشرقاوى « واجتمعت عليه طلبة أبيه وغيرهم ، ولازم مكانه بالأزهر طول النهار ، يملى ويفيد ، ويفتى على مذهبه (الشافعى) ، ويأتى إليه الفلاحون من جيرة بلاده ، بقضاياهم وخصوماتهم وأنكحتهم ، فيقضى بينهم ، ويكتب لهم الفتاوى فى الدعاوى التى يحتاجون فيها إلى المرافعة عند القاضى ، وربما زجر المعاند منهم ، وضربه وشتمه ، ويستمعون لقوله ، ويمتثلون لأحكامه ، وربما أتوه بهدايا ودراهم ، وكان جسيما ، عظيم اللحية ، فصيح اللسان ، ولم يزل على حالته حتى اتهم فى فتنة الفرنسيس المتقدمة ، ومات مع من قتل بيد الفرنساوية بالقلعة ، ولم يعلم له قبر » ، وواضح من كلام الجبرتى أنه كان يمارس مهنتين ، هما طبقاً للمصطلحات الحديثة : أستاذ جامعة ومستشار قانونى ، فهو يقوم بالتدريس فى الأزهر ، ويصدر الفتاوى فى القضايا المطروحة أمام القضاء ، وإلى جانب هذين العملين كان يحسم الخصومات ، قبل أن تأخذ طريقها إلى المحاكم ، كما أنه كان قوى الشخصية ، مهاباً .

وترجم الجبرتى للشيخ عبد الله الشبراوى ، فوصفه بأنه « الإمام العمدة ، الفقيه الصالح القانع » ، وقال عنه إنه تفقه على أشياخ عصره ، وذكر اسماء هؤلاء الشيوخ ، وكلهم من أعلام الأزهر ، ثم ذكر أنه تصدر للإقراء والتدريس والإفادة بالجوهرية ، وبالمشهد الحسينى ، وكان يقرأ فى دروسه كتب الحديث كالبخارى ومسلم ، وكان الجم الغفير من العامة يحرصون على حضور دروسه ، وكانوا يستفيدون منه « وكان حسن الإلقاء ، سلس التقرير ، جيد الحافظة ، جميل السيرة ، مقبلا على شأنه ، ولم يزل ملازماً

على حالته حتى اتهم فى إثارة الفتنه ، وقتل بالقلعة شهيداً بيد الفرنسيس فى أواخر جمادى الأولى من السنة (١٢١٣) ، ولم يعلم له قبر » . ، ويتضح من ترجمة الجبرتى أن الشيخ عبد الله الشبراوى كان على حظ موفور من العلم بفضل ما أتيح له من فرص الدراسة على أيدى صفوة علماء الأزهر ، وأن تخصصه الضيق كان فى علم الحديث ، وأن كثيرين من العامة كانوا يحرصون على شهود حلقاته العلمية التى كان يتصدرها فى الجوهرية ، ومسجد الإمام الحسين ، وقد اجتمعت له من الصفات العلمية والخلقية ، ما جعلت منه عالماً أزهرياً مرموقاً :

وكان العالم الثالث الذى ترجم له الجبرتى من شهداء الأزهر هو الشيخ يوسف المصيلحى ، وقد نعته بقوله : إنه « الشاب الصالح ، والنبيه الفالح ، الفاضل الفقيه .... » ، وأنه حضر دروس أشياخ العصر ، كالشيخ الصعيدى ، والشيخ البراوى ، والشيخ عطية الأجهورى ، والشيخ أحمد العروسى ، واتصل اتصالا وثيقاً بالشيخ محمد المصيلحى ، إلى أن قال : « وأملى دروساً بجامع الكردى بسويقة اللالا ، وكان مهذب النفس ، لطيف الذات ، حلو الناطقة مقبول الطلعة ، خفيف الروح ، ولم يزل ملازماً على حاله ، حتى اتهم أيضا فى حادثة الفرنسيس ، وقتل مع من قتل ، شهيداً بالقلعة » ، والمعانى المستفادة من ترجمة الجبرتى أن مجتمع العلماء افتقد عضواً عاملا كان فى الاستطاعة أن يثرى الحياة العقلية فى البلاد ، بفضل الدراسات التى تلقاها من كبار علماء الأزهر ، واتصالاته بهم ، واشتغاله بالتدريس ، وقد كان ينتظره مستقبل علمى زاهر ، لولا أن الفرنسيين قتلوه ، وهو فى مستهل حياته العلمية :

وأفرد الجبرتى ترجمة ضافية للشيخ سليمان الجوسقى شيخ طائفة المكفوفين [١]، فقال : كان يستغل المكفوفين ، فيجرد مجموعات منهم إلى الملتزمين ، ونظار الأوقاف ، لاستيفاء المبالغ المطلوبة منهم له ، بصفته شيخاً لطائفة المكفوفين . وكان يمارس أعمالا تجارية واسعة ، أثرى منها ثراء واسعاً ، فكان يبيع الغلال والسمن والعسل والسكر والزيت ، وكانت له مطاحن لطحن الغلال ، وأنشأ مخبزاً لإنتاج خبز من صنف ردىء يخصص للمكفوفين ؛ وكان يلجأ إلى الاستيلاء التعسفى على ميراث أفراد الطائفة ، وكان كثير من المكفوفين يتركون ثروات ضخمة ، عبارة عن أموال سائلة ، وانتهى به الأمر إلى أنه أصبح من كبار الشخصيات فى مجتمع القاهرة ، أو كما يقول الجبرتى : « صار المترجم من أعيان الصدور ، المشار إليهم فى المجالس ، تخشى سطوته ، وتسمع كلمته ، ويقول قال الشيخ كذا ، وأمر الشيخ بكذا ، وصار يلبس الملابس والفراوى ، ويركب البغال ، وأتباعه محدقة به ، وتزوج الكثير من النساء الغنيات الجميلات ، واشترى السرارى البيض والحبش والسود ، وكان يقرض الأكابر المقادير الكثيرة من المال ، ليكون له عليهم الفضل والمنة ،

---

(١) للمكفوفين أو العميان كما كان يطلق عليهم فى ذلك الوقت زاوية خاصة بهم فى عطفة الشنوانى ، وكان عدد منهم يطلبون العلم فى الأزهر ، أو فى المدارس الملحقة بالمساجد ، وعدد آخر يعملون مقرئين ، يتلون آيات القرآن الكريم فى المنازل والمصاطب أمام الحوانيت ، استجلاباً للبركة فى البيوت ، وللرزق الوفير فى المحلات التجارية ، والبعض الثالث يتخصصون فى التواشيح الدينية ، لإلقائها فى الموالد والحفلات الدينية ، والبعض الرابع يتعاقدون مع أصحاب المقاهى المقامة فى الأحياء الشعبية ، ويجلسون على دكة عالية ، وينشدون قطعاً من الأدب الشعبى ، مثل الأميرة ذات الهمة ، وأبى زيد الهلالى ، وألف ليلة ونحو ذلك ، كما كان يشتغل عدد منهم فى المساجد أئمة أو مؤذنين ، وكان عدد آخر ، وبخاصة من لم ينالوا حظاً من التعليم يتسولون فى الشوارع والأسواق ، يسألون الناس إحساناً ، وكان يضمهم تنظيم واحد ، ويخضعون لشيخ الطائفة ، يأتمرون بأمره .

ولم يزل حتى حمله التفاخر فى زمن الفرنسيس على تولية كبر[(١)] إثارة الفتنـــة التى أصابته وغيره ، وقتل فيمن قتل بالقلعة ، ولم يعلم له قبر . وكان ابنه معوقاً[(٢)] ببيت البكرى ، فلما علم بموته قلق ، وكاد يخرج من عقله ، خوفاً على مايعلم مكانه من مال أبيـــه ، حتى خلص[(٣)] فى ثانى يوم بشفاعة المشايخ ، ولم يكن مقصوداً بالذات ، بل حضر ليعود أباه ، فحجزه القومة[(٤)] عليهـــم ، زيادة فى الاحتياط . » ، ونخلص من كلام الجبرتى إلى أن الشيخ سليمان الجوسقى كان على قدر كبير من الصرامة والجبروت ، وأنه كان يحب المـــال والنساء حباً جماً ، وأنه كان من المحرضين على الثورة .

وكان الشيخ اسماعيل البراوى هو آخر من ترجم له الجـــبرتى من علماء الأزهر الشهداء ، وقال عنه إنه « كان قليل البضاعة ، إلا أنه تغلب عليه النباهة واللسانة والسلاطة والتداخل ، وذلك هو الذى أوقعه فى حبائل الفرنساوية ، وقتل مع من قتل شهيداً ، ولم يعلم له قبر » ، ويتضح من ترجمة الجبرتى له أنه كان أقل العلماء الشهداء مكانة علمية ، لأن بضاعته قليلة من العلم ، ولكنه كان خطيباً مفوهاً ، وأنه استغل هذه الموهبة فى مخاطبة الجماهير ، محرضاً لهم على الثورة[(٥)] :

---

(١) كبر الشىء أى معظم الشىء وأكبر أقسامه ، وهى تنطق بكسر الكاف وسكون الباء ، ومعنى العبارة أن الشيخ سليمان الجوسقى تولى القسط الأكبر من التحريض على الثورة وإثارة الفتنة ، وقد دفعنا إلى ذكر هذا الإيضاح أن الأستاذ أحمد حافظ عوض قد حذف هاتين الكلمتين (تولى كبره) وهو ينقل النص عن الجبرتى ، ولعله اعتقد أنهما خطأ مطبعى ، والآية القرآنية الكريمة [illegible] : « والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم » الفقرة الأخيرة من الآية رقم ١١ ، سورة النور .

انظـــر :

أحمد حافظ عوض ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٥٦ .

(٢) أى محجوزاً ، أومحددة إقامته .

(٣) أى أطلق سراحه .

(٤) القائمين على حراسة المعتقلين .

(٥) انظر تراجم هؤلاء العلماء الشهداء فى وفيات سنة ١٢١٣ ، فى :

الجبرتى ، مصدر سبق ذكره ، ص ص ٦١ — ٦٢

ويلاحظ أن الجبرتى لم يترجم إلا لخمسة من علماء الأزهر الذين أعدمهم الفرنسيون فى أعقاب الثورة ، وليس معنى ذلك أن الأزهر لم يفجع إلا فى خمسة من علمائه ، وقد ذكرنا من قبل أن الشيخ عبد الله الشرقاوى — شيخ الأزهر — قد قرر أن الفرنسيين قتلوا نحو ثلاثة عشر عالماً من علماء الأزهر ، والتفسير الذى يساق فى هذا الصدد لإغفال الجبرتى ترجمة باقى علماء الأزهر الشهداء ، هو أنه اكتفى بخمسة منهم ، كى يفسح لنفسه مجالا لترجمـة الشهداء الآخرين مثل السيد محمـد كريم حاكم الإسكندرية الوطنى ، والأمراء المماليك الذين سقطوا فى معركة إمبابة . ومما يؤيد هذا التفسير أن الجبرتى لم يترجم إلا لثلاثة من الأمراء المماليك ضحايا معركة إمبابة ، مع أنهم تكبدوا خسائر فادحة فى الأرواح ، سواء من قتل منهم فى ساحة الوغى ، أو غرقاً فى النيل ، فترجم لاثنين من القتلى ، ولواحد من الغـرق (١) ، كما ترجم لأمير مشهور مات حتف أنفه فى الشام ، هو صالح بك أمير الحج ، وعلى ذلك فإن علماء الأزهر الخمسة الذين خصهم الجبرتى بترجمتـه كانوا يشكلون أكبر نسبة فى تراجم وفيـات سنة ١٢١٣ (١٥ يونيو ١٧٩٨ — ٤ يونيو ١٧٩٩) ، وكانت نسبة تراجم مجتمع العلماء تفوق نسبة تراجم مجتمع العسكريين (٢) .

صور أخرى من تنكيل الفرنسيين بالشعب

مضت بكل نشاط عمليـات القبض على كل من حامت حولة شـبهة التحريض على الثورة . والجبرتى ، وهو يسجل أحداث يوم الأحد ١٨ جمادى

---

(١) ترجم من قتلى المعركة للأمير على بك الدفتردار ، وعبد الله كاشف الجرف تابع عثمان بك ذى الفقار الكبير ، وترجم من الغرقى للأمير إبراهيم بك الصغير ، المعروف بالوالى .

(٢) مجتمع العلمـاء ٧
مجتمع العسكريين ٤
حاكم الإسكندرية الوطنى (السيد محمد كريم) ١
——
١٢

الأولى ١٢١٣ (٢٨ أكتوبر ١٧٩٨) ، يتكلم عن « استمرار القبض على الناس ، وكبس البيوت بأدنى شبهة » ، وأكد بونابرت هذه الحقيقة فى رسالة مؤرخة فى ٢٧ أكتوبر إلى الجنرال رينيه Reynier الحاكم العسكرى لمديرية الشرقية قال فيها : « إن السكينة قد عادت إلى القاهرة ، وفقد الثوار قرابة ألفى قتيل ، وفى كل ليلة تقطع رءوس نحو ثلاثين من الرجال ، وزعماء الأهالى ، وأعتقد أن هذا العمل سيكون درساً نافعاً »(١) ، ويعترف الضابط لاجونكيير La Jonquière بأن إعدام الكثيرين قد تم بحد السناك فى القلعة سراً وبدون محاكمة(٢) . وامتدت موجة الانتقام إلى السيدات المصريات . وقد كشف عن هذه الحقيقة فى مذكراته دى موريين Louis Antoine Fauvelet de Bourienne السكرتير الخاص لبونابرت(٣) ، فقد قرر أن عدداً كبيراً من المقبوض عليهم كانوا يساقون إلى القلعة ، وكان فى كل مساء يتولى بنفسه كتابة أوامر الإعدام ، وكانت تتضمن اسماء اثنى عشر معتقلا كل

---

(١) وثيقة رقم ٣٥٣٩ مؤرخة فى ٦ من شهر برومير ، السنة السابعة من التقويم الجمهورى (٢٧ من أكتوبر ١٧٩٨) .
انظر :

Correspondance de Napoléon, t. V.

(2) La Jonquière; ouvr. cit., t. III, p. 283.

(٣) نشرت النسخة الفرنسية لمذكرات دى بوريين بعنوان :

Bourienne (L.A. Fauvelet de); Mémoires de M. de Bourienne, ministre d'Etat, sur Napoléon, le Directoire, le Consulat, l'Empire et la Restauration. Paris, 1829, 10 vols.

وظهرت الترجمة الإنجليزية لهذه المذكرات بعنوان غير دقيق علمياً فى كتاب يقع فى عشرة أجزاء عنوانه : The Life of Napoléon. by William Hazlitt

أفرد فيه أربعة أجزاء لمذكرات دى بوريين هى الأجزاء : السابع والثامن والتاسع والعاشر ، وخصص الأجزاء الستة الأولى لعرض تاريخ نابليون ، وقد تولت جمعية فى نيويورك ، أسسها The Grollier Society نشر الأجزاء العشرة .

ليلة ، وكانت توضع جثثهم فى زكائب وتغرق فى النيل، « وكانت هناك نساء كثيرات ، ممن نفذ فيهن أوامر الإعدام الليلية »[1] :

برتلمى يواصل تنكيله بالشعب

وكان هذا الجو الإرهابى ، الذى عاشت فيه القاهرة عقب إخماد الثورة فرصة ذهبية لوكيل محافظة القاهرة برتلمى اليونانى — أو فرط الرمان — ، للتشفى من الشعب المصرى ، وإشباع هوايته فى التنكيل بأبناء البلاد ، التى آوته من خوف ، وأطعمته من جوع . وقد جعل الفرنسيون منه شخصية آمرة ، متحكمة ، متعالية ، متعسفة ، تبطش بالمصريين فى غير رحمة أو هوادة، وبغير مقتضى أو سبب جدى : ويصف الجبرتى دور هذا اليونانى القبيح فى التنكيل بأهل القاهرة ، بعـــد أن ألقى الثوار أسلحتهم فيقول : « وانتدب برطامين للعسس على من حمل السلاح ، أو اختلس ، وبث أعوانه فى الجهات يتجسسون فى الطرقات ، فيقبضون على الناس بحسب أغراضهم ، وما ينهيه النصارى من أبغاضهم ، فيحكم فيهم بمراده ، ويعمل برأيه واجتهاده ، ويأخذ منهـــم الكثير ، ويركب فى موكبه ويســـير ، وهم موثوقون بين يديه بالحبـــال ، ويسحبهم الأعوان بالقهر والنكال ، فيودعونهم السجونات ، ويطالبونهـــم بالمنهوبات ، ويقررونهم[2] بالعقاب والضرب ، ويسألونهم عن السلاح وآلات الحرب ، ويدل بعضهم على بعض، فيضعون على المدلول عليهم أيضاً القبض :

---

(1) "Numerous prisoners were conducted to the citadel. In obedience to an order which I wrote every evening, twelve were put to death nightly. The bodies were then put into sacks and thrown into the Nile. *There were many women included in these nocturnal executions.*

انظـــر :

de Bourienne; Memoirs of Napoléon. vol I., p. 188.

(٢) أى يستخدمون معهم وسائل التعذيب كي يعترفوا ،

وكذلك فعل مثل ما فعل اللعين الأغا[١] ، وتجبر فى أفعاله وطغى ، وكثير من الناس ذبحوهم ، وفى بحر النيل قذفوهم ، ومات فى هذين اليومين وما بعدهما أمم كثيرة ، لا يحصى عددها إلا الله ، وطال بالكفرة[٢] بغيهم وعنادهم ، ونالوا من المسلمين قصدهم ومرادهم »[٣] :

وعهد بونابرت فى ٢٦ أكتوبر ١٧٩٨ إلى هذا اليونانى القبيح بالذهاب مع قوة من رجال الشرطة فى اتجاه منطقة القبة والخانكة ، ويتجول فى عشر قرى تكون أقرب القرى إلى القاهرة ، ويداهم بيوتها ، بحثاً عن الخطابات التى كتبها أعضاء مجلس الثورة إلى مشايخ القرى وسكانها ، وطلبوا فيها منهم الحضور إلى القاهرة لمساندة الثوار . وطلب بونابرت منه أيضاً أن يجدّ فى جمع المعلومات المتصلة بهذا الموضوع[٤] . ويقول الجبرتى : إن برتلمى سافر فى ٢٨ من أكتوبر إلى بلدة سرياقوس « ومعه جملة من العسكر بسبب الناس الفارين إلى جهة الشرق فلم يدركهم ، وأخذ من فى البلاد ، وعسف فى تحصيلها ، ورجع بعد أيام »[٥] .

---

(١) الأغا ، يقصد به محافظ القاهرة ، وكان اسمه مصطفى أغا ، وهو ثانى محافظ يعين للقاهرة أيام الاحتلال الفرنسى ، وكان معروفاً عنه أنه من عملاء الفرنسيين ، وقد لقى مصرعه إبان ثورة القاهرة الثانية .

(٢) تؤكد هذه اللفظة (الكفرة) الطابع الدينى للمجتمع المصرى فى ذلك الوقت ، وكان يطلق على غير المسلمين كفرة ، وسوف نناقش هذه المسألة فى موطن قادم من هذه الدراسة .

(٣) الجبرتى ، مصدرسبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٢٧ .

(٤) وثيقة رقم ٣٥٣١ عبارة عن أمر أصدره بونابرت فى الخامس من شهر بروميير من السنة السابعة من التقويم الجمهورى (٢٦ من أكتوبر ١٧٩٨) إلى الجنرال برتيه رئيس هيئة أركان حرب الجيش الفرنسى ، لتبليغه إلى ذلك اليونانى برتلمى .

انظر :

Correspondance de Napoléon, t. V,.

(٥) الجبرتى ، مصدرسبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٢٨ .

خسائر الشعب فى ثورته

تكبد الشعب فى ثورة أكتوبر خسائر فادحة فى الأرواح ، إذ ارتفع عدد الضحايا إلى أربعة آلاف قتيل ، وقد استقينا هذا التقدير الرقمى من ريبو مؤرخ الحملة[(١)] ، وهو يتفق فى هذا التقدير مع ما جاء فى مذكرات الجنرال بليار[(٢)] ، وهو أقرب إلى الحقيقة . أما بونابرت فقد قرر فى التقرير الذى وضعه عن ثورة القاهرة الأولى ، وأرسله إلى حكومة الديركتوار بتاريخ ٦ برومير من السنة السابعة من التقويم الجمهورى[(٣)] أن عدد الضحايا المصريين يتراوح بين ألفى قتيل ، وبين ألفين وخمسمائة قتيل[(٤)] :

وقد بلغت خسائر الجانب الفرنسى نحو ثلثمائة قتيل ، منهم ضابط برتبة لواء ، هو الجنرال ديبوى ، الحاكم العسكرى لمنطقة القاهرة ، وضابط برتبة مقدم ، هو سلكووسكى ياور بونابرت ، وبعض الضباط والمهندسين من ضباط سلاح المهندسين وبعض العلماء ، وكان الباقون من الجنود ، وقد تخبط بونابرت فى ذكر عدد ضحايا الفرنسيين ، فقد قرر فى مذكراته أن خسائرهم قد بلغت ثلاثمائة ، منهم مائة قتيل ، فى حين أنه كان قد هبط بهذا العدد إلى ستة وثلاثين قتيلا فى تقريره الذى رفعه إلى حكومة الديركتوار ، والذى سبقت الإشارة إليه ، ولا شك أنه استهدف من ذكر هذا الرقم المتواضع ،

---

(1) Reybaud Louis et autres; ouvr. cit., t. IV, p. 181.

(2) Mémoires du comte Belliard, lieutenant-général, pair de Framce, écrits par lui-même, recueillis et mis en ordre par M. Vinet, un de ses aides de camp. Paris, 1842, 3 vols.

(٣) يقابل السابع والعشرين من شهر أكتوبر ١٧٩٨ .

(٤) انظر النص الرسمى لهذا التقرير فى كل من :

Napoléon 1er; Guerre d'Orient. etc,. ouvr. cit., t. I, pp. 369 - 371.

———; Correspondance de Napoléon, t. V, doc. no. 3538 au Directoire Exécutif.

التقليل من شأن ثورة سكان القاهرة ، حتى لا يضيف مزيداً من عوامل الإثارة أو القلق فى نفوس أعضاء حكومة الديركتوار. وكان بونابرت حريصاً على تكذيب الأنباء التى كان أعداء فرنسا ينشطون فى إذاعتها ، كنوع من أنواع الحرب النفسية ، فيعتقد الرأى العام الفرنسى أن الحملة واجهت ثورة هادرة من القاهريين ، وأن المتاعب تلاحقها بعد الضربة الأليمة التى أصابتها فى معركة أبى قير البحرية .

ويعلق الأستاذ الرافعى على نتائج ثورة أكتوبر بقوله : « وانتزعت الثقة بين الجنود والأهالى ، فكانت ثورة القاهرة كالهوة العميقة التى باعدت إلى الأبد بين الأمة المصرية والجيش الفرنسى ، وراح كل جندى لايمشى إلا بسلاح ، بعد أن كانوا لايمشون به أصلا ، من حين دخولهم القاهرة ، وصار من لم يكن معه سلاح من الفرنسيين يحمل فى يده عصا أو سوطاً ، أو نحو ذلك ، ونفرت قلوبهم من المصريين ، وكف هؤلاء من جهتهم عن الخروج ، والمرور بالأسواق ، من العشية إلى طلوع النهار ، وعامل الفرنسيون الشعب بالشدة والقسوة ... وساد حكم الإرهاب فى مدينة القاهرة ، فلا عدل ولا أمن ، ولا طمأنينة »[(١)] .

ثورة القاهرة ثورة دينية :

يحاول فريق من الباحثين أن يضفوا على هذه الثورة الطابع القومى le caractère national ، أو الطابع الوطنى le caractère patriotique ، وينسى هؤلاء الباحثون أن المجتمع المصرى فى القرن الثامن عشر كان مجتمعاً دينياً متزمتاً ، تغلب على أفراده ثقافة دينية ، وتسيطر عليه آراء دينية ، وتوجهه دوافع دينية ، ويتحسس هؤلاء الباحثون الأسانيد فى عبارات ينتحلونها

(١) عبد الرحمن الرافعى ، مرجع سبق ذكره ، ج ١ ، ص ص ٢٩٧ — ٢٩٨ .

من تاريخ الغرب فى القرنين التاسع عشر والعشرين ، ولا يقيمون وزناً للفروق الصارخة بين المجتمع الإسلامى فى مصر فى القرن الثامن عشر ، وبين المجتمعات الأوروبية فى القرنين التاسع عشر والعشرين :

كانت الهتافات التى رددها الثوار هتافات دينية بحتة ، لا تمت بأية صلة إلى الشعارات أو المفاهيم القومية والوطنية ، ويعطى الجبرتى صورة نابضة بالحياة عن بداية ثورة أكتوبر ١٧٩٨ فيقول : « وأصبحوا يوم الأحد متحزبين ، وعلى الجهاد عازمين ، وأبرزوا ما كانوا أخفوه من السلاح وآلات الحرب والكفاح ، وحضر السيد بدر وصحبته حشرات الحسينية ، وزعر[1] الحارات البرانية ، ولهم صياح عظيم ، وهول جسيم ، ويقولون بصياح فى الكلام : نصر الله دين الإسلام »[2] ، وهناك معاصر آخر لأحداث الثورة ، هو المعلم نقولا ترك ، يقول فى مذكراته عن بداية الثورة : إن أحد شيوخ الأزهر طاف فى أول يوم من أيام الثورة فى شوارع القاهرة ينادى بأعلى صوته : « إن كل مؤمن موحد بالله ، عليه أن يذهب إلى الجامع الأزهر ، لأن اليوم ينبغى علينا أن نجاهد الكفار »[3] :

نستخلص من عبارتى الجبرتى ونقولا ترك ثلاثة عناصر حددت موقف سكان القاهرة من هذه الثورة :

أولا : إن الدعوة إلى الاشتراك فى الثورة كانت مقصورة على « المؤمنين الموحدين بالله » ، وهو وصف ينطبق على سكان القاهرة المسلمين دون سواهم

(١) زعر ، معناها أناس ذوو شراسة .

(٢) الجبرتى ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٢٥ .

(٣) النص الحرفى لعبارة نقولا ترك هو « نزل أحد المشايخ الصغار ، وكان من مشايخ الأزهر ، وبدأ ينادى فى المدينة إن كل مؤمن موحد بالله عليه بجامع الأزهر ، لأن اليوم ينبغى لنا أن نغازى فى الكفار » ، مذكرات نقولا ترك ، نشر وترجمة وتعليق الأستاذ ڤيت ، ص ٢٨ من الأصل العربى .

ثانياً : إن الجامع الأزهر كان مكان حشد التجمعات الجماهيرية الإسلامية تتلقى فيه الأوامر ، أو الأسلحة ، أو الذخائر من قادة الثورة :[١]

ثالثاً : إن الحرب التي يخوضها أهل القاهرة المسلمون ، كانت حرب جهاد ديني ، استهدفت الانتصار لدين الإسلام ، ولم يطلق فيها الثوار الهتافات التي عرفتها مصر في القرن العشرين بوجه خاص مثل : مصر للمصريين ، أو يحيا الاستقلال التام ، ولم يهتف الثوار بحياة السيد محمد السادات زعيم الثورة ، أو باسم أي زعيم مصري آخر ، لأن أي زعيم مصري ، مهما بلغت مكانته ، ومهابته ، ونفوذه في نفوس الجماهير ، كان يتضاءل مركزه ، إذا قورن بسلطان الدولة العثمانية ، على أساس أنه سلطان المسلمين .

ويجمع على هذه الحقيقة المؤرخون والباحثون المصريون ، ممن عرفوا بالأصالة ، وسلامة الحكم والتقدير . فالأستاذ محمد شفيق غربال يذكر في بحث له : « ثار أهل القاهرة ثورتين عنيفتين ، وقام الفلاحون في الأقاليم كلما أتيحت لهم فرصة ، وقد ذكرنا من الأسباب ما يكفي لتفسير هذا الكره ، دون أن نلجأ إلى تعليله بانتحال تعبيرات من تاريخ الغرب في القرن التاسع عشر ، والتاريخ الصحيح لا يجد في الفتن الشعبية بالقاهرة والأقاليم ، إلا باعثاً إيجابياً واحداً ، هو الرغبة في العودة لما ألفه الناس ، ولا يمكن تسمية ما ألفوه استقلالا ، وإنما اسمه الوحيد حكم المماليك تحت السيادة العثمانية »[٢] ، ثم يقول عن السيد محمد السادات قائد الثورة : « إنه كان من أكثر

(١) تظهر الفروق واضحة تماماً بين الأزهر في سنة ١٧٩٨ ، حين كان مركز ثورة دينية ، وبين الأزهر في سنة ١٩١٩ ، حين غدا مركز ثورة وطنية ، جمعت عنصري الأمة المصرية ، وتردد الأقباط على جامع الأزهر ، يخطبون من فوق منبره ، داعين إلى الثورة من أجل الحرية والاستقلال. وقد تضامن المسلمون والأقباط تضامناً ، برزت معه وحدة الأمة المصرية ، وصنع الأهالي أعلاماً جديدة ، رسموا فيها الصليب متعانقاً مع الهلال .

(٢) محمد شفيق غربال : الجنرال يعقوب ، والفارس لاسكاريس ، ومشروع استقلال مصر في سنة ١٨٠١ . القاهرة ١٩٣٢ ، ص ١٥ .

العلماء نفوراً من الفرنسيين وما أحدثوه، ومن أشـــدهم سعياً لإعادة الحكم العثمانى »[١] . ويصور الأستاذ الدكتور أحمـــد عزت عبد الكريم ثورة القاهرة الأولى بأنها انفجار للشعور الدينى عنـــد المصريين ، فهو يقول : « وظل الفرنسيون يحكمون البلاد نحـــو ثلاث سنين ، تحقق الشعب خلالها أن هؤلاء المغيرين يخالفونه فى الدين ، ويخالفونه فى اللغة ، ويخالفونه فى الحياة الاجتماعية التى يحياها : رآهم يقيمون المراقص العامة ، ورأى لهم طرائق فى معـــاملة النساء لم يعهدها ، ورآهم يحتمون عليه أموراً لم يألفها ، فاعتقد أن ذلك تدخل منهم فيما لايعنيهم : كدفن الموتى خارج المـــدن، ورش الشوارع بالمـــاء ، وتعليق الفوانيس ، ورآهم يقومون بأعمال رابته ، وأقلقت باله ، كهدم أبواب الحارات ، وما شاكل ذلك . ومن ثم تهيأت الأسباب لينفجر الشعور الدينى عند المصريين فى ثورة جامحة فى القاهرة ، وكثير من مدن الأقاليم »[٢] .

ولدينا دليل مادى ، على أن العاطفة الدينية كانت تسيطر على تصرفات المصريين فى ذلك الوقت ، وأنها ازدادت بروزاً ووضوحاً فى توجيه الأحداث فى مصر ، منذ أن دخل الفرنسيون البلاد . كان عدد من المماليك قد وقعوا أسرى فى أيدى الفرنسيين فى أثنـــاء المعارك التى خاضوها ببسالة ضد الفرنسيين : ولكن سرعان ما تناسى الشعب المصرى المظالم التى انهالت عليه إبان حكم المماليك الجائر ، وبخاصة على عهـــد الحكم الثنائى الذى تولاه إبراهيم باك ومراد باك . فمـــا أن انتصر الفرنسيون بسلاح مدفعيتهم الرهيب على فرسان المـــاليك ، وأذلوهم حتى أصبح هؤلاء المماليك موضع الشفقة والرثاء من المصريين ، وتبخرت الكراهية التى كان يشعر بهـــا الشعب نحوهم ، ونظـــر

(١) المرجع السابق ، ص ١٦ .

(٢) دكتور أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم فى عصر محمد على ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢١ .

لهم على أنهم إخوة له فى العقيدة الدينية ، وتجلى هذا الشعور فى نفوس مختلف طبقات الشعب ، من كبار المشايخ علماء الأزهر ، إلى رجل الشارع الفقير ، تدخل علماء الأزهر أعضاء الديوان لدى بونابرت كى يطاق سراح أسرى المماليك ، ونجحت الوساطة ، ولاذ المماليك بالجامع الأزهر ، حيث لقوا عطف الفقراء قبل الأثرياء . وكانت الوشيجة الدينية هى العامل الأول فى هذا التعاطف : يصف الجبرتى هذا الشعور النبيل وهو يستعرض حوادث شهر صفر ١٢١٣ (١٥ يوليو — ١٢ أغسطس ١٧٩٨) فيقول : « تشفع أرباب الديوان فى أسرى المماليك ، فقبلوا شفاعتهم وأطاقوهم ، فدخل الكثير منهم إلى الجامع الأزهر ، وهم فى أسوأ حال ، وعليهم الثياب الزرق المقطعة ؛ فمكثوا به يأكلون من صدقات الفقراء المجاورين به ، ويتكففون المارين ، وفى ذلك عبرة للمعتبرين » (١) :

وهناك تعليق دقيق على هذه الحادثة ، وعلى رواية الجبرتى لها ، وقد صدر هذا التعليق عن الأستاذ ج . كرستوفر هيرولد J. Christopher Herold فقال : إن المماليك والعثمانيين مسلمون ، حقيقة أنهم قد يعتصرون أرزاق المصريين ، ويستولون على أملاكهم ، ولكنهم إخوة للمصريين فى الدين ، ثم قال : إن الجبرتى مسلم مستنير ، وعبارته تحمل الكثير مما يعتبره الإسلام خلقاً جديراً بالإعجاب العظيم : وهو أن يقدم المظلومون الطعام إلى ظالميهم المنهزمين بدافع الشعور بالأخوة فى العقيدة الدينية ، أكثر من الشعور بالشفقة عليهم (٢) . وهناك أيضاً أحد كبار الصحفيين النابهين فى مصر المعاصرة ، وصاحب جريدة « كوكب الشرق » ، وهو الأستاذ أحمد حافظ عوض ، كان أسبق

(١) الجبرتى ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ١٢ .

(٢) الترجمة العربية لكتاب « بونابرت فى مصر » ؛ ص ١٩٥ .

من كرستوفر هيرولد فى تصوير الشعور الدينى الفياض لدى الشعب المصرى فقال : إن المصريين كانوا على عهد الحملة الفرنسية متعلقين بحكم المماليك الذين لم يكونوا يقلون فى الأجنبية عن الفرنسيين ، سوى أن أولئك كانوا مسلمين ، وإن كان إسلامهم ضعيفاً ، وهؤلاء غير مسلمين (١) ».

هذا هو موقف الشعب المصرى من المماليك إبان الحكم الفرنسى ، وهو موقف أملاه التعاطف الدينى ، وهذه هى نظرته إليهم ، وهى نظرة قائمة على الإخاء فى الدين ، وقد شكل ذلك الموقف وهذه النظرة العلاقات بين الشعب المصرى وبين العثمانيين . وقد وقع حادث قبيل اندلاع ثورة أكتوبر ١٧٩٨ يدل على مدى تعلق الشعب المصرى بالعثمانيين ، وأنه كان ينظر إليهم على أنهم حماة الإسلام ، المدافعون عن دياره .

كان أحد العسكريين العثمانيين معتقلا فى الإسكندرية ، ثم أطلق الفرنسيون سراحه ، وجاء إلى القاهرة فى ١٤ من سبتمبر ١٧٩٨ ، وذهب إلى منطقة الأزهر لزيارة المشهد الحسينى ، ولم تكد تقع أعين الجماهير عليه حتى ابتهجوا لمقدمه ، وتزاحموا على رؤيته ، وكأن دهوراً طويلة قد مرت دون أن يروا الجنود العثمانيين ، أو عساكر سلطان المسلمين ، واختلفت تفسيراتهم لمجيئه ، وذهبوا فى ظنونهم مذاهب شتى ، فقالوا : « إن هذا رسول إلجى (٢) ، حضر من عند

(١) أحمد حافظ عوض ، فتح مصر الحديث ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٠٥ .

(٢) إلجى ، لفظة تركية ، معناها سفير ، وهى تكتب أحياناً بالجيم المعطشة فى إحدى ثلاث صور : إلجى ، آلجى ، إيلچى .

ولكن الكلمة الأكثر استعمالا فى المصادر التاريخية الخاصة بمصر إبان الحكم العثمانى هى إلجى ، وهى تتكون من مقطعين : ال معناها السلم ، أو السلام ، أو التحالف ، والثانى چى ومعناها رسول السلام .

والأتراك العثمانيون يستخدمون فى هذا الصدد ثلاث مصطلحات :

بيوك إيلچى	ومعناها سفير .
إيلچى مرخص	ومعناها وزير مفوض .

السلطان بجواب للفرنسيس يأمرهم بالخروج من مصر » ، وتقاطرت الجماهير نحو المشهد الحسيني ، وتجمهروا في المنطقة . ونقل رجال المخابرات الفرنسية تفاصيل هذا الحادث إلى بونابرت ، وأضافوا إليه أن خطاباً ورد إلى المشايخ علماء الأزهر ، وأنهم أخفوه . ويبدو أن هذا النبأ بشقيه أثار بونابرت ، فأسرع في موكب كبير من الفرسان والمشاة إلى دار الشيخ محمـــد السادات ، على مقربة من مسجد الإمام الحسين ، وكان وقت القيلولة ، والشيخ منحرف المزاج ، فانزعج وهبط من الدور العلوي لمقابلة بونابرت ، وهو لا يعـــلم السبب في حضوره إلى داره في مثـــل ذلك الوقت ، وعلى تلك الصورة . واستفسر بونابرت عن الخطاب الذي ورد إليه ، فقال إنه لا يعرف عنه شيئاً ، وطال الحديث بينهما ما يقـــرب من ساعة ، ثم خرج بونابرت وعاد في موكبه ماراً بباب مسجد الحسين ، وكان الزحام قد اشتد داخل المسجد وخارجه ، والجميع يرنون بأبصارهم نحو القادم العثماني ، فلما شاهدوا بونابرت استبد بهم الغضب ، وصاحوا بكلمة واحدة انطلقت من حناجرهم في صوت رهيب دوي كالرعد : « الفاتحة »[٣] ، فشخص بونابرت إليهم ، واستفسر من مترجميه عن معنى كلمة « الفاتحة » ، فلطفوا له القـــول وقالوا له : « إن المصريين

= أورته إيلچي ومعناها وزير مقيم .

ويستخدم الجبرتي لفظة إيلچي في يومياته بمعنى رسول صاحب مقام رفيع ، موفد من قبـــل السلطان ، أو الصدر الأعظم ، في مهمة رسمية خطيرة .

انظـــر :

Barbier de Meynard; Dictionnaire turc-français, Paris, 2 vols., 1881 - 1886, vol. I ,p. 105, et p. 235.

[٣] Dozy, Supplément aux dictionnaires arabes. 2 éd., Leyde-Paris, 1927. t. I, p. 33.

يدعون لك ، وذهب إلى داره ، وكانت نكتة غريبة ، وساعة اتفاقية عجيبة ، كاد ينشأ منها فتنة[(١)] » .

تخلص من هذا كله إلى أن ثورة أكتوبر ١٧٩٨ كانت ثورة دينية تنادى إليها رجال الأزهر ، واعتمدوا على الإثارة الدينية ، وكانت الدعوة إلى المشاركة فى الثورة مقصورة على المسلمين ، وقام الأزهريون بالدور الرئيسى فيها ، سواء فى التخطيط لها ، أو فى زعامتها ، أو فى المشاركة فى أحداثها مشاركة إيجابية فعالة ، وهم الذين تحملوا نصيبهم موفوراً من ويلاتها ، كما استهدف معهدهم العتيد — الجامع الأزهر — لقصف المدفعية الفرنسية قصفاً شديداً ، ثم انتهاك جنود الجيش الفرنسى حرماته :

ثورة القاهرة ثورة نظيفة

وكما كانت ثورة القاهرة التى اشتعلت فى أكتوبر ثورة دينية ، كانت أيضاً ثورة نظيفة ، لم يتطاول الثوار المسلمون فيها على إخوانهم الأقباط ، ولم تقع اعتداءات على أموالهم ، أو ممتلكاتهم ، أو أشخاصهم ، بل وجه الثوار طاقاتهم كلها لمحاربة الفرنسيين ، وهذه ظاهرة جديرة بالتسجيل ، لأن المجتمع فى مصر كان مجتمعاً دينياً متزمتاً ، ولكن كانت هناك مظاهر تعاطف بين المسلمين والأقباط ، أشار الجبرتى إلى بعضها[(٢)] ، ولذلك اختلفت ثورة أكتوبر عن الثورة التى اندلعت فى القاهرة فى ٢٠ من مارس ١٨٠٠ ضد الفرنسيين ، إذ وقعت فيها اعتداءات طائفية مؤسفة ، ومرد هذا الاختلاف إلى أن قيادة الثورة الأولى كانت مصرية خالصة ، تمثلت فى رجال الأزهر ، بينما كانت قيادة الثورة الثانية يتقاسمها العثمانيون والمماليك والمصريون ، وكان

---

(١) الجبرتى ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ص ١٧ — ١٨ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٥ .

موقف الزعماء المصريين مثـل الشيخ محمد السادات ، والسيد عمـر مكرم ، والشيخ الجوهرى ، والسيد أحمد المحروقى ، والحاج مصطفى البشتيلى موقفاً سليما ونبيلا : وجهوا الشعب لمحاربة الفرنسيين دون سواهم ، ووزعوا الثوار على مختلف مواقع العاصمة وأطرافها ، ووراء المتاريس ، وقامـوا بالإنفاق عليهم ، وبدت من الزعماء المصريين صور رائعة من التكافل الاجتماعى[1] ، أما العثمانيون والمماليك مثل ناصف باشا ، ونصوح باشا ، والأمير إبراهيم بك ، ومحمد بك الألفى ، وحسن بك الجداوى ، وعثمان بك الشرقاوى ، وعثمان بك الأشقر ، فكانوا يأمرون الثوار بالاعتداء على الأقباط ، وقد ذكر الجبرتى أن نصوح باشا صاح فى العامة : « اقتلوا النصارى ، وجاهدوا فيهم »[2] ، وهى دعوة منكرة ، لم يصدر مثلها عن زعماء الثورة المصريين :

ثورة القاهرة ثورة إنسانية

وهناك خصيصة ثالثة لثورة القاهرة ، وتتلخص فى أن الطابع الإنسانى كان فيها واضحاً ، بل بارزاً ، فعلى الرغم من أن ثورة أكتوبر كانت على غرار الثورات الحمـراء التى تنـدلع فى كل زمان ومكان ، عبر الأعصر التاريخية حين يحاول المشتركون فيها التنكيل بأعدائهم ، أو خصومهم ، إلا أن هذه الثورة قد حفلت وسط الصور الدامية بصور أخرى تنبض بالمـروءة والإنسانية ، ورقة الشعور . وقد ظهر هذا الطابع الإنسانى أكثر ما يكون ظهوراً بين أفراد الطبقة المتوسطة من سكان القاهرة ، فقد أظهروا فى أحلك

---

(١) يقول الجبرتى : « باشر السيد أحمد المحروقى ، وباقى التجار ، ومساتير الناس ، الكلف والنفقات ، والمآكل والمشارب ، وكذلك جميع أهل مصر ، كل إنسان سمح بنفسه وبجميع ما يملكه ، وأعان بعضهم بعضاً ، وفعلوا ما فى وسعهم وطاقتهم من المعونة » .

ج ٣ ، ص ٩٤ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ص ٩١ — ٩٢ .

ساعات الثورة عواطف نبيلة ، ومشاعر سامية ، حين آووا فى بيوتهم الفرنسيين العزل من السلاح ، وأضفوا عليهم الحماية ، وقدموا لهم ما كانوا فى حاجة إليه من طعام ، فى وقت عزت فيه الأقوات ، وتوقفت تماماً حركة البيع والشراء . وقد كشف الفرنسيون أنفسهم عن هذه الحقائق ، ومنهم من كان موجوداً بالقاهرة ، وشاهد أحداث الثورة . نذكر منهم دينو ڤيڤا (١) Denon Vivant فقد قال فى كتابه : « لئن كان السوقة وبعض الكبراء ، وكل رجال الدين ، قد ظهروا متعصبين وقساة فى ثورة القاهرة ، فإن الطبقة المتوسطة ، وهى فى جميع البلاد أكثر الناس عملا بأحكام العقل والفضيلة ، برهنت على أسمى عواطف الإنسانية والكرم ، على الرغم من فوارق العادات والدين واللغة ، وهى فوارق جعلتنا أغراباً عنهم (أى عن المصريين) ، فبينما التحريض على القتل كان يجرى من شرفات المآذن بغيرة دينية ، وبينما كان شبح الموت والمذابح والأشلاء تنتقل فى الشوارع ، كان جميع أصحاب المنازل التى يقطنها فرنسيون يسارعون إلى إنقاذهم وإخفائهم ، وإمدادهم بحاجتهم فى الحال . أخبرتنا سيدة تقيم فى الحى الذى نسكن فيه أن حائطنا هو حائط مشترك ، يفصل بينها وبيننا . وإذا هوجمنا فليس أمامنا إلا أن نهدمه ونلجأ إلى مقر الحريم فى دارها . وحدث أن أمدنا أحد الجيران بالقوت مما كان يختزنه لديه دون أن نرجوه فى شىء من ذلك ، مع أنه لم يكن هناك شىء يمكن شراؤه فى المدينة ، وكان كل شىء يوحى بقرب وقوع مجاعة . أزال هذا الجار كل العلامات

---

(١) كان دينو ڤيڤا ، أحد أعضاء لجنة العلوم والفنون ، وعضواً بمجمع مصر العلمى . وقد اختار بونابرت قصر حسن كاشف شركس بالناصرية مقراً لهذا المجمع ، وهو من أجمل قصور المماليك ، واستولى على القصور المجاورة له ، والتى كان المماليك قد شيدوها ، وقد خصصها بونابرت لسكنى أعضاء المجمع وبعثة العلوم والفنون ، كقصر قاسم بك ، وقصر إبراهيم كتخدا السنارى ، وبيت أمير الحج ، المعروف بأبى يوسف .

التى يمكن أن تدل على مكاننا وجلس يدخن الشُّبك أمام بابنا ، ليصرف عنا أنظار المهاجمين ويجعلهم يعتقدون أن هذا المنزل هو داره ....»[(١)] .

وأخذ المؤلف يصف حادثاً ثالثاً ، على غرار الحادثين الأولين[(٢)] ، وخلص من ذكر هذه القصص الثلاث إلى القول بأنه « فى الاستطاعة إيراد عدد من قصص أخرى ، تنم عن رقة الإحساس ، وتبرهن على أن العواطف الإنسانية

(1) Si la papulace, quelques grands, et tous les dévots se montrerent fanatiques et cruels dans la révolte du Caire, la classe moyenne, celle où dans tous les pays résident la raison et la vertu, fut parfaitement humaine et généreuse, malgré les mœurs, la religion et la langue, qui nous rendoient (*sic*) si étrangers les uns aux autres: tandis que des galeries des minarets on excitoit (*sic*) saintement au meurtre, tandis que la mort et le carnage parcouroient (*sic*) les rues, tous ceux dont les Français habitoient (*sic*) les maisons s'empressoient (*sic*) de les sauver, de les cacher, de venir au-devant de leurs besoins. Une vieille dame du quartier où nous demeurions nous fit dire que notre mur étoit (*sic*) mitoyen, que si nous étions attaqués nous n'avions que à l'abatre, et que son harem seroit (*sic*) notre asyle (*sic*). Un voisin, sans que nous l'en eussions prié, nous fit des provisions aux dépens des siennes, tandis qu'on ne trouvoit (*sic*) rien à acheter dans la ville, et que tout annonçoit (*sic*) la disette: il ôta tous les signes qui pouvoient (*sic*) faire remarquer notre demeure, et vint fumer devant notre porte pour écarter les assaillants, en leur faisant croire que la maison étoit (*sic*) à lui....."

Denon , Vivant;Voyage dans la Basse et la Haute Egypte pendant les caempagnes du Général Bonaparte. Paris,1803, Quatriéme édition, 2 vols., t. I, pp. 205-206.

(٢) كان شابان يسيران فى أحد الشوارع ، فاختطفهما أشخاص مجهولون ، وذهبوا بهما إلى أحد المنازل ، واعتقد الشابان أنهما عما قليل سيقتلان على أيدى هؤلاء الأشخاص ، ولما مضى بعض الوقت دون أن يحدث لهما سوء ، أعتقدا أن خاطفيهما يحتفظون بهما لتعذيبهما تعذيبا وحشيا ، يعدون أدواته ووسائله عن تفكير وروية ، ولما كان فى حكم الاستحالة التفاهم بين الخاطفين ، وبين الشابين المخطوفين لاختلاف اللغة بين الفريقين ، فقد أودع الخاطفون أولادهم لديهما كرهينة ، ودليل على حسن نيتهم نحو هذين الشابين .

انظر : المرجع السابق ، نفس الجزء ، ونفس الصفحة الأخيرة .

النبيلة تتجلى أشد ما تكون روعة فى الأوقات التى يبدو فيها أن العلاقات بين بنى الإنسان قد انقطعت تماماً » :

وقد أكد المـؤرخ الفرنسى المشهور ريبو Reybaud الطـابع الإنسانى فى ثورة أكتوبر ١٧٩٨ ، وقال : « إن جميع الفرنسيين تقريباً الذين التجأوا إلى بيوت الطبقة المتوسطة (١) ، قد وجدوا فيها أمناً تاماً ، وضيافة صادقة خالصة » (٢) ، وذكر القصص الثلاث التى سردها من قبله دينو ڤيڤا ، وعقب عليها بقوله : إنه قـد وقعت حوادث أخرى كثيرة مشابهة ، كشفت عن عواطف إنسانية نبيلة ، تجلت فى أفراد الطبقة المتوسطة من سكان القـاهرة الذين كان عليهـم أن يقفوا فى وجه مظاهر التعصب ، ولذلك فإن عواطفهم الإنسانية النبيلة تكون أكثر قيمة ، ووزناً وتقديراً فى مثل هـذه الملابسات التى عاش فيها أفراد الطبقة الوسطى . وأخيراً فإن هناك مؤرخاً فرنسياً محـدثاً أشاد بالمسلك النبيل لبعض سكان القاهرة حين عرضوا حياتهم للأخطار وهم ينقذون جنوداً فرنسيين كانوا مجردين من السلاح ومعزولين عن زملائهم ، وفوجئوا بالثوار يقبضون عليهم يريدون الفتك بهم ، فأنقذهم أهل القاهرة من موت محقق . وأخذ هذا المؤرخ المحدث يذكر نقلا عن ريشاردو Richardot بعض الأمثلة على هذا الشعور الإنسانى (٣) .

(١) استخدم ريبو عبارة « المنازل التركية » "les maisons turques" وهو يقصد منازل الطبقة المتوسطة من المصريين سكان القاهرة ، كما يفهم من سياق تعليقه المترجم إلى اللغـة العربية فى سياق هذه الدراسة ، أما تعليقه كما سجله قلمه باللغة الفرنسية فكان :

Une foule de traits semblables révélèrent, *dans la classe moyenne des habitans* (*sic*) *du Kaire*, des sentimens(*sic*) d'humanités...

Reybaud Louis et autres; ouvr. cit., t. IV, pp. 183 - 184

(2) Op. cit., p. 183.

(3) Bainville Jacques; L'Expédtiton Française en Egypte. (1798 - 1801).

dans:

Précis de l'Histoire d'Egypte. par divers Historiens el Archéo - logues. 4 vols. Tome III, Le Caire, 1933, deuxième partie. pp. 150 - 151.

العلاقة بين الشيخ السادات والفرنسيين

ونرى أن نشير هنا إشارة سريعة إلى العلاقة بين الشيخ محمد السادات رئيس لجنة الثورة ، وبين رجال الاحتلال الفرنسي : كان السادات على رأس علماء الأزهر الذين رفضوا عضوية الديوان ، منذ اليوم الأول الذى أصدر فيه بونابرت قراراً بتشكيل ديوان القاهرة ، ومع ذلك فقد كان موضع رعاية خاصة من بونابرت . أهدى إليه بونابرت فى أوائل شهر سبتمبر ١٧٩٨ خاتماً من الماس[١] ، كما كان يتردد عليه فى داره القريبة من المشهد الحسينى ، ولكنه كان يتوجس خيفة من نشاطه ، ويحسب حساباً كبيراً لمكانته العالية فى المجتمع القاهرى بالذات ، وكان يعتقد أنه على صلات وثيقة بالأمراء المماليك ، وبعملاء السلطان ، وأنه يتلقى منهم رسائل سرية . وفى مذكرات بونابرت مايشير إلى أن هذا الاتهام كان صحيحاً ، وأنه كان ضالعاً مع خصوم الحكم الفرنسى[٢] ، ومع ذلك لم يكف بونابرت عن التودد إليه ، رغبة فى استمالته ، وقد أصدر بونابرت قراراً فى ٢٣ من أغسطس ١٧٩٨ بتشكيل لجنة برياسة الشيخ محمد السادات وعضوية كارلو دى روستى Carlo de Rosetti قنصل النمسا العام ، والجنرال جونو Junot من قادة الجيش الفرنسى للنظر فى الظلامات التى يتقدم بها الأفراد من مصادرة ممتلكاتهم أو أموالهم . ونص القرار على أن تعقد هذه اللجنة جلساتها يومياً من الساعة الثامنة صباحاً حتى الظهر[٣] : وقد رفض الشيخ السادات عضوية اللجنة . ولم يرد فى المصادر الفرنسية ما يدل على أن هذه اللجنة باشرت مهمتها . ويهمنا أن تعيين الشيخ محمد السادات رئيسا لهذه اللجنة دليل على ماكان يكنه بونابرت له من تقدير وإجلال

---

(١) الجبرتى ، مصدر سبق ذكره ج ٣ ، ص ١٧ .

(2) Napoléon Ier; Guerre d'Orient. etc., ouvr. cit., t. I, pp. 244-245.

(3) Correspondance de Napoléon; t. IV, doc. no. 3093. en date du 6 fructidor, VIe, année de la République. (23 août 1798).

عميقين : كما يوجد بين أوراق بونابرت أمر أصدره فى السابع عشر من شهر سبتمبر ١٧٩٨ إلى بوسيلج Poussielgue مدير الشئون المالية بالجيش الفرنسى ، يوصيه خيراً بالشيخ محمد السادات ، ويطلب منه الإبقاء على جميع امتيازاته ، ومنها جميع القرى الداخلة فى التزام الشيخ السادات ، والأراضى الزراعية ، والمرتبات المقررة له من قبل من ديوان الروزنامة (١) . وعلى الرغم من مظاهر الاحترام التى أوصى بونابرت بإضفائها عليه ، فقد ظل ثابتاً على مبدئه ، لم يبدله تبديلا ، فرأس لجنة الثورة فى أكتوبر ١٧٩٨ ،

ولما تم إخماد الثورة استجوب الفرنسيون الشيخ محمد السادات ، فنفى عن نفسه تهمة التحريض على الثورة ، وقرر أنه كان مريضاً ، فلم يشترك فى أحداثها . ولم يأخذ بونابرت بهذا الدفاع ، وفكر فى توقيع عقوبة الإعدام عليه ، ولكنه عدل عن هذا الرأى ، لأنه أدرك أن الضرر من إعدامه أكثر من نفعه ، إذ أن إعدامه يجعل منه شهيداً فى نظر الشعب ، وكان يظفر بالاحترام العميق ، والتقدير البالغ فى كافة بلاد الشرق (٢) :

---

(1) "Le Cheih Sâdât avait reçu 25,000 paras de la Monnaie, par anticipation sur ce qui lui était dû, le Ier de Moharrem; mon intention est qu'il ne soit pas recherché sur ces 25,000 paras, que vous l'assuriez que tous les villages qu'il possède lui resteront, et que les titres lui en seront remis au moment de l'enregistrement, enfin que vous traitez avec lui pour lui donner un équivalent, en terres, des pensions qu'il avait sur la Monnaie. Voyez- le ou écrivez lui pour tous ces objets".

Voir:

Correspondance de Napoléon, t. IV, doc. no. 3332. le Ier jour complémentaire, VIe année de la République. (17 septembre, 1798.)

(2) "... Il faudrait lui (le cheykh Sadāt) faire couper la tête. Dans la situation des esprits, cette mort aurait plus d'inconveniens (*sic*) que d'avantages, son nom était vénéré de tout l'Orient; c'eût été en faire un martyr."

Napoléon 1er; Guerre d'Orient, etc., ouvr. cit., t. I., p. 254.

وذكر بونابرت حديثاً مثيراً ، دار بينه وبين الجنرال كليبر ، وكان الأخير قد جاء من الإسكندرية ، وذهب لمقابلة بونابرت فى مقر القيادة العامة للجيش الفرنسى فى ٢٢ من أكتوبر ١٧٩٨ ، ووقع بصره على الشيخ السادات ، وكان يبدو على الشيخ أنه شبه مقبوض عليه .

بونابرت — إنه زعيم الثورة .

كليبر — ولماذا لاتعدمه رمياً بالرصاص ؟

بونابرت — إن هذا الشعب يختلف عن شعبنا ، وعاداته تختلف عن عاداتنا . يجب أن يكون لهذا الشعب زعماء ، وإنى أفضل أن يكون زعماؤه من مثل هذا الطراز الذى لايستطيع أن يركب حصاناً ، أو يمسك سيفاً ، إنى أفضل هذا الطراز من الزعماء ، على طراز زعماء مثل مراد بك وإبراهيم بك ، وإن إعدام هذا الرجل العجوز الضعيف لن ينجم عنه أى نفع ، بل سيكون له نتائج مؤسفة ، بالنسبة لنا ، غير ما تظن (١) »

* * *

وتأزمت العلاقات مرة أخرى بين الشيخ السادات وبين بونابرت ، حين أمر الأخير فى ٢٦ من يونيو ١٧٩٩ بعزل ملا زادة ابن القاضى العثمانى ، واعتقاله فى القلعة . اعترض الشيخ السادات على هذا القرار أمام رسول بونابرت ، وقال : إذا كان القاضى العثمانى قد انضم إلى وكيل الباشا ، وغادر معه مصر ، فيجب ألا يؤخذ الابن بما فعله الأب ، وهذا الابن من أبناء العائلات الكريمة وهو بعيد عن موطنه الأصلى ، ووالدته وسائر أفراد أسرته فى قلق زائد وحزن عظيم ، وأضاف إلى ذلك قائلا : إن الفرنسيين يقولون دائماً إنهم أصدقاء للعثمانيين ، ولكن اعتقال ابن القاضى العثمانى يعصف بهذا الادعاء ، ويسىء الظن بالفرنسيين ، ويكذب أقوالهم فى نظر المصريين .

(1) Op. cit., p. 257.

ولما عاد الرسول إلى بونابرت ، وترجم إليه ما قاله الشيخ السادات ، اشتد حنقه عليه ، وأمر بإحضاره ، وأنبه على موقفه ، وحجزه إلى ساعة متأخرة من الليل ، وتدخل كل من الشيخ محمد المهدى ، والمندوب الفرنسى (القوميسير) بديوان القاهرة[١] ، واستطاعا تهدئة بونابرت ، وسمح للشيخ بالانصراف . قال الجبرتى : « فتكلم بينهما الشيخ محمد المهدى ، ووكيل الديوان الفرنساوى بالديوان ، حتى سكن غيظه ، وأمره بالانصراف إلى منزله ، بعد أن عوقه[٢] حصة من الليل »[٣] .

* * *

واستمر الشيخ محمد السادات تتمثل فيه أروع صور المقاومة للاحتلال الفرنسى . لقى الكثير من صنوف المهانة والاضطهاد والتعذيب على أيدى الفرنسيين ، ولكن لم تلن له قناة . كان من زعماء ثورة القاهرة الثانية التى نشبت فى ٢١ مارس ١٨٠٠ ، واستمرت ثلاثة وثلاثين يوماً ، ولما أخمد الفرنسيون الثورة فى ٢١ أبريل ، مستخدمين أعنف الوسائل ، من إحراق أحياء بأكملها ، وقصف شديد مركز بالمدفعية ، اعتقلوا الشيخ محمد السادات . وكان هذا الشيخ الجليل الطاعن فى السن ينام على التراب ، ويتوسد الحجر ، وأمر الجنرال كليبر بضربه ثلاثين عصا يومياً ، نصفها فى الصباح ، ونصفها فى المساء . وكان الجنود يضربونه أحياناً فى حضور زوجته ، إمعاناً منهم فى إيلام الزوجة التى كانت تشاهد هذا المنظر ، والدموع تنهمر من عينيها . واختصه الفرنسيون بقدر كبير من الغرامة الحربية التى فرضها كليبر على سكان القاهرة[٤] ، وصعد إليه فى القلعة برتلمى اليونانى أو برطامان أو

(١) كان هذا المندوب هو جلوتيه Gloutier .

(٢) عوقه ، معناها حجزه .

(٣) انظر تفاصيل هذه الأزمة فى الجبرتى ، ج ٣ ، ص ص ٧٢ – ٧٣ .

(٤) بلغت قيمة الغرامة اثنى عشر مليون فرنك ، يدفع نصفها نقداً ، والنصف الآخر عروضاً كالحلى الذهبية والتحف وما إليها ، وكان نصيب الشيخ السادات من هذه الغرامة مائة وخمسين ألف ريال ، أى ما يقرب من ثمانمائة ألف فرنك ، وذلك بعد أن أضيفت إليه الغرامة المقررة على الشيخ العنانى ، وكان الأخير قد هرب ؛ وكانت داره قد احترقت .

« فرط الرمان » ، ومعه زين الفقار كتخدا بونابرت (١) ، فطلب منهما الإذن له في النزول إلى داره ، لتدبير المـــال المطالب بدفعه ، وفاء للغرامة المفروضة عليه . قال الجبرتي وهو يصور هذه المشاهد الدامية : « ونزل الشيخ السادات وركب إلى داره ، فذهب معه عشرة من العسكر ، وجلسوا على باب داره ، فلما مضت حصة من الليل حضر إليه مقدار عشرة من العسكر أيضاً ، فأركبوه ، وطلعوا به إلى القلعة وحبسوه في مكان . فأرســـل إلى عثمان باك البرديسي ، وتداخل عليه فشفع فيه . فقالوا له : أما القتل فلا نقتله لشفاعتك ، وأما المال فلابد من دفعه ، ولابد من حبسه وعقوبته حتى يدفعه ، وقبضوا على فراشه ومقدمه (٢) وحبسوهما ، ثم أنزلوه إلى بيت قائمقام (٣) ، فمكث به يومين ، ثم أصعدوه إلى القلعة ثانياً ، وحبسوه في حاصل (٤) ، ينام على التراب ويتوسد بحجر ، وضربوه تلك الليلة ، فأقام كذلك يومين ، ثم طاب زين الفقار كتخدا ، فطلع إليـــه هو وبرطلمان : فقال لهما أنزلوني إلى داري حتى أسعى وأبيع متاعي وأشهل حالي (٥) ، فاستأذنوا له ، وأنزلوه إلى داره ، فأحضر ما وجده من الدراهم ، فكانت تسعة آلاف ريال معاملة ، منها ستة آلاف ريال فرانسة ، ثم قوموا (٦) ما وجدوه من

---

(١) بمقتضى النظام الذى وضعه بونابرت لديوان القاهرة الجديد الذى أنشأه فى ٢١ من ديسمبر ١٧٩٨ بعـــد تعطيل الديوان الأول ، أنشئت وظيفتان لمندوبين ، أحدهما فرنسى وهو جلوتييـــه الذى سبق أن أشرنا إليه ، والآخر مسلم هو الأمير زين الفقار ، وكان يطلق عليه : كتخدا بونابرت أى وكيل بونابرت وجاء فى وثائق بونابرت أن اسمه : ذو الفقار .

Carrespondance de Napoléon; t. v, doc. no. 3785, en date du Ier Nivôse an VII de la République (21 decembre 1798).

(٢) المقدم هو وكيل أعمال شخص كبير ، له نشاط واسع ، وتستخدم أيضاً بمعنى وكيل دائرة أعمال ، كما تستخدم فى مجالات الطوائف والطرق الدينية بمعنى الشخص الموكل بإعطاء العهد بالنيابة عن شيخ الطريقة .

(٣) حاكم القاهرة العسكرى ، وقائد حاميتها .

(٤) الحاصل ، هو الغرفة التى تستخدم لخزن البضائع .

(٥) انظر ما ذكره نقولا ترك عن ختم بيته ومحلاته ، وكيف باع الفرنسيون أمتعتـــه ، ص ٩٠ من الأصل العربى ، نشر وترجمة وتعليق الأستاذ ڤييت .

(٦) قوموا ، أى قدروا قيمتها أو ثمنها .

المصاغ والفضيات ، والفراوى والملابس وغير ذلك بأبخس الثمن ، فبلغ ذلك خمسة عشر ألف فرانسة ، فبلغ المدفوع بالنقدية والمقومات أحداً وعشرين ألف فرانسة ، والمحافظون عليه من العسكر ملازموه، لا يتركونه يطلع إلى حريمه ولا إلى غيره . وكان وزع حريمه وابنه إلى مكان آخر ، وبعد أن فرغوا من الموجودات جاسوا خلال الدار يفتشون، ويحفرون الأرض على الخبايا، حتى فتحوا الكنيفات[1]، ونزلوا فيها فلم يجدوا شيئاً ، ثم نقلوه إلى بيت قائمقام ماشياً ، وصاروا يضربونه خمسة عشر عصا فى الصباح ، ومثلها فى الليـل ، وطلبوا زوجته وابنه فلم يجدوهما، فأحضروا محمد السندوبى تابعه وقرروه[2] حتى عاين الموت ، حتى عرفهم بمكانهما، فأحضروهما وأودعوا ابنـه عند أغات الإنكشارية ، وحبسوا زوجته معه، فكانوا يضربونه بحضرتها وهى تبكى وتصيح ، وذلك زيادة فى الإنكاء : ثم إن المشايخ وهم: الشرقاوى ، والفيومى، والمهدى، والشيخ محمد الأمير ، وزين الفقار كتخدا ، تشـفعوا فى نقلها من عنده، فنقلوها إلى بيت الفيـومى، وبقى الشيخ على حاله، وأخذوا مقدمه وفراشه وحبسوهما ، وتغيب أكثر أتباعه واختفوا ::::::::::: »[3] ،

وأضاف الجبرتى صورة أخرى من الاضطهاد الذى تعرض له الشيخ السادات فى الشهر التالى وهوالمحرم١٢١٥ (٢٥ مايو—٢٣ يونيو ١٨٠٠) فقال « أصعدوا فى الخامس من محرم الشيخ السادات إلى القلعة ، وكان أرسـل إلى كبار القبط بأن يسعوا فى قضيته ورهن حصصه، ويغلق[4] الذى عليه ، فردوا عليه بأنه لابد من تشهيل قدر نصف الباقى أولا ، ولا يمكن غير ذلك ، وأما الحصص فليست فى تصرفه، ولمـا تكرر إرسـاله للنصارى وغيرهم ، نقلوه إلى القلعة ، ومنعوه الاجتماع بالناس ، وهى المرة الثالثة »[5] :

(١) معناها المراحيض ، ومفردها كنيف أى مرحاض ، وهى تجمع كنف بضم الكاف والنون
(٢) معناها أكرهوه على الاعتراف ، عن طريق التعذيب البدنى .
(٣) الجبرتى، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ١٠٨ .
(٤) معناها يسدد ما عليه .
(٥) الجبرتى، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ١١٥ .

وقد أكد هذه الواقعة وزاد عليها الشيخ عبد الله الشرقاوى شـيخ الجامع الأزهر وهو يتناول وقائع ثورة القاهرة الثانية ، فقال إن الفرنسيين «باعوا جميع متاع الشيخ السادات ، فلم يف بثلث ما طلب منه ، فأخذوا منه فى نظير الباقى التزامه وتعلقاته ، ماعدا العقار والرزق ، والتزام الحريم » (١) .

ولبونابرت رأى خطير وصريح ، سجله فى مذكراته ، إذ قرر أن سوء المعاملة التى لقيها الشيخ السادات كانت سبباً غير مباشر فى قتل الجنرال كليبر . انتقد بونابرت إسراف الفـرنسيين فى تعذيب هـذا الشيخ وإهانته ، عقب إخمادهم ثورة القاهرة الثانية ، وقال إنهـم تغافلوا عن مركزه الممتاز ، وتناسوا أنه ينتمى إلى الأسرة النبوية الشريفة : وقد كان للقسوة التى لقيها صـدى أليم فى نفوس الشعب بعامة ، ورجال الأزهر بخاصة ، فلم ينسوا ما فعله كليبر بالشيخ السادات : ولمـا جاء سليمان الحلبى إلى مصر معتزماً قتل كليبر ، أقام فى الأزهر ، واستطالت إقامته فى المسجد قرابة ثلاثين يوماً ، ولكن تجاهل الأزهريون نية القاتل ، ووقفوا موقفاً سلبياً ، فلم يخطروا السلطات الفرنسية بمـا يبيته سليمان الحلبى من خطط لاغتيـال كليبر ، لأنهـم كانوا يرجون انتقاماً ذريعاً من كليبر (٢) .

وتعرض بونابرت مرة أخرى فى مذكراته لهذا الموضوع ، فقـرر أن ضرب الشيخ محمد السادات بالعصا أثار السخط العـام بين علماء الأزهر ، وامتد هذا السخط إلى سائر قطاعات الشعب المصرى ، وما لبثت أن احتدمت غضباً بلاد الشرق بأجمعها ، وقد دفع كليبر الثمن غالياً ، وانتقم مشايخ الأزهر

(١) الشيخ عبد الله الشرقاوى ، مرجع سبق ذكره ، ص ص ٥٧ - ٥٨ .

(2) Napoléon 1er; Guerre d'Orient. etc., ouvr. cit., t. I. p. 257

منه انتقاماً قاسياً [١] . ولا يزال إلى اليوم بعض المؤرخين الفرنسيين يشاطرون بونابرت رأيه، وينسبون اغتيال الجنرال كليبر إلى سوء معاملته للشيخ محمد السادات [٢] .

وللمرة الرابعة اعتقل الفرنسيون الشيخ محمد السادات ، وتم هذا الاعتقال فى أوائل شهر مارس ١٨٠١ عقب وصول الحملة البريطانية إلى الإسكندرية فى أول مارس ، وكانت بقيادة أدميرال لورد كايث Keith [٣] ، واستبد الانزعاج والاضطراب بالفرنسيين ، واستفسر الشيخ السادات عن سبب اعتقاله فى هذه المرة الرابعة ، فكانت الإجابة ، أنه اشتهر بمقته الشديد للفرنسيين ، وبمقدرته على إثارة عواطف الجماهير ، واستجابة الشعب له ، وهى ذرائع انتحلها الفرنسيون لتبرير اعتقاله . وقد ظل فى الاعتقال إلى أن تم جلاء الفرنسيين عن القاهرة . ويقرر الجبرتى أن اعتقاله الأخير قد تم « من غير إهانة » [٤] ، ونختلف مع الجبرتى فى هذا الوصف، لأنه ليس من الضرورى أن تلحق الإهانة بجسم الإنسان ، فهناك ماهو أبلغ من الإهانة الجسدية ، وهو إيلام النفس . لقد تعرض الشيخ السادات فى أثناء اعتقاله لمحنة أليمة، إذ توفى ابنه ، فلم يفرج الفرنسيون عنه ، وكل مافعلوه أنهم سمحوا له بالاشتراك فى تشييع الجنازة ، ونزل من القلعة وهو تحت الحراسة ، ولما انتهت الجنازة أعيد إلى المعتقل، وهو يبكى ابنه وفلذة كبده ، وقد كان يعلق عليه أعذب

---

(1) ibid. t. II, pp. 349-350.

(2) Bainville J; ouvr. cit., p. 151.

(٣) كانت هذه العمارة تحمل جيشاً بريطانياً بقيادة الجنرال سير رالف أبركومبى Sir Ralf Abercomby وتصحبها بعض سفن المدفعية العثمانية ، وقوة برية عثمانية ، وقد ظهرت العمارة تجاه الإسكندرية ، فى أول مارس ، وألقت مراسيها فى خليج أبى قير فى صباح اليوم التالى ، وأنزلت جنودها إلى شاطىء أبى قير فى ٨ مارس .

(٤) الجبرتى، مصدر سبق ذكره، ج ٣، ص ١٥٠ .

الآمال . ذكر الجبرتى وهو يترجم للشيخ محمد السادات : « ومات ولده الذى كان سماه محمد نور الله ، وهو معوق وممنوع[1] . فأذنوا له فى حضوره جنازة ولده ، فنزل وصحبته شخص حرسى منهم ، فلازمه حتى واراه ، وعاد به ذلك الحرسى[2] إلى القلعة ، وكان هذا الولد مراهقاً ، له من العمر اثنتا عشرة سنة ، كان فى أمله أن يكون هو الخليفة فى بيتهم من بعده ، ويأبى الله إلا ما يريد[3] » .

وبينما كان الشيخ السادات فى معتقله يعانى آلام الوحدة والحزن ، إذا به ينقل إلى مسجد سارية بالقلعة[4] ، وفوجىء بوجود أربعة من كبار المشايخ علماء الأزهر معتقلين فيه ، وهم : الشرقاوى ، شيخ الجامع الأزهر ورئيس

---

(١) معناها معتقل ، وهناك مصطلح تاريخى كان أكثر شيوعاً فى ذلك الوقت هو « وضع الإنسان تحت البسق » .

(٢) معناها الحارس .

(٣) الجبرتى ، مصدر سبق ذكره ، ج ٤ ، ص ص ١٩٢ ، ١٩٣ .

(٤) هو مسجد فى قلعة الجبل ، بالقرب من زاوية الشيخ محمد الكعكى ، ويسميه عامة الناس جامع سيدى سارية ، وتطلق عليه مصلحة الآثار مسجد سارية الجبل ، والشائع بين الناس أن هذا المسجد ينسب إلى صحابى جليل هو سارية بن زنيم بن عمرو بن عبد الله بن جابر بن [illegible] نسبه إلى كنانة ، وقد استعرض ابن جبير فى رحلته مشاهد الصحابة فى مصر ، فذكر منها مشهد سارية الجبل ، وقرر المقريزى فى خططه عند ذكر موضع القلعة نقلا عن [illegible] أن أبا الحسن الردينى دفن بخط سارية ، شرقى تربة الديلم بالقلعة ، [illegible] أن الشيخ محمد الكعكى مدفون بزاويته بالقرب من سيدى سارية ، ولكن لم [illegible] أن هذا الصحابى الجليل جاء إلى مصر ، أو مات بها ، أو دفن فيها ، وسارية هذا هو صاحب القصة المشهورة ، المنسوبة إلى عمر بن الخطاب ، وقد وردت هذه القصة فى [illegible] الصحابة » . ويجمع فريق من الباحثين على أن إنشاء هذا الجامع يرجع إلى العصر الفاطمى على أقل تقدير ، وأنه كان موضع رعاية الملوك والخلفاء والسلاطين لانتسابه إلى صحابى جليل ، وكانوا يلجأون إليه التبرك به ولحل قضاياهم الهامة . وقد جدد بناءه سليمان باشا الخادم الوالى العثمانى من قبل السلطان سليمان المشرع سنة ٩٣٥ هـ (١٥٢٨ م) ، وهذا المسجد مسجل فى مصلحة الآثار المصرية تحت رقم ١٤٢ (انظر : فهرس الآثار الإسلامية بمدينة القاهرة ، طبعة سنة ١٩٥١) .

ديوان القاهرة ، والمهدى ، والصاوى ، والفيومى ، وكان الأمر قد صدر باعتقالهم فى الساعة الرابعة من صباح ٢٥ من مارس ١٨٠١ ، بعد أن تأكدت الأنباء بتدهور مركز الفرنسيين الحربى فى مصر ، ثم صدر أمر لاحق فى أواخر مايو ، باعتقال الشيخ محمد الأمير .

مزيد من سياسة بونابرت الإسلامية

على الرغم من نشوب ثورة أكتوبر فى القاهرة ، والدور القيادى الذى اضطلع به الأزهر فى التخطيط لها ، وفى المشاركة فى أحداثها ، مضى بونابرت فى سياسته الإسلامية ، ولكن اتسمت هذه السياسة فى الفترة التى أعقبت ثورة أكتوبر مباشرة بالتناقض ، فقد أمر بتحويل بعض المساجد إلى قلاع [1] ، وهدم البعض الآخر لأغراض تبدو فى ظاهرها لتجميل القاهرة ، ولكنها كانت لخدمة الأغراض العسكرية ، بإيجاد طرق واسعة مستقيمة ، تستطيع القوات الفرنسية التحرك فيها بسهولة وسرعة ، لمواجهة سكان القاهرة إذا قاموا بثورة أخرى [2] . وقد أساءت هذه الإجراءات إلى المشاعر الدينية لدى الشعب المصرى

---

(١) نذكر على سبيل المثال : جامع الظاهر بيبرس ، جعل الفرنسيون منه حصناً حصيناً ، واتخذوا من منارته برجاً ، ونصبوا على أسواره الضخمة مدافع ، ورابط الجنود بخيولهم داخل المسجد ، وأقاموا فيه مساكن ومنشآت عسكرية ، وأطلقوا على الجامع « قلعة سلكووسكى » Le Fort Sulkowski ، وهو ياور بونابرت الذى قتله الثوار فى ٢٢ أكتوبر ، ولم ترق الجبرتى ، هذه التسمية ، فكان يطلق على هذا الحصن تارة قلعة جامع الظاهر ، وتارة أخرى القلعة الظاهرية .

انظر كلا من :

Guémard G.; Inscriptions françaises de l'enceinte du Caire. Paris, 1929, p. 9.

La Jonquière; ouvr. cit., t. III, p. 290.

الجبرتى مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ص ٣٣ – ٣٤ .

(٢) نذكر على سبيل المثال : الجامع المجاور لقنطرة الدكة غربى الأزبكية ، هدموه بحجة توسيع ميدان الأزبكية ، كما هدموا المساجد المجاورة لقنطرة إمبابة ، ومسجد المقس ، المعروف باسم مسجد أولاد عنان .

Reybaud Louis et autres; ouvr. cit., t. IV. pp. 192-193.

واعتبرها انتهاكاً صارخاً جديداً لأماكن العبادة . وأمراً يتعارض مع تصريحه لعلماء الأزهر فى مقسابلة ٢٤ أكتوبر ١٧٩٨ بأنه يريد أن تستمر إقامة الصلاة فى المساجد بانتظام ، وعلى النحو الذى جرت به العادة من قبل . ولكن بونابرت كان يعتمد اعتماداً كلياً فى تلك الفترة بالذات على حكم الإرهاب ؛

إعادة ديوان القاهرة

كان بونابرت قد عطل ديوان القاهرة ، كنوع من العقوبة لسكان القاهرة خلال فترة اشتدت فيها وطأة الإرهاب ، وترادفت المظالم ، وتوالت المحن على أهل القاهرة ، ثم ظهر له خطأ تعطيل الديوان ، إذ زادت الوحشة بين القاهريين والفرنسيين ، وسيطر شعور العداء على العلاقات بين الفريقين . وقد صور الأستاذ عبد الرحمن الرافعى الحالة النفسية التى حملت بونابرت على التفكير فى إعادة ديوان القاهرة . فقال إنه « أدرك أن استمرار حكم الفزع والإرهاب فى القاهرة يجعل البلاد كلها فى هرج الثورة ومرجها ، ويزعزع الاحتلال الفرنسى ، ويصمه بالعجز عن إقرار الخواطر وتهدئتها ، ورأى (بثاقب نظره) [1] أن ليس فى مقدوره حكم البلاد بقوة السيف والنار ، وتبين له من تجربة تعطيل الديوان أن لا سبيل إلى حكم الشعب دون وساطة زعمائه وكبرائه ، فعاد يفكر فى إعادة الديوان بعد أن استمر معطلا أكثر من شهرين » [2] . وقد أصدر بونابرت منشوراً فى ٢١ ديسمبر ١٧٩٨ [3] بإعادة الديوان ، ووضع له

---

(١) لعلنا نختلف مع الأستاذ الرافعى حين قال : إن نظرة بونابرت فى حكمه للشعب المصرى ، كانت دائماً ثاقبة .

(٢) تاريخ الحركة القومية ، ج ٢ ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، الطبعة الثالثة ص ١٠ .

(٣) وثيقة رقم ٣٧٨٥ ، تاريخها أول يوم من شهر نيفوز من السنة السابعة من التقويم الجمهورى .
Correspondance de Napoléon, t. V.

نظاماً جديداً ، بحيث يكون أكثر تمثيلا لسكان القاهرة على اختلاف مهنهم ، وحرفهم ، ودياناتهم [1] .

الاحتفال برؤية هلال شهر رمضان

اتخذ بونابرت من اقتراب موعد بدء شهر رمضان ١٢١٣ [2] فرصة للتقرب إلى سكان القاهرة ، جرياً على سياسته الإسلامية ، فأصدر أوامره إلى محتسب القاهرة ، واسمه حسن أغا محرم ، بإقامة احتفالات رائعة ابتهاجاً بحلول شهر رمضان ، وأن تسير فى شوارع القاهرة ليلة الصيام المواكب الدينية التقليدية ، ومواكب الطوائف ، يتصدرها شيوخها ونقباؤها ، وأعلامها وشاراتها ، وأن تمر هذه المواكب بدار بونابرت ، ودار حاكم القاهرة العسكرى ، ودار قاضى القضاة ، ودار أمير الحج . يقول الجبرتى وهو يستعرض حوادث ٢٦ شعبان ١٢١٣ : « أعرض حسن أغا محرم المحتسب لسارى عسكر أمر ركوبه المعتاد لإثبات هلال رمضان ، فرسم له بذلك على العادة القديمة ، فاحتفل لذلك المحتسب احتفالا زائداً ، وعمل وليمة عظيمة فى بيته أربعة أيام ، أولها السبت وآخرها الثلاثاء ، دعا فى أول يوم العلماء والفقهاء والمشايخ والوجاقلية وغيرهم ، وفى ثانى يوم التجار والأعيان ، وكذلك ثالث يوم ورابع يوم دعا أيضاً أكابر الفرنساوية وأصاغرهم . وركب يوم الثلاثاء بالأبهة الكاملة زيادة عن العادة ، وأمامه مشايخ الحرف بطبولهم وزمورهم ، وشق القاهرة على الرسم المعتاد ،

---

(١) كان الديوان يتكون من هيئتين : الديوان الكبير أو العمومى ، ويتكون من ستين عضواً عينهم الفرنسيون ، وتضمن قرار إنشاء الديوان اسماءهم ، وكانوا يمثلون مجتمع القاهرة على النحو الآتى : ١٤ من علماء الأزهر والمشايخ ، ٢٦ من التجار والصناع ، ١١ من العسكريين ، ٢ من مشايخ الأخطاط ، ٤ من الأقباط ، ٣ من الأجانب . والديوان الدائم أو الخصوصى ، ويتكون من أربعة عشر عضواً ، ينتخبهم أعضاء الديوان العمومى من بينهم ، وقد انتخب الشيخ عبد الله الشرقاوى رئيساً ، والشيخ محمد المهدى سكرتيراً .

(٢) امتد شهر رمضان ١٢١٣ من ٦ فبراير ١٧٩٩ حتى ٧ مارس ١٧٩٩ .

ومر على قائمقام ،وأمير الحج،وسارى عسكر بونابرته، ثم رجع بعد الغروب إلى بيت القاضى بين القصرين ، فأثبتوا هلال رمضان ليلة الأربعاء ، ثم ركب من هناك بالموكب ، وأمامه المشاعل الكثيرة ، والطبول والزمور والنقاقير[(١)] والمناداة بالصوم ، وخلفه عدة خيالة عارية رءوسهم ، وشعورهم مرخية على أقفيتهم بشكل بشع مهول »[(٢)] . وكتب بونابرت فى ١٠ فبراير ١٧٩٩ إلى حكومة الديركتوار فى باريس رسالة ضافية ،تناولت شتى المسائل ، وكان مما جاء بها أنه احتفل بشهر رمضان احتفالا بلغ أروع مظاهر العظمة ، وأنه قام بذات المراسيم التى كان يؤديها من قبل الباشا العثمانى[(٣)] . ويلاحظ أن هذه الاحتفالات قد أقيمت خلال الأيام القليلة التى سبقت سفره إلى بلاد الشام على رأس الحملة العسكرية ، وكان قد غادر القاهرة فى العاشر من فبراير (٥ من رمضان) ، ويلاحظ أيضاً أنه أمر المنادين بالمرور فى شوارع القاهرة ، منذ أول يوم فى شهر رمضان ، ينبهون على المسيحيين على اختلاف طوائفهم ومذاهبهم باحترام تقاليد شهر الصيام ، فلا يتجاهرون بالأكل أو الشرب ، أو التدخين فى الأسواق ، أو بمرأى من المسلمين[(٤)] .

---

(١) النقاقير : هى الطبول الكبيرة الحجم .

(٢) الجبرتى ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٤٣ .

(٣) وثيقة رقم ٣٩٥٢ مؤرخة فى الثانى والعشرين من شهر بليفيوز من السنة السابعة من التقويم الجمهورى (١٠ من فبراير ١٧٩٩) من بونابرت إلى حكومة الديركتوار

Correspondance de Napoléon, t. V.

وقد جاء فيها :

«Le Ramazân, qui a commencé hier, a été célébré de ma part avec la plus grande pompe; J'ai rempli les mêmes fonctions que remplissait autrefois le pacha. »

(٤) سبق أن أشرنا إلى هذه النقطة عند الكلام على العامل الرابع من العوامل المساعدة على قيام ثورة أكتوبر ، ونضيف هنا حادث اعتداء بالضرب وقع من أحد المتعممين من سكان القاهرة ، عندما شاهد أحد المسيحيين يدخن فى أحد أيام رمضان ، فانتهره ، فرد عليه المسيحى وأغلظ له =

الفرنسيون يجاملون المسلمين فى شهر رمضان

جاملت السلطات الفرنسية[(١)] المسلمين إلى حد بعيد فى خلال شهر رمضان ١٢١٣ (٦ فبراير — ٧ مارس ١٧٩٩) ، مما كان موضع عجب المسلمين ودهشتهم ، ولا بد أن هذه المجاملات كانت بإيعاز من بونابرت قبل أن يغادر القاهرة إلى الشام فى ٥من رمضان . وتعددت مظاهر المجاملات ، وكان من بينها : « أن الفرنساوية صاروا يدعون أعيان النـاس والمشايخ والتجار للإفطار والسحور ، ويعملون لهم الولائم ، ويقدمون لهـم الموائد على نظام المسلمين وعادتهـم ، ويتولى أمر ذلك الطباخون والفـراشون من المسلمين تطميناً لخواطرهم ، ويذهبون هم أيضاً ويحضرون عندهم الموائد ، ويأكلون معهم فى وقت الإفطار ، ويشاهدون ترتيبهم ونظامهم ، ويحذون حذوهم ، ووقع منهم من المسايرة للناس، وخفض الجانب ما يتعجب منه ، والله أعلم » .

ولاحظ الجبرتى أيضاً كنوع من مجاملات الفـرنسيين للشعب المصرى فى شهر رمضان ١٢١٣ الحرية المطلقة التى تركها الفرنسيون لأهل القـاهرة فى ليالى هذا الشهر ، من فتح الأسواق والمحلات ليلا « والذهاب والمجىء ،

= فى القول ، فنزل المتعمم من دابته وضربه «واجتمع عليه الناس ، وحضر حاكم الخطة ، فرفعهما إلى قائمقام ، فسأل (أى استفسر) من النصارى الحاضرين عن عادتهـم فى ذلك ، فأخبروه أن من عادتهم القديمة أنه إذا استهل شهر رمضان لايأكلون ولا يشربون فى الأسـواق ، ولا بمرأى من المسلمين أبداً ، فضرب النصرانى ، وترك المتعمم لسبيله » .

انظر : الجبرتى، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٤٥ .

(١) كان بونابرت قبل سفره إلى بلاد الشام قد أصدر أمراً بتعيين الجنرال دوجا حاكماً للقاهرة والوجه البحرى ، ووكيلا عنه فى أثناء غيابه ، ويطلق عليه الجبرتى القائمقام دوجا ، وكان يساعده بوسيلج مدير الشئون المـالية ، وكان يشرف على الشئون الإدارية ، وقد ترك بونابرت للأول تعليمات ضافية عن الطريقة التى يتبعها فى حكم القاهرة بالذات فى أثناء غيابه ، وكان من بينها مجاملة أعضاء الديوان ، واحترامهم ورعايتهم .

انظر الوثيقة رقم ٣٩٥٠ .

Correspondance de Napoléon, t. V.

وزيارة الإخوان ليلا ، والمشى على العــادة بالفوانيس ودونها ، واجتماع الناس للسهر فى الدور والقهاوى ، ووقود المساجد ، وصــلاة التراويح ، وطواف المسحرين ، والتسلى بالرواية والنقول ، وترجى المأمول[١] » .

وكان من بين هــذه المجاملات إخلاء الطرق من العسكريين ، وعدم مرور المتخلفين منهم إلا فى النادر ، واختفاؤهم بالليل جملة .

موكب كسوة الكعبة

وأمر بونابرت برصد اعتماد مالى كبير لعمل الكسوة الشريفة ، بحيث يزاد فى زخارفها ونقوشها ، لتفوق فى روعتها مثيــلاتها التى كانت تصــنع فى مصر فى العهود الإسلامية السابقة على دخول الفرنسيين البلاد[٢] ، ويلوح أن السلطات الفرنسية قد تراخت فى تنظيم موكب الكسوة بعد سفر بونابرت فى حملته على الشام ، لأنه طبقاً للتقاليد التى سار عليها أهل القاهرة كان الاحتفال بالكسوة يتم فى أول يوم سبت يحل بعد انتهاء شهر رمضان[٣] ، وانقضى هــذا اليوم دون أن يحدث شيء ما ، وانتهز المرجفون فى المدينة هذا الموقف السلبى للسلطات الفرنسية ، فأذاعوا أن الفرنسيين يزمعون إلغــاء الحج إلى بيت الله الحــرام ، وكانت هــذه أول سنة يحل فيها موسم الحج بعــد الاحتلال الفرنسى لمصر ، وسارعت السلطات الفرنسية إلى الرد عملياً على هذه الشائعة ، ولجأت إلى وسيلة الإعلام المألوفة وقتذاك ، فأمرت المنــادين بأن ينطلقوا فى شوارع القاهرة فى يوم الجمعة ٨ من شوال يذيعون أن الاحتفال بالكسوة

---

(١) الجبرتى ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٤٨ .

(2) Napoléon Ier; Guerre d'Orient. etc., ouvr. cit., t. I. pp. 228-229.

(3) Reybaud Louis et autres, ouvr. cit.; t. V. pp. 151-152.

الشريفة يتم فى اليوم التالى (السبت ٩ من شوال ١٢١٣ — ١٦ من مارس ١٧٩٩) ، وقد حرصت السلطات الفرنسية حرصاً بالغاً على إضفاء أهمية زائدة على موكب الكسوة ، ليجيء بالغ الروعة ، جامعاً لمظاهر العظمة ، فأشركت فى الموكب أفراد شتى الهيئات الرسمية : الدينية والمدنية والعسكرية بملابسهم الرسمية ، وفرقة الموسيقى : يقول الجبرتى : « وفى ثامنه (شوال ١٢١٣) يوم الجمعة نودى فى الأسواق بموكب كسوة الكعبة المشرفة من قرا ميدان (١) ، والتنبيه باجتماع الوجاقات ، وأرباب الأشاير وخلافهم على العادة فى عمل الموكب ، فلما أصبح يوم السبت اجتمع الناس فى الأسواق وطريق المرور ، وجلسوا للفرجة ، فمروا بذلك ، وأمامها الوالى (٢) والمحتسب ، وعليهم القفاطين (٣) والبينشات (٤) وجميع الأشاير (٥) بطبولهم وزمورهم وكاساتهم (٦) ، ثم برطامين (٧) كتخدا مستحفظان

(١) قرا ميدان : كلمتان معناهما الميدان الأسود ، وهو يقع بين قلعة الجبل ومساجد السلطان حسن ، والرفاعى ، والمحمودية ، وتقوم فى وسطه حديقة صغيرة ، وكانت توجد به مصطبة المحمل ، ويبدأ منها سير موكب المحمل ، ويعرف هذا الميدان حالياً باسم ميدان صلاح الدين ، وكان يطلق عليه فى بعض الفترات سوق العصر .

(٢) الوالى ، معناها هنا رئيس الشرطة .

(٣) القفاطين ، جمع قفطان ، ومعناها هنا رداء رسمى كان يرتديه أصحاب المناصب الكبرى ، أو الذين يعهد إليهم القيام بمهام كبيرة ، وجرت التقاليد فى العصر العثمانى على أن يقدم الباشا العثمانى هذا القفطان فى حفل كبير يقام فى القلعة ، ويتلى فيه الفرمان السلطانى بتقليد المحتفى به المنصب ، أو ترقيته إلى أمير طبلخانة ، أى الأمير الذى تدق له الطبول عند تحركاته ، لسمو مركزه ، وينزل المحتفل به من القلعة ، مرتدياً هذا القفطان فى موكب رسمى إلى داره .

(٤) بينشات : جمع بينش ، وهو نوع من القفاطين ، وصاحبه أقل مركزاً من صاحب القفطان

(٥) جميع الأشاير : معناها أفراد جميع طوائف الأشاير ، ويطلق عليهم أرباب الأشاير ، أو أصحاب الأشاير ، وتنتمى كل طائفة إلى أحد مشايخ الطرق الصوفية ، ويذهب أفراد الطائفة معاً فى الليل للاشتراك فى الاحتفالات التى تقام بمناسبة موالد الأولياء ، ولكل طائفة شعارها وعلمها ويرتدى أفرادها زياً موحداً ، ويتقدمهم حملة الطبول ، ومدفأة فيها فحم موقد ، يضعون فوقها طبولهم برهة من الوقت ، حتى يكون للطبل صوت داو .

(٦) الكاسات : هى قطع من النحاس مستديرة الشكل ، فى حجم الريال ، تمسك فى أصابع اليد ، وتضرب كل قطعتين بعضهما ببعض ، فينبعث منها صوت موسيقى إيقاعى ، وهى لا تزال تستخدم فى الرقص الشرقى بوجه خاص ، ويطلق عليها « صاجات » .

(٧) هو برتلمى اليونانى ، أو برطلمان ، أو فرط الرمان ، وكيل محافظة القاهرة .

وأمامه نفر الينجكرية[(١)] من المسلمين نحو المائتين أو أكثر ، وعدة كثيرة من نصارى الأروام بالأسلحة ، والملازمين بالبراقع ، وهو لابس فروة عظيمة ، ثم مواكب القلقات[(٢)] ، ثم موكب ناظر الكسوة[(٣)] وهو تابع مدمتاسف كتخدا الباشا ، وخلفه النوبة[(٤)] التركية[(٥)] » ؛

ويتضح من كتابة الجبرتى أن السلطات الفرنسية وهى فى حرصها على إضفاء مظاهر الأبهة على الموكب قد تخبطت فى تنظيمه. فأشركت عناصر غير مرغوب فى وجودها فى مثل هذا الاحتفال الدينى الإسلامى ، ويعلق الجبرتى تعليقاً لاذعاً على هذا التخبط الذى لازم سياسة الفرنسيين فى تنظيم الموكب ، إذ يقول : « فكانت هذه الركبة من أغرب المواكب ، وأعجب العجائب ، لما اشتملت عليه من اختلاف الأشكال ، وتنوع الأمثال ، واجتماع الملل ، وارتفاع السفل ، وكثرة الحشرات ، وعجائب المخلوقات ، واجتماع الأضداد ، ومخالفة الوضع المعتاد » . وواضح أن ما أثار الجبرتى هو

---

(١) معناها الإنكشارية .

(٢) سبق شرح هذا المصطلح التاريخى فى ص ٨٧ ، هامش رقم ٥ من هذه الدراسة .

(٣) ناظر الكسوة ، مصطلح تاريخى معناه مدير مصلحة الكسوة الشريفة ، وكان مقر هذه « المصلحة » فى القلعة ، فإذا انتهى العمل من صنعها وزخرفتها ، نقلت بعد انتهاء شهر رمضان إلى مسجد الإمام الحسين ، وتودع به حتى يتعين موعد قيام قافلة الحج المصرى ، وهو فى العادة فى أول النصف الثانى من شهر شوال ، فتنقل إلى الحجاز فى حراسة أمير الحج ، وسردار الحج . وكان يتم نقل الكسوة الشريفة من القلعة إلى المسجد الحسينى فى احتفال رسمى ، يبدأ من قراميدان أمام القلعة ، ويكون أمير الحج وسرداره ، والأمراء المماليك ، وضباط جيش الاحتلال العثمانى فى انتظار إنزال الكسوة من القلعة إلى حيث يبدأ الاحتفال ، وينزل الباشا من القلعة إلى الميدان ، وتنقل أجزاء الكسوة على جمال مخصصة لهذا الغرض ، ويبدأ الموكب الرسمى ، وتسير فيه كتائب من الجيش ، والموسيقى العسكرية ، والعلماء ، وأرباب الطرق الصوفية ، وشيوخ الطوائف ومن إليهم ، وينتهى الاحتفال عند مسجد الإمام الحسين .

(٤) معناها فرقة الموسيقى .

(٥) الجبرتى ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٤٩ .

وجود برتلمى ، أو فرط الرمان، فى حفل دينى إسلامى ، واهتمام هذا اليونانى الشرس بالناحية المظهرية ، يضفيها على شخصه :

رفع الأعلام على منارات الأزهر

مضى بونابرت يحـــاول إظهار توقيره للجامع الأزهر بشتى الوسائل التى تتراءى له ، فلما احتل الجيش الفرنسى قلعة العريش فى ٢٠ من فبراير ١٧٩٩ ، وهو فى طريقه إلى عكا ، أرسل كتيبة من الجنود إلى القـــاهرة تحمل الأعلام التى غنمها فى تلك القلعة ، وعهد إلى الجنرال دوجا نائبه فى حكم مصر أن يرفعها على منارات الجامع الأزهر كوسيلة إعلاميـــة بانتصار الفرنسيين ، وكتب إليه من العريش فى ٢٢ من فبراير ١٧٩٩ يقول : « إنى أريد أن تقابلوا الشيخ المهدى ، وشتى أعضاء الديوان ، وتتفقوا معهم على إقامة حفل صغير لاستقبال الأعلام المرسلة إليكم . وإذا كان فى الاستطاعة تنظيم هـــذا الحفل بطريقة طبيعيـــة ، فضعوها فى الجامع الأزهر إيذاناً بالانتصار الذى أحرزه جيش مصر على عساكر الجزار وأعداء المصريين »[1] . ويعلق الأستاذ عبد الرحمن الرافعى على هذه الرسالة بقوله : « بهذه العبارة الرقيقة أراد نابليون أن يجتذب إليـــه قلوب المصريين ، وأن يشعرهم السرور بانتصار الفرنسيين ، ولذلك تراه يعـــبر عن جيشه بأنه « جيش مصر » ، وأنه انتصر على الجزار ، وعلى « أعداء المصريين » ، ولا يمكن أن يعبر بأحسن من هذا الأسلوب ، لمحاولة اكتساب قلوب الشعب ، ولكن هيهات أن ينخدع الشعب عن ذات نفس بذات لسان »[2] .

---

(١) الوثيقة رقم ٣٩٨٧ مؤرخة فى الرابع من فانتوز من السنة السابعة من التقويم الجمهورى :
Correspondance de Napoléon, t. V.

(٢) الرافعى ، مرجع سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ٤٣ .

ووصلت إلى القاهرة الكتيبة الفرنسية ، وقوامها مائة جندى ، يركبون الخيول ، ويحملون الأعلام التى غنمها الفرنسيون ، ومعهم الأسرى من المماليك[(١)] يركبون الحمير . وكان فى استقبالهم عند مشارف القاهرة ، الأغا وهو محافظ القاهرة ، وبرتامى وكيل المحافظ ، ومعهما « طبول وبيارق وطوائف ، ومشوا معهم إلى الأزبكية من الطريق التى أحدثوها ، ودخلوا بهم إلى بيت قائمقام ، فأخذوا سلاحهم وأطلقوهم ، فذهبوا إلى بيوتهم »[(٢)] :

ويصف الجبرتى الحفل الذى أقيم فى ساحة الجامع الأزهر برفع الأعلام على منارات الجامع ، فيقول إنه فى عصر اليوم الأخير من شهر رمضان ١٢١٣[(٣)] حضر عدة من الفرنسيس ومعهم كبير منهم ، وهم راكبون الخيول ، وعدة من المشاة ، وفيهم جماعة لابسون عمائم بيض ، وجماعة أيضاً ببرانيط ، ومعه نفير ينفخ فيه ، وبيدهم بيارق ، وهى التى كانت عند المسلمين على قلعة العريش ، إلى أن وصلوا إلى الجامع الأزهر ، فاصطفوا رجالا وركباناً بباب الجامع ، وطلبوا الشيخ الشرقاوى فسلموه تلك البيارق ، وأمروه برفعها ونصبها على منارات الجامع الأزهر ، فنصبوا بيرقين ملونين على المنارة الكبيرة ذات الهلالين ، عند كل هلال بيرقاً ، وعلى منارة أخرى بيرقا ثالثاً ، وعند رفعهم ذلك ضربوا عدة مدافع من القلعة بهجة وسروراً ، وكان ذلك ليلة عيد الفطر ، فلما كان عند الغروب ضربوا عدة مدافع أيضاً إعلاماً بالعيد »[(٤)] .

---

(١) يذكر الجبرتى أن عددهم كان ثمانية عشر مملوكاً ، وأربعة كشاف .

(٢) الجبرتى ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ص ٤٥ — ٤٦ .

(٣) كان يقابل يوم الخميس ٧ من مارس ١٧٩٩ .

(٤) الجبرتى ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ص ٤٦ — ٤٧ .

بونابرت يعلن عن عزمه على اعتناق الإسلام وبناء مسجد ضخم

ولمـــا عاد بونابرت إلى القاهرة فى ١٤ من يونيو ١٧٩٩ من حملة الشام طلب من أعضاء الديوان كتابة منشـــور يوجه إلى الشعب ، فكتبوا منشوراً ضافيـــاً قال فيه الجـــبرتى : « إنه من ترصيف وتنميق بعض الفصحاء »(١) ، وقد تضمن هذا المنشور عرضاً مشوهاً لأحداث حملة بلاد الشام وأسباب عودة بونابرت إلى مصر ، ذكر منها سببين ، أولا : « أنه وعدنا برجوعه إلينا بعد أربعة أشهر ، والوعد عند الحر دين » ، وثانياً : نزوع المفسدين من المماليك والعربان ، إلى إثارة الفتن فى بعض أقاليم مصر ، ونصحهم بالإخلاد إلى السكينة ، ثم جاء فى المنشور : « ولمـــا حضر سارى عسكر إلى مصر أخـــبر أهل الديوان من خاص وعام أنه يحب دين الإسلام ، ويعظم النبى عليه الصلاة والسلام ، ويحترم القرآن ، ويقرأ منه كل يوم بإتقـــان ، وأمر بإقامة شعائر المساجد الإسلامية ، وإجراء خيرات الأوقاف السلطانية ، وأعطى عوائد الوجاقلية(٢) ، وســـعى فى حصول أقوات الرعية ، فانظروا هـــذه الألطاف والمزية ، ببركة نبينا أشرف البرية ، وعرفنا أن مراده أن يبنى لنا مسجداً عظيما بمصر لا نظير له فى الأقطار ، وأنه يدخل فى دين النبى المختار ، عليه أفضل الصلاة وأتم السلام »(٣) :

---

(١) كان الجبرتى يقصد من وراء هذا التلميح الشيخ محمد المهدى ، وقد ناقش كل من الأستاذ أحمد حافظ عوض ، والأستاذ عبد الرحمن الرافعى هذه المسألة ، الاول عرضا ، والثانى وهو يترجم للشيخ المهدى .

انظر : فتح مصر الحديث ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٢٨ .

تاريخ الحركة القومية ، مرجع سبق ذكره ، ج ٢ ، ص ٢٧٦ .

(٢) أى دفع المخصصات المقررة للعسكريين غير الفرنسيين .

(٣) الجبرتى ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ص ٧١ – ٧٢ .

وقد أورد هـــذا المنشور المعلم نقولا ترك فى مذكراته ، نشر وترجمـــة الأستاذ ڤييت ، ص ص ٥٠ – ٥٤ ، وزاد عليه أسماء الموقعين عليـــه ، وكانوا حسب الترتيب الآتى : السيد خليـــل البكرى نقيب الأشراف ، الفقير عبـــد الله الشرقاوى رئيس الديوان ، الفقير محمـــد المهدى كاتم سر الديوان ، الفقير مصطفى الصاوى خادم العلم ، الفقير سليمان الفيومى خادم العلم ، على كاخيه باشى اختيار مستحفظان ، يوسف باش جاويش تفكجيان ، السيد أحمد المحروقى ، =

ولم يخدع المصريون بما جاء فى هذا المنشور ، واعتقدوا أنه مجرد دعاية كاذبة مضللة ، لاستمالتهـــم إلى جانب بونابرت ، وكان تعليقهم عليه تعليقـــاً قاسيا ، أثبته المعلم نقولا ترك ، وأشرنا إليه من قبل فى هذه الدراسة ، ودلت الأحداث على أن بونابرت لم يعتنق الإسلام ، ولم يشيد مسجداً[1] .

= وأورد هـــذا المنشور أيضاً الأستاذ أحمـــد حافظ عوض ، وزاد عليـــه نشر صـــورتين بالزنكوجراف ، إحداهما النص العربى ، والأخرى للنص الفرنسى .

انظر : أحمد حافظ عوض ، مرجع سبق ذكره ، ص ص ٣٢٩ — ٣٣٥ .

(١) خاض بونابرت فى أحاديث ضافية مع علماء الأزهر ، كان يبدى فيها رغبته فى اعتناق الإسلام ، وذكر أن فى استطاعته أن يجعل أفراد الجيش الفرنسى يعتنقون الإسلام ، بنـــاء على أمر يومى بسيط un simple ordre du jour يصدره لهم ، كما أعلن عن عزمه على بناء مسجد ضخم يطلق عليه اسم مسجد السلطان الكبير ، وكان يحلو له أن ينعت نفسه بهذا اللقب ، ويلاحظ أن الجبرتى امتنع تماماً عن الإشارة إلى هذه التسمية ، وكان بونابرت دائم الشكوى لهـــم من الخطب غير الودية التى كان يلقيها أئمة المساجد فى خطب الجمعة ، وقرر أنه كثيراً ما طلب من أعضاء الديوان أن يوقفوا هذه الحملة الموجهة ضد الفرنسيين ، ولكن اتضح أن اتصالات أعضاء الديوان بأئمة المساجد لم تكن مثمرة ، ثم قال لهم فى إحدى الجلسات : « لابد أن نضع حداً لهـــذه الفتن ، أريد من الأزهر أن يصدر فتوى تأمر النـــاس بأن يحلفوا يمين الطاعة لى » . فتصدى له الشيخ عبد الله الشرقاوى ، وطالب منه تنفيذ وعده باعتناق الإسلام ، وحبب له هـــذه الخطوة ، وزينها فى قلبه ، وقال له إنه إذا اعتنق الإسلام انضوى تحت لوائه مائة ألف عربى فى البلاد العربية واستطاع أن يفتح بهم الشرق . وكانت ذريعة بونابرت فى التسويف أن هناك عقبتين تحولان دون اعتناقه هو وجنوده الإسلام ، هما تحريم شرب الخمر ، وضرورة إجراء عملية الختان ، وتساهل علماء الأزهر ، فقالوا إنه من الممكن التجاوز عن هذين الشرطين بصفة مؤقتة ، فلما ضيقوا عليـــه الخناق طلب منهم مهلة سنتين ، يعتاد خلالها الجنود التقاليد الإسلامية ، ثم يعتنقون الإسلام .

ومما هو جدير بالذكر أن الجبرتى قارن بين استهتار الفرنسيين بتقاليد الأديان ، وبين تمسك الإنجليز بأهداب الدين ، وكان ممـــا سجاه فى هـــذا الصدد : « إن الفرنساوية لايتدينون بدين ، ويقولون بالحرية والتسوية ، وأما هؤلاء الإنكليز فإنهم نصارى على دينهـــم ، ولا تخفى عداوة الأديان . »

انظر كلا من :

الجبرتى ، مصدر سبق ذكره ، ج ٤ ، ص ٤٩ .

Napoléon Ier; Guerre d'Orient. etc., ouvr. cit., t. I. pp. 215-217.
Bainville J.; ouvr. cit.; p. 147.

بونابرت يقرر : علماء الأزهر هم أغزر علماء الإسلام علماً

لمـــا أصبح العداء سافراً بين الفرنسيين والعثمانيين ، انتهز بونابرت فرصة خروج قاضى القضاة العثمانى على الفرنسيين ، وأعلن قراره بعـــد عودته من الشام ، بتمصير منصب قاضى القضاة فى مصر ، وشغله بالشيخ أحمـــد العريشى من علماء الأزهر[(١)] ، وفى منشور مؤرخ فى ٢٧ من يونيو ١٧٩٩ وجهه بونابرت إلى أعضـــاء ديوان القاهرة قال فيه إنه رأى تمشياً مع روح القرآن الكريم أن « يعهد إلى العلماء باختيار القاضى من بينهم ، وإن الشيخ العريشى الذى وقع عليه اختياركم أصبح متقلداً منصب القضاء ، وإن الخلفاء الذين كانوا يتصرفون طبقاً لأحكام القرآن كانوا يتولون الخـــلافة بانتخاب جمهور المؤمنين » ، ثم صارحهم فيـــه بزوال السيادة العثمانية على مصر ، وقال إن حكومة العثمانيين أشد ظلماً من حكم المماليك ، إلى أن قال : « وهل يوجد إنسان يعتقـــد أن علماء مصر المولودين بهـــا ليس فيهم من تؤهله كفايته وفضائله إلى الاضطلاع بمنصب قاضى القضاة ؟ »[(٢)] ، وأمر بونابرت بإقامة حفل تكريماً للشيخ أحمد العريشى ، دعا إليه أعضاء الديوان العمومى والعلماء والأعيان من غير أعضائه ، وفى الحفل

---

(١) كان بونابرت قد عهد إلى العلماء مع أعضاء الديوان بانتخاب مصرى يحل محل قاضى القضاة العثمانى ، فنال الشيخ أحمد العريشى أغلبية الأصوات ، إذ ظفر بستة عشر صوتاً ، من ثلاثة وعشرين صـــوتاً .

(٢) وثيقة رقم ٤٢٢٤ مؤرخة فى التاسع من ميسيدور من السنة السابعة من التقويم الجمهورى ، انظـــر :

Correspondance de Napoléon, t. V.

وقد نشر الجبرتى هذا المنشور على النحو الذى عربه مترجمو الحملة ، وتلى فى الديوان ، وكان مما جاء فيه خاصاً بإنهاء السيادة العثمانية ، والإشادة بكفاية علماء الأزهر : « وعرفوا أهل مصر أنه انقضت وفرغت دولة العثملى من أقاليم مصر ، وبطلت أحكامها منها ، وأخبروهم أن حكم العثملى أشد تعباً من حكم المماليك ، وأكثر ظلماً ، والعاقل يعرف أن علماء مصر لهم عقل وتدبير وكفاية ، وأهلية للأحكام الشرعية ، يصلحون للقضاء أكثر من غيرهم فى سائر الأقاليم ... » ، انظر الجبرتى ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٧٣ .

خلع بونابرت خلعة ثمينــة على قاضى القضاة الذى خرج فى موكب حافل ، أمر بونابرت بتنظيمـــه له فى ذهابه إلى دار المحكمة الكبرى بين القصرين ، ليتقلد مهام منصبه[١]. ووجه بونابرت منشوراً مؤرخاً فى ٣٠ من يونيو ١٧٩٩ إلى حكام الأقاليم يأمرهم تبليغ الدواوين نبأ انتخاب الشيخ أحمد العريشى لمنصب قاضى القضاة ، وتأسيساً على هذا الانتخاب ينبغى أن يتلقى قضاة الأقاليم تقليد القضاء من قاضى القضاة المصرى ، وأعلن أيضاً فى هذا المنشور زوال السيادة العثمانية على مصر ، وكان ممـــا قاله فى هـــذا الصدد : « على حكام الأقاليم أن يوضحوا للأعيان بأنه قد آن الأوان لإنهاء الحكم العثمانى الذى هو أشد ظلماً من حكم المماليك ، إن ممـــا يتنافى مع روح القرآن أن يتولى القضاء فى مصر رجال من الآستانة لايعرفون لغة البلاد ، إن الآستانة لم تعرف الإسلام إلا بعد مضى ثلاثة أو أربعـــة قرون من وفاة الرســـول ، ولو بعث الرســـول من جديد فلا يختار الآستانة لرسالته ، بل يختار القـــاهرة ، هذه المدينـــة المقدسة على ضفاف النيـــل ، وإن الرئيس الدينى للإسلام هو صديقنا شريف مكة ، كما أن علماء القـــاهرة هم بلا منازع أعلم علماء الإسلام ، إن القائد العام يريد أن يكون القضاة كلهم من أبنـــاء مصر ، اللهـــم إلا أن يكونوا من أشراف مكة والمدينة[٢] » .

---

(١) انظر أمراً أصدره بونابرت إلى الجنرال دوجا فى ٨ من شهر ميسيدور من السنة السابعة من التقويم الجمهورى (٢٦ من يونيو ١٧٩٩) بتنظيم هذا الحفل .
الوثيقة رقم ٤٢٢١

Correspondance de Napoléon, t. V.

(٢) وثيقة رقم ٤٢٣٨ مؤرخة فى ١٢ من ميسيدور من السنة السابعة للتقويم الجمهورى

Correspondance de Napoléon, t. V.

ومما يذكر فى هذا الصدد أن بونابرت تساءل فى مذكراته : « كيف تكون مصر جنـــة الله فى أرضه ، وبلاد الحجاز مهبط الوحى ، خاضعتين لشعب خرج من بلاد القوقاز ؟ ، وإذا فرض أن محمداً « صلوات الله عليه » قد بعث اليوم ، فإلى أين يذهب ؟ هل يذهب إلى مكة ؟ كلا ، لأنها لم تعد عاصمة للدولة الإسلامية . هل يذهب إلى الآستانة ؟ كلا ، لأنها مدينة دنسة profane ، =

إسهام بونابرت فى احتفالات المولد النبوى الشريف

كان إسهام بونابرت فى احتفالات المولد النبوى الشريف ، والتى أقيمت فى القاهرة فى شهر أغسطس ١٧٩٩ آخر مظهر عملى وشخصى لسياسته الإسلامية ، قبل أن يغادر مصر نهائياً إلى فرنسا فى ٢٢ من أغسطس ١٧٩٩ ؛ وقد حرص على إضفاء مظاهر الروعة والعظمة على هذه الاحتفالات ، فأمر بأن تشترك فيها وحدات من الجيش الفرنسى والموسيقات العسكرية ، وأن تقسام الاحتفالات أمام مقر القيادة العامة للجيش فى الأزبكية ، وأن تقسام الزينات ، وتوقد القناديل ، وأن تطلق المدافع نهاراً ، والصواريخ والألعاب النارية ليلا ، على غرار ما اتبع فى احتفالات المولد النبوى فى العام السابق ؛ قال الجبرتى : « وفى يوم الثلاثاء حادى عشر من ربيع أول ١٢١٤ [1] عمل المولد النبوى بالأزبكية ، ودعا الشيخ خليل البكرى سارى عسكر الكبير مع جماعة من أعيانهم وتعشوا عنده ، وضربوا ببركة الأزبكية مدافع ، وعملوا حراقة وسواريخ ، ونادوا فى ذلك اليوم بالزينة ، وفتح الأسواق والدكاكين ليلا ، وإسراج قناديل ، واصطناع مهرجان [2] » .

بونابرت يضيف جديدا إلى احتفالات المولد

وقد أضاف بونابرت جديداً إلى احتفالات المولد النبوى فى سنة ١٧٩٩ بالنسبة لاحتفالات العام السابق ، فقد حرص على أن يشهدها مصطفى باشا

= يزيد فيها عدد الكافرين على عدد المؤمنين ، ولو ذهب إليها لأصبح فى وسط أعدائه ، إنه بلا شك يفضل مياه النيل المقدسة ، وينزل فى الجامع الأزهر ، وهو أول مفتاح للكعبة المقدسة » .

انظـر :

Napoléon Ier; Guerre d'Orient. etc., ouvr. cit., t.I., pp .215-216.

(١) كان هذا التاريخ الهجرى يقابل فى التقويم الميلادى الثالث عشر من أغسطس ١٧٩٩ .

(٢) الجبرتى ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٧٨ .

قائد الجيش العثمانى وضباطه الذين وقعوا فى الأسر فى معركة أبى قير البرية ، كما حضرها الضباط العثمانيون الذين أسرهم الجيش الفرنسى فى حملتـه على بلاد الشام . وذكر بونابرت أن العظمة التى تجلت فى احتفالات المولد قـد بهرت مصطفى باشا وسائر الضباط العثمانيين (١) ، وأطلق بونابرت سراح بعض أولئك الضباط ، وأوفدهم فى صبيحة اليوم التـالى لليلة الختامية للمولد إلى الآستانة وإلى مكة المكرمة ، لينقلوا إلى السلطات هناك تفاصيل الاحتفالات بالمولد النبوى ، وما اقترنت به من مظاهر الأبهة والعظمة (٢) . وأرسل بونابرت إلى الحكام الفرنسيين فى أقاليم مصر ، يطلب منهم توزيع منشورات باللغـة العربية على الأهالى تصف لهم الاحتفال العظيم الذى أقيم فى القاهرة بمناسـبة المولد النبوى الشريف ، وأن القائد العام قـد استمع لقصة المولد ، وكان يحف به عن يمين وشمال كبار المشايخ علماء الأزهر (٣) .

تصرفات بونابرت الأخيرة ودلالتها

ويلاحظ أن احتفالات المولد النبوى الشريف التى أقيمت بالقـاهرة فى سنة ١٧٩٩ قد وقعت فى خلال الأيام السبعة التى قضاها بونابرت فى العاصمة منذ وصوله إليها من الإسكندرية فى الحادى عشر من أغسطس ١٧٩٩ عقب انتصاره فى معركة أبى قير البرية ، وبين رحيله نهائياً من القاهرة فى الثـامن عشر من أغسطس ، وهى فترة قصيرة تزاحمت فيها الأعمال عليه ، لأنه كان يعد فى الخفاء معدات سفره إلى فرنسا ، ويضع الترتيبات العسكرية والإدارية التى تسير عليها الحملة من بعـده فى حكم مصر ، وفى الدفاع عنها ، ولكنه استطاع وسط هذه المشاغل الجسام أن يدبر من وقته متسعاً أوضع اللمسات

(1) Napoléon Ier; Guerre d'Orient. etc., ouvr. cit., t. II, p. 149.
(2) Loc. cit.
(3) Correspondance de Napoléon, t. V., doc. no. 4362.

النهائية لاحتفالات المولد ، والإسهام بشخصه فى حضورها ، ويدل هـذا المسلك على منتهى البراعة والدهاء من جانب بونابرت ، لأنه ظل حتى أواخر أيام إقامته فى مصر يتظاهر أمام الشعب المصرى بالاحترام العميق للدين الإسلامى ولرسول الله صلوات الله عليه :

واستهدف بونابرت من هـذا المسلك غرضاً جديداً ، هو تأكيد سياسته الإسلامية للقائد الذى قر رأيه على أن يعهد إليه بقيادة الحملة من بعـده ، وهو الجنرال كليبر ، وقد أراد بونابرت أيضاً أن يكون مسلكه قدوة يحتذيها قادة الجيش ، والحكام العسكريون فى الأقاليم المصرية . والحق أن بونابرت ، فى أوامره إلى رجاله فى شتى جهات مصر ، كان يحرص على التنبيه عليهـم بإظهار الاحترام لعقيدة المصريين الدينية وتقاليدهم :

بونابرت يوصى خلفه خيرا بعلماء الأزهر

وفى يوم رحيله من الإسكندرية إلى فرنسا ترك رسالة ضافيـة ، مؤرخة فى ذات اليـوم وهو الخامس من شهـر فركتيدور Fructidor من السنة السابعة من التقويم الجمهورى الفرنسى (٢٢ من أغسطس ١٧٩٩) إلى الجنرال كليبر ، شرح له فيهـا الخطة التى يسير عليها فى حكم مصر ، وكان ممـا جاء فى هذه الرسالة عن السياسة الإسلامية : « وإنكم تعرفون ، أيهـا المواطن القائد ، نظرتى إلى السياسة الداخلية لمصر ، ومهما تفعلون فستجدون المسيحيين دائمـاً أصدقاءنا ، ولكن يجب منعهم من أن يتجاوزوا حدود الأدب مع مواطنيهم ، والاستخفاف بهم :::: وإذا حصلتم على ثقة كبار مشايخ القاهرة كسبتم الرأى العـام فى مصر كلها ، ومن بين الزعماء الذين يمكن أن يتخذهم هذا الشعب قادة له ، ليس هناك من هم أقل خطراً من المشايخ الذين هم قوم

هيابون ، لايعرفون القتـال ، ولكنهم — شأنهـم فى ذلك شأن القسيسين — يوحون بالتعصب ، دون أن يكونوا هم أنفسهم متعصبين » (١) .

وفى ذات اليوم الذى غادر فيه بونابرت مصر نهائياً ، وجه رسالة من الإسكندرية إلى أعضاء ديوان القاهرة ، وقد استهلها بهذه العبارة : « إلى ديوان القاهرة المختار من بين أكثر الناس استنارة ، وأكثرهم تعقلا » ، وذكر لهم أسباب سفره إلى فرنسا على النحو الذى أراد أن يصوره لهم ، وأخبرهم أنه سوف يعود إلى مصر، ثم قرر أنه عهد بالقيادة العامة فى أثناء غيابه إلى الجنرال كليبر ، « وهو رجل ذو صفات ممتازة ، وقد أوصيته أن يحفظ للعلماء والمشايخ ما كنت أحفظه لهم من المحبة والود. فابذلوا ما فى وسعكم ليثق به الشعب المصرى ثقته بى ، ولدى عودتى بعد شهرين أو ثلاثة أشهر أكون راضياً عن الشعب المصرى ، ولا أحمـل للمشايخ إلا المديح وحسن الجزاء » (٢) ، ويختلف نص هذه الرسالة عن النص الذى أورده الجبرتى ، وينحصر هذا الاختلاف

(1) "Vous connaissez, citoyen Général, quelle est ma manière de voir sur la politique intérieure de l'Egypte. Quelque chose que vous fassiez, les chrétiens seront toujours nos amis. Il faut les empêcher d'être trop insolens (*sic*) .... En captivant l'opinion des grands cheyks du Kaire, on a l'opinion de toute l'Egypte; et, de tous les chefs que ce peuple peut avoir, il n'en est pas de moins dangereux que des cheyks qui sont peureux, qui ne savent pas se battre, et qui, comme tous les prêtres, inspirent le fanatisme sans être fanatiques".

انظر الوثيقة رقم ٤٣٧٤ فى الجزء الخامس من مراسلات نابليون .
وانظر أيضاً :

Reybaud Louis et autres; ouvr. cit., t, VIII. pp. 295 - 302.

(٢) انظر الوثيقة رقم ٤٣٧٧ فى الجزء الخامس من مراسلات نابليون .
وانظر أيضاً :

La Jonquière; ouvr. cit., t. V, p. 607.

فى أن رواية الجبرتى لم ترد فيها إشارة إلى وصية بونابرت للقائد كليبر بمجاملة علماء الأزهر ، ومرد هذا الاختلاف إلى أن الجبرتى باعترافه ذكر « مضمون الكتاب » (١) .

ذلك هو مدى حرص بونابرت على إظهار آيات الود والاحترام والتقدير لعلماء الأزهر ، لم يفته أن يسجله فى ذات اليوم الذى اتخذ فيه طريقه فى البحر سرباً ، من بقعة مهجورة على شاطئ سيدى جابر بالإسكندرية ، وفى ظلمة الليل ، خوفاً من أن يكتشف الأسطول الإنجليزى أمره ، ويظفر به صيداً ثميناً ، ويغدو أخيذاً أسيراً ، يعيش فى ذل الإسار ، سنين عددا .

* * *

حقيقة العلاقات بين الأزهر والاحتلال الفرنسى

يرى البعض أن الأزهر كان أول هيئة دينية إسلامية تعاونت مع الاحتلال الفرنسى عقب دخول الفرنسيين القاهرة فى يوليو ١٧٩٨ ، تأسيساً على أن فريقاً من كبار المشايخ علماء الأزهر قد قبلوا عضوية ديوان القاهرة الذى أنشأه بونابرت . كان تفوق الفرنسيين عسكرياً هو العامل الأهم الذى أدى إلى تمكينهم من البلاد (٢) . وواجه علماء الأزهر — بصفتهم زعماء الشعب — الموقف

---

(١) الجبرتى ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٧٩ .

(٢) يذكر الشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الجامع الأزهر ورئيس ديوان القاهرة سبباً آخر ، إذ يقول : « والسبب الذى أوجب لأهل مصر وقراها بعض الانقياد إليهم ، عجزهم عن مقاومتهم ، بسبب هروب المماليك الذين معهم آلات القتال » .

انظر كتابه : تحفة الناظرين ، فيمن ولى مصر من الولاة والسلاطين ، مرجع سبق ذكره ، ص ٥٥ .

ورأى الشرقاوى مردود عليه بأن السلاح الرئيسى لدى المماليك كان سلاح الفرسان ، بينما القوة الضاربة الرئيسية لدى الفرنسيين كانت سلاح المدفعية ، وهو سلاح فتاك ، كفل للفرنسيين الانتصار الخاطف فى المعارك التى خاضوها ، سواء فى شبراريس أو فى إمبابة أو فى غيرها ، وكان سلاح الفرسان يمثل سلاح العصور الوسطى ، بينما كان سلاح المدفعية يمثل العصور الحديثة ، ومن ناحية أخرى فإن هروب المماليك الذى أشار إليه الشرقاوى هو حكم عام ، لاينسحب على جميع =

على علاته بعد دخول الفرنسيين القـــاهرة ، وهم لايستطيعون لهم دفعـــاً ، وظهرت عدة بواعث أملت على هذا الفريق من كبار علماء الأزهر قبـــول عضوية ديوان القاهرة : كان « النظام الجديد » le nouveau régime ، الذى جاءت به الحملة الفرنسية ينبثق عن دولة مسيحية أوروبية ، هى الجمهـــورية الفرنسية ، وكان على رأس النظام الجديد فى مصر الجنرال بونابرت ، وهو مسيحى أوروبى ، ويعاونه فى حكم البلاد كبار القادة الفرنسيين ، وهم على شاكلته ، وكان لامناص من تطعيم هذا « النظام الجديد » بلقاح إسلامى ، وتمثل هذا اللقاح فى كبار المشايخ علماء الأزهر ، الذين وقع عليهم الاختيار لعضوية ديوان القاهرة ، ليشاركوا فى حكم الشعب المصرى عن طريق إبداء المشورة وبخاصة فى مسائل الشريعة الإســـلامية : أدرك بونابرت هـــذه الحقيقة ، كما أدركها علماء الأزهر ، وقد أفصح بونابرت عن هذا الاتجاه فى مذكراته التى أشرنا إليها فى مستهل هذا البحث ، ونقلنا فقرات منها معربة ، وذكرنا جزءاً

= المماليك ، لأنه إذا كان الأمير إبراهيم بك قد هرب إلى الشرقية ، فإن الأمير مراد بك قـــد انسحب إلى الصعيد ، وفارق كبير بين هروب قائد وبين انسحاب قائد ، وقد انسحب مراد بك ليعيد تنظيم قواته ، ويعاود النضال من جديد ، وقد رفض عرض بونابرت فى أغسطس ١٧٩٨ بعقد صلح معه ، على أساس تخويل مراد بك حكم الصعيد ، من شلال أسوان جنوباً ، إلى ما يلى جرجا شمالا بنصف فرسخ ، على أن يكون تابعاً لفرنسا ، وأن يدفع لخزانة الجيش الخراج المقرر على هذه الأقاليم . وكان مراد بك مصدر متاعب جمة للفرنسيين ، تجنب الاشتباك معهم فى معارك حاسمـــة ، ولجأ إلى نوع من الحرب يجيده المماليك وهو حرب الكر والفر ، وكان إذا أدرك أن المعـــركة تدور فى غير مصلحته ، انسحب إلى الصحراء ، أو إحدى الواحات ، ليسترد أنفاسه ، ويعيـــد تنظيم صفوفه ، ثم يعيد الكرة على الفرنسيين ، وانضم إليه أهالى الصعيد المسلمون ، وكذلك عرب الحجاز الذين تطوعوا للدفاع عن مصر ، وعبروا البحر الأحمر من جدة إلى القصير ، واجتازوا الصحراء الشرقية إلى قنا ، وتطلق عليهم المصادر الفرنسية اسم « المكاويون » les Mecquois وهى تسمية تنطوى على خطأ ، لأنهم لم يكونوا جميعاً من مكة المكرمة ، بل كان منهم أهالى المدينة المنورة ، والطائف ، وينبع ، وجدة ، وسائر جهات الحجاز ، وقد بلغ عددهم ثمانية آلاف مقاتل ، نفروا خفافاً وثقالا ، وصمموا على الفوز بإحدى الحسنيين : الاستشهاد فى سبيل الله ، أو النصر ، ولذلك كانوا خصوماً أشداء للفرنسيين .

منها بنصها الفرنسى ، وأفصح عن هذه الحقيقة أيضاً الشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الجامع الأزهر ، وهكذا التقى علماء الأزهر وبونابرت عند ضرورة إيجاد حلقة اتصال بين السلطات الفرنسية وبين الشعب المصرى : وقد ذهب الشيخ الشرقاوى إلى القول بأن إنشاء الدواوين ، سواء فى القاهرة أو فى الأقاليم وإشراك علماء الأزهر فى عضويتها، إنما كان رحمة بالشعب المصرى . وكما تركنا بونابرت يعبر عن رأيه فى هذه المسألة ، ندع الشيخ عبد الله الشرقاوى يفصح عن وجهة نظره فيها ، وقد مهد لها برأيه فى الفرنسيين من حيث نزعتهم نحو الإباحية ، وابتعادهم عن المسيحية الحقة : قال عنهم : « إنهم فرقة من الفلاسفة إباحية طبائعية [١] ، يقال لهم نصارى قاتوليقية [٢] ، يتبعون عيسى — عليه السلام — ظاهراً ، وينكرون البعث والدار الآخرة وبعثة الأنبياء والمرسلين ويقولون إن الله واحد ، لكن بطريق التعليل ، ويحكون العقل ، ويجعلون منهم مدبرين يدبرون الأحكام ، يضعونها بعقولهم ، ويسمونها شرائع ، ويزعمون أن الرسل محمداً وعيسى وموسى كانوا جماعة عقلاء ، وأن الشرائع المنسوبة إليهم كناية عن قوانين وضعوها بعقولهم ، تناسب أهل زمانهم [٣] . ولذا جعلوا فى مصر [٤] وقراها الكبار [٥] دواوين يدبرون ما يناسب أهل البلاد بحسب عقولهم ، وكان ذلك رحمة بأهل مصر ، فإنهم جعلوا من جملة ديوانها

---

(١) أى ذوو طباع تتسم بالإباحية .

(٢) أى كاثوليك .

(٣) يلاحظ أن معظم هذه الآراء التى رددها الشيخ الشرقاوى قد وردت فى منشور السلطان سليم الثالث إلى الشعب المصرى يأمره بالجهاد الدينى ضد الفرنسيين .

(٤) يقصد بمصر مدينة القاهرة .

(٥) القرى الكبار : يقصد بها عواصم المديريات .

جماعة من المشايخ ، وصاروا يراجعونهم فى بعض أشياء لا تليق بالشرع[١] . »

وهناك باعث آخر لعلماء الأزهر على قبول عضوية ديوان القاهرة ، فقد كانوا مدفوعين برغبتهم فى أن يكونوا فى مركز رسمى يسمح لهم بالتدخل لدى سلطات الاحتلال ، لدفع أذى الفرنسيين عن الشعب ، وكان قيام كبار المشايخ علماء الأزهر بهذا الدور إبان الحكم الفرنسى استمراراً للدور الذى قاموا به من قبل فى أثناء الحكم العثمانى — بصفتهم زعماء الشعب — من التدخل لدى الحكام البغاة ، وبخاصة الأمراء المماليك ، لرفع المظالم التى كانت تنهال على الشعب من يمين ويسار . وقد تمثلت آنذاك فى الغالبية العظمى من كبار علماء الأزهر الزعامة الشعبية ، الحانية ، العطوفة ، النظيفة التى كانت لاتبغى من وراء تدخلها لدى الحكام جزاء ولا شكوراً[٢] . وفى خلال سنوات الاحتلال الفرنسى الذى استطال ثلاثة أعوام وبعض عام ، قام علماء الأزهر بدورهم التقليدى ، واستطاعوا فى وسط الأزمات السياسية والحربية التى حفلت بها هذه الفترة أن يدرأوا عن الشعب الكثير من أذى الفرنسيين ، وإن لم يسلم كبار علماء الأزهر أنفسهم من هذا الأذى فى بعض الأوقات العصيبة الحالكة السواد التى مرت بالفرنسيين ، وبخاصة فى الفترات التى صحبت أو أعقبت قيام المصريين بالثورات عليهم . ولكن كان هناك فارق كبير بين دور علماء الأزهر فى العصر العثمانى المملوكى ، وبين دورهم على عهد الحملة الفرنسية : كان تعاونهم مع الأمراء المماليك يقوم على التعاون الاختيارى ، بينما كان دورهم أيام الاحتلال الفرنسى هو خضوع ضرورة[٣] . وكانت صلات علماء

(١) تحفة الناظرين ، مرجع سبق ذكره ، ص ٥٥ .

(٢) انظر بحثنا الثانى الذى نوقش فى الندوة العلمية الدولية لألفية القاهرة ، وكان موضوعه « دور الأزهر فى الحفاظ على الطابع العربى لمصر إبان الحكم العثمانى » ، وقد نشر فى المجلد الثانى من بحوث الندوة ص ص ٦٦٧ — ٧٢٥

(3) Dr. Afaf Loutfi El Sayed.

فى البحث الذى تقدمت به إلى مؤتمر لندن لتاريخ مصر الحديثة فى أبريل ١٩٦٥ ، ونشر فى مجلد بحوث المؤتمر ، ص ص ٢٧١—٢٧٢

الأزهر أعضاء الديوان بالسلطات الفرنسية صلات تقوم على مداراة الفرنسيين والتظاهر بمجاملتهم ، ولكن كانت قلوبهم نافرة من الحكم الفرنسى .(١)

كان علماء الأزهر الذين قبلوا عضوية الديوان يشعرون فى قرارة نفوسهم أن هذه العضوية لاتشرفهم، وأن الشعب قد ظن بهم الظنون ، ولم يكن لهذا الديوان سلطة قطعية فى أية مسألة تعرض عليه، وكانت السلطة العسكرية ، الممثلة فى قيادة الجيش الفرنسى ، هى المرجع الأعلى فى كل المسائل التى تعرض على الديوان ، وكانت سلطة هذا الديوان لاتتجاوز حدود مدينة القاهرة ، وكان نشاط المشايخ مقيداً بتعهدهم بألا يتصرفوا تصرفاً يضر بمصالح الفرنسيين ، ولذلك كانوا يعملون — كما ذكرنا — تحت رقابة مستمرة دقيقة من رجال المخابرات الفرنسية : ومما هو جدير بالذكر أن بونابرت لم يهدف إطلاقاً إلى إقامة حياة نيابية فى مصر ، كما يظن بعض الباحثين ، فإن هذا الحاكم العسكرى لم يكن يطمئن إطلاقاً إلى الأنظمة النيابية ، وهو لم يطبقها فى فرنسا ، فمن باب أولى ألا ينشئها فى مصر :

كان بونابرت من ناحية أخرى حريصاً على أن يختار لعضوية الديوان أكثر العلماء منزلة ، وأعظمهم جاهاً ، وأكثرهم مهابة ، وأوفرهم نفوذاً ، ليضفوا على الديوان أهمية ومكانة فى نظر الجماهير ، وكان فى تأليفه من كبار العلماء تنويه ظاهر بأهمية الجامع الأزهر ، ومكانة علمائه ، والاعتراف بزعامتهم(٢) ، وكان يقابل هذا الإصرار من ناحية بونابرت تحرج من جانب علماء الأزهر : حدثت مشادة عنيفة بين بونابرت وبين الشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الجامع الأزهر ورئيس ديوان القاهرة : كان بونابرت قد

(1) Rifaat M.; The Awakening of Modern, Egypt. London, 1947, pp. 8 - 9.

(٢) محمد عبد الله عنان ؛ تاريخ الجامع الأزهر . القاهرة ، ١٩٥٨ ، الطبعة الثانية ، ص ١٥٥

طلب أعضاء هذا الديوان للحضور فى أول سبتمبر ١٧٩٨ إلى مقر القيـادة العامة للجيش الفرنسى فى الأزبكية ، ولما استقر بهم المقام نهض بونابرت وغادر الصالون الكبير ، ثم عاد وبيده طيالسة (١) ، يحمل كل طيلسان منها ثلاثة ألوان : الأزرق ، والأبيض ، والأحمر ، وهذه الألوان الثلاثة هى شعار الثورة الفرنسية ، وغدت ألوان العلم الفرنسى ، وأراد بونابرت أن يضع علماء الأزهر هذا الرداء المثلث الألوان على أكتافهم وفوق ملابسهم . ورأى بونابرت من باب التكريم أن يضع بيده الطيلسان على كتف الشيخ الشرقاوى ، فاحمر وجه الشيخ واستشاط غضباً ، ورمى به إلى الأرض ، وغضب بونابرت من هذا التصرف ، وقال إن الشيخ الشرقاوى لا يصلح للرياسة . وقد حاول عبثاً المستشرق ڤانتور Venture كبير مترجمى الحملة أن يقنع سائر المشايخ بأن ارتداءهم الطيلسان تكريم لهم ، يرفع منزلتهم فى أعين الفرنسيين ، ويجعل الجنود يؤدون لهم التحية العسكرية كلما مروا بهم ، وكان مما جاء على لسان هذا المستشرق قوله : « يا مشايخ ، أنتم صرتم أحباباً لصارى عسكر ، وهو يقصد تعظيمكم ، وتشريفكم بزيه وعلامته ، فإن تميزتم بذلك عظمتكم العساكر والناس ، وصار لكم منزلة فى قلوبهم . » فقالوا له جملة معبرة ، تصور مدى الحرج الذى كانوا يشعرون به : « ولكن قدرنا يضيع عند الله ، وعند إخواننا المسلمين (٢) » ، ورأى بونابرت أنه إذا أصر المشايخ علماء الأزهر على رفض ارتداء الطيلسان ذى الألوان الثلاثة ، فلا مناص من أن يضعوا فوق صدورهم « الجوكار (٣) » ، وهى العلامة التى يقال لها الوردة ، فقالوا

---

(١) يذكرها الجبرتى طيلسانات ، فى صيغة جمع المؤنث السالم ، وهذا خطأ ، ومفردها طيلسان ، ويقصد به « شال » ، أى قطعة كبيرة من القماش ، توضع على الكتفين وتغطيهما .

(٢) الجبرتى ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ١٦ .

(٣) الجوكار : كلمة فرنسية ، كتبها الجبرتى باللغة العربية كما سمعها ، وقد وردت فى كتابه فى أكثر من موضع (ج ٣ ، وعلى سبيل المثال ص ٣ ، ١٦ ، ١٧) ، والأصل الفرنسى للكلمة هو la cocarde بمعنى شارة أو علامة أو شريط أو وردة من حرير ، وقد =

أمهلونا حتى نتروى فى ذلك ، واتفقـوا على اثنى عشر يوماً » : وقد أراد بونابرت من حمل علماء الأزهر أعضاء الديوان على وضع شارة الجمهـورية ترغيب الشعب فى الاقتداء بزعمائه ، ووضع هذه الشارة المثلثة الألوان[1] ، وإن كثرة الأوامر التى كان يصدرها بونابرت تباعاً فى هذا الصدد ، ممـا يدل على اهتمامه الزائد بإلزام المصريين بحمل شعار الجمهورية . وفى أحد الأوامر

= شرح الجبرتى هذه اللفظة بقوله : « والجوكار ثلاث قطع من جوخ أو حرير أو غير ذلك ، مستديرة فى قدر الريال ، سوداء وحمراء وبيضاء ، توضع بعضها فوق بعض ، بحيث تكون كل دائرة أقل من التى تحتها ، حتى تظهر الألوان الثلاثة كالدوائر المحيط بعضها ببعض » . ص ٣ ، وقد أخطأ الجبرتى فى إيراد كلمة (سوداء) ، وصحتها زرقاء ، ولعل قطعة الجوخ كانت زرقاء ، قاتمة اللون إلى حد بعيد جداً ، فاعتبرها أو اعتقدها سوداء .

أما نقولا ترك فيكتب هذه اللفظة « كوكاردا » ، ويشرحها بأنها « النيشان الفرنساوى » .

انظـر :

مذكرات نقولا ترك ، نشر وترجمة وتعليق الأستاذ ڤيت ، ص ١٦ .

(١) أصدر بونابرت أمراً يحتم على جميـع سكان مصر حمل الشارة المثلثـة الألوان ، وأمر بألا تسمح السلطات الفرنسية ابتداء من أول شهر فاند يمير Vendémiaire من السنة السابعة من التقويم الجمهورى (٢٢ من سبتمبر ١٧٩٨) أية شكوى أو مظلمة ، أو طلب من أحد أفراد الشعب المصرى ، إلا إذا كان حاملا هذه الشارة . وقد أنف المصريون من وضع الشارة اقتداء بعلمـاء الأزهر ، وتراجع بونابرت . يقول الجبرتى : إن بونابرت أمر بإلغاء هذا الأمر بالنسبة لعـامة الشعب ، وألزم بعض الأعيان ، ومن يريد الدخول عند الفرنسيين لحاجة من الحاجات بوضعها ، فكانوا يضعونها إذا حضروا عندهم ، ويرفعونها إذا خرجوا من عندهم ، واستمر هذا النظام معمولا به بضعة أيام ، ثم صرف النظر عنه » .

انظر كلا من :

الجبرتى ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ١٧ .

وجريدة :

Courrier de l'Egypte. No, 6. Le 2ème jour complémentaire VI année de la République.

ومجموعة مراسلات نابليون .

Correspondance de Napoléon t. IV.

وثيقة رقم ٣٢٣٩ مؤرخة فى ١٨ من شهر فركتيدور من السنة السادسة من التقويم للتقويم الجمهورى (٤ من شهر سبتمبر ١٧٩٨) .

التى أصدرها إلى الجنرال مينو فى رشيد طلب من أعضاء الديوان أن يضع كل منهم على كتفه طيلساناً ، أى شالا مثلث الألوان ، وأن يضع الأغوات حول عمائهم شريطاً مثلث الألوان .[1] ولكن أمام إصرار علماء الأزهر على رفض وضع الشارة على أية صورة من الصور ، صرف الفرنسيون النظر عن هـــذه المسألة جملة وتفصيلا :

وكان حضور علماء الأزهر أعضاء الديوان الحفلات التى كانت السلطات الفرنسية تقيمها فى المناسبات الدينية الإسلامية ، وفى المناسبات القومية الفرنسية نوعاً من الرغبة فى مجاملة الفرنسيين ، أو فى مداراتهم . وإن عضوية علمـــاء الأزهر فى الديوان قد سمحت لهم بالتدخل لدى بونابرت اوقف تنكيله بسكان القاهرة فى أعقاب ثورتهم الأولى فى أكتوبر ١٧٩٨ ، كما نجحت وساطتهم فى إخلاء الجامع الأزهر من الجنود الفرنسيين الذين رابطوا بداخله ، وانتهكوا حرماته بعد إخماد هذه الثورة :

وقد استخدم بونابرت المشايخ أعضـــاء الديوان فى كتابة المنشورات « وتنميقها » لمطالبة الشعب بالإخلاد إلى السكينة ، أو لإذاعة أنباء انتصاراته العسكرية ونحو ذلك من مسائل الإعلام والدعاية ، وكان الشعب يدرك تماماً أن هذه المنشورات لا تصور الحقيقة ، وأنها لا تعبر عن رأى علماء الأزهر أعضاء الديوان ، وأنهم إنمـــا كتبوها رغبة فى مداراة الفرنسيين ، وأن تأييد المشايخ للسلطات الفرنسية إنما هو تأييد شكلى :

ولابد أن نشير إلى موقف علماء الأزهر أعضاء الديوان فى أثناء مقدمات ثورة أكتوبر ١٧٩٨ ، فقد كان رسل السلطان العثمانى وأحمد باشا الجزار ،

(١) وثيقة رقم ٣٢٥٤ مؤرخة فى ٢١ من شهر فركتيدور من السنة السادسة من التقويم الجمهورى (٧ من شهر سبتمبر ١٧٩٨) Correspondance de Napoléon. t. IV

والأمير إبراهيم بك ومن إليهم ، يحملون سراً إلى القاهرة منشورات ومكاتبات تطلب من المصريين القيام على الفرنسيين : وعلم علماء الأزهر أعضاء الديوان بأمر هذه المنشورات ، وكانوا فى ذات الوقت يقابلون بونابرت باستمرار ، ولكنهم التزموا الصمت حيال تداول هذه المنشورات وحيال إذاعتها ، بمعرفة أئمة المساجد ، فلم يخبروا بونابرت بأمرها . ويحمل بعض الباحثين على علماء الأزهر أعضاء الديوان ، ويقولون إن هؤلاء العلماء قد غرروا بالفرنسيين ، وأن تصرفهم كان تصرفاً غير أخلاقى[1] : وقد فات هـذا الفريق من الباحثين أن علماء الأزهـر لم يكونوا من رجال المخابرات الفـرنسية ، ولم يدخـل فى اختصاصاتهم كأعضاء فى ديوان القاهرة التجسس على مواطنيهم ، وإبلاغ السلطات الفرنسية بما يحدث فى العاصمة ، ومن الثابت تماماً أن هؤلاء العلماء أعضاء الديوان لم يسهموا إسهاماً إيجابياً فى تحريض سكان القاهرة على الثورة ، وإنما اكتفوا بمثل هذا الموقف السلبى . وقد ذكر بونابرت فى مذكراته أن أعضاء الديوان زادت هواجسهم بعـد صدور فرمان السلطان ، وخشوا مغبـة تحالف الإنجليز والروس والعثمانيين ضـد الفرنسيين ، واعتقدوا أن الدائرة سوف تدور على الجيش الفرنسى فى الشرق[2] . وإن كل ما نستطيع أن نخلص إليه من هـذا الموقف ومن غيره ، هو أن علماء الأزهر أعضـاء الديوان لم يظهروا ولاء قلبياً لبونابرت ولا للفـرنسيين ، وأن التأييد الذى كان يظهره هؤلاء العلماء كان تأييداً شكلياً ، وأن نجاح بونابرت معهم كان نجاحاً خداعاً

وقد سبق أن شرحنا موقف الشيخ محمـد السادات من ثورة أكتوبر ١٧٩٨ وقلنا إن بونابرت عدل عن إعـدامه ، حين أدرك أن إعدامه يضر بمـركز الفرنسيين ، أكثر ممـا ينفعهم ، ونضيف هنا أن ضباط الجيش الفرنسى وجنوده

(١) كرستوفر هيرولد : بونابرت فى مصر مرجع سبق ذكره ، ص ٢٦٣ .

(2) Napoléon 1er; Guerre d'Orient. etc., ouvr. cit., t. I, p. 245.

نعوا على برنابوت تسامحه وتساهله مع هـــذا الشيخ، وغيره من كبار رجال الأزهر ، وقد وصفهم الضباط والجنود بأنهم أس البلاء الذى نزل بالفرنسيين ، وأنهم مسئولون عن الدم الفرنسى الذى أريق فى الثورة ، وأن مسالكهم لم يكن سليما ، وخلصـــوا من هـــذه الاتهامات إلى أن المشايخ علمـــاء الأزهر رجال « عواجيز منافقون » [1] ، من وجهة النظر الفرنسية بطبيعة الحال :

ومن الأدلة على أن ولاء علماء الأزهر أعضاء الديوان للفرنسيين لم يكن ولاء نابعاً من أعماق قلوبهم ، أن عضويتهم فى الديوان لم تمنعهـــم من إبداء حقيقة مشاعرهم غير الودية نحو الفرنسيين كلما واتتهم الفرص : كانت الدولة العثمانية قد أرسلت جيشاً نزل إلى الشاطئ فى أبى قـــير فى ١٤ من يوليو ١٧٩٩ بقيادة« كوسه لى مصطفى باشا سرعسكر الروملى »وتتابعت انتصارات العثمانيين فى المراحل الأولى للحرب : قصفوا الاستحكامات الفرنســية ، ونالوا من الفرنسيين منالا عظيما ، وقتلوا القومندان جودار Godard قائد القوات الفرنسية فى أبى قير ، واحتلوا البلدة ، وحاصروا القلعة، واضـــطر قائدها، واسمه الكابتن ڤيناش Vinache ، إلى التسليم ، على الرغم من وفرة الذخائر فى القلعة ، ومتانة موقعها ، وكثرة عـــدد أفراد حاميتها . وقد نقل العثمانيون القـــائد الفرنسى وجنوده إلى بارجـــة من قطع الأسطـــول البريطانى بقيادة سير سدنى سمث Sir Sidney Smith ، واحتـــل العثمانيون القلعة فى ١٧ من يوليو ، واستفاضت الأنباء فى القاهرة منذ ٢٢ يوليو بالانتصارات الخاطفة التى أحرزها الجيش العثمانى. قال الجبرتى : « وفى ثامن عشر من صفر ١٢١٤ [2] وردت أخبار وعدة مكاتيب لكثير من الأعيان والتجار

(1) Op. cit., p. 256.

(٢) بدأ شهر صفر ١٢١٤ فى الخامس من يوليو ، وانتهى فى الثانى من أغسطس ١٧٩٩ .

وكلها على نسق واحد تزيد عن المـائة ، مضمونها بأن المسلمين وعسكر العثمانيين ومن معهم[1] ملكوا الإسكندرية[2] فى ثالث ساعة من يوم السبت سادس عشر صفر ، فصار الناس يحكى بعضهم لبعض[3] ...... » ؟

وقد غمرت موجة من الابتهـاج علماء الأزهر أعضاء الديوان بهـذه الانتصارات العثمانية ، واعتبروها بداية النهاية للحكم الفرنسى فى مصر، ولم يتحفظوا فى إبداء ابتهاجهم ، وتناسوا مراكزهم الرسمية التى كانت تتطلب منهم مجاملة الفـرنسيين ، أو على الأقل التظاهر بالمجاملة . وسرعان مالاحظت السلطات الفرنسية فى القاهرة أن التصرفات التى تصدر عن المشايخ أعضـاء الديوان يغلب عليها الطابع غير الودى نحو الفرنسيين ، بل إنها تتعارض مع المصالح الفرنسية ، ففضلا عن الابتهاج الذى لم يحاولوا إخفاءه وقع صدام بين أعضاء الديوان وبين محافظ القاهرة ، واسمه مصطفى أغا ، وكان معروفاً عنه أنه من عملاء الفرنسيين ، ومن أعوان الحكم الفرنسي[4] : أراد أن يقتل كل يوم عدداً من الأهلين بدون أدنى سبب ، سوى إشاعة الإرهاب فى نفوس سكان القاهرة ، حتى لا يقوموا بثورة على الفرنسيين في أثنـاء اشتباك الأخيرين فى الحرب ضد العثمانيين فى أبى قير ، ووقف المشايخ فى وجه المحافظ يطالبونه

(١) تحمل عبارة الجبرتى دليلا جديداً على الطابع الإسلامى للمجتمع ، وأن الجنسيات ومسمياتها لم تكن تفرق بين المسلمين .

(٢) كان إيراد الخبر على هـذا النحو لايخلو من المبالغـة ، لأن العثمانيين لم يقـتربوا من الإسكندرية ، بل ظلوا مرابطين فى أبى قير ، بعد أن أحرزوا الانتصارات الخاطفة .

(٣) الجبرتى ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٧٧ .

(٤) كان الفرنسيون قد عزلوا فى ١٤ من أكتوبر ١٧٩٨ المحافظ السابق محمد المسلمانى الذى كان قد عين بناء على اقتراح أعضاء ديوان القاهرة فى أول إنشاء هذا الديوان ، وصدر قرار فى ذات اليوم بتعيينه وكيلا لأمير الحج ، وعين الفرنسيون مكانه مصطفى أغا محافظا للقاهرة ، وظـل فى منصبه حتى لقى مصرعه فى ثورة القاهرة الثانية .

بإطلاق سراح المعتقلين قبل أن يتم قتلهم ، وتصدى الشيخان محمد المهدى ومصطفى الصاوى للمحافظ ، وأخذا يعنفانه على تصرفاته ، وينذرانه بسوء العاقبة ، وتدخل الجنرال دوجا Dugua بين أعضاء الديوان وبين المحافظ . وازدادت مخاوف الجنرال حين نقل إليه البعض أن سكان القاهرة يتأهبون للثورة على الفرنسيين ، فأرسل الجنرال دوجا فى طلب الشيخ المهدى « وتكلم معه فى شأن ذلك وحاججه ، وأصبحوا فاجتمعوا بالديوان ، فقام المهدى خطيباً ، وتكلم كثيراً ، ونفى الريبة ، وكذب أقوال الأخصام ، وشدد فى تبرئة المسلمين عما نسب إليهم »[1] ، ويعلق الجبرتى على موقف الشيخ المهدى بقوله : « وهذا المقام من مقاماته المحمودة » :

ويقرر الفرنسيون أن الصدر الأعظم كان متصلا بعلماء الأزهر أعضاء الديوان ، وكان هؤلاء المشايخ يطلبون منه أن يعتذر نيابة عنهم للسلطان عن مظاهر الود الذى يبدونه فى العلن للفرنسيين ، ويؤكدون للصدر الأعظم فى خطاباتهم أن هذا العطف الظاهرى يخفى وراءه فكرة مسبقة بتأييد السلطان ونبذ الفرنسيين ، كما كانت توجد مراسلات سرية بين معظم مشايخ الأزهر أعضاء الديوان ، وبين قادة الجيش العثمانى الذى كان يتجمع فى دمشق :

ووقع اختيار السلطات الفرنسية فى القاهرة على پوسيلج Poussielgue مدير الشئون المالية للجيش ، ليراقب عن كثب تصرفات علماء الأزهر أعضاء الديوان ، ويوافى بها بونابرت فى أبى قير ، ويصفه أحد كبار المؤرخين والسياسيين الفرنسيين بأنه مراقب ذو نظر ثاقب ، ورأى سديد[2]

(١) الجبرتى ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ٧٥ .

2) Reybaud Louis et autres, ouvr. cit., t. IV, p. 229.

observateur judicieux et fin ، وفى خطاب بعث به فى السادس من أغسطس ١٧٩٩ إلى بونابرت فى أبى قير عبر بوسيلج عن رأيه فى علماء الأزهر أعضاء الديوان فقال : إن معظمهم خونة أو متعصبون ، وتكلم ريبو Reybaud عن مسلك أعضاء الديوان إبان الفترة العصيبة التى واجهها الفرنسيون بنزول العثمانيين فى أبى قــير فقال : « وفى كل يوم كانت تقع حوادث جديدة ، تكشف عن هذا التغير فى مسلك الديوان ، وفى اتجاهه ضد الفرنسيين ، فتارة كان يتجاوز اختصاصاته ، ويسىء استغلال سلطته بصورة لا يمكن احتمالهــا ، وتارة أخرى كان يحدث صدام بين أعضاء الديوان وبين رؤساء الشرطة من أجل إطلاق سراح مسلم مذنب ، وتارة ثالثة كان يعمد إلى تخفيض الضرائب المقررة على مشايخ البلاد ، للإضرار بمصالح جامعى الضرائب الأقباط . وفى كل مناسبة كانت تبدو على أعضائه روح جديدة كانت تتسم بالعداء للغزاة الذين استولوا على مصر ، وكانت مصالح أخرى هى التى أوحت بهــذه الروح الجديدة المعادية » .

وقابل علماء الأزهر بفتور ووجوم شديدين الأنباء التى تعاقبت بعــد ذلك عن النكسة التى حلت بالعثمانيين فى موقعة أبى قير البرية (٢٥ من يوليو ١٧٩٩) ووقوع مصطفى باشا القائد العثمانى فى الأسر ومعه ثلاثة آلاف جندى ، عــدا ثمانية آلاف جندى بين قتيل وغريق وجريح ، واستيلاء الفرنسيين على مدافع الجيش العثمانى وذخيرته : ولاحظ الفرنسيون الكآبة التى علت وجوه أعضاء الديوان ، فازدادت نقمتهم عليهم ، وأمرت السلطات الفرنسية فى القــاهرة بإطلاق المدافع من القلعة ، وعرض كتائب الجيش فى شوارع القاهرة وإقامة

حفلات ابتهاجاً بانتصار الفرنسيين فى معركة أبى قير البرية ، ومع ذلك فقد ظل علماء الأزهر على حالتهم النفسية المكتئبة[(١)] :

وكان بونابرت قد أمر بترحيل الأسرى العثمانيين من أبى قير إلى القاهرة ، فلما بلغوها أشار بعرضهم فى الأزبكية ، ليراهم سكان العاصمة[(٢)] ، ثم أمر بأن

(1) Le Divan lui même avait des vœux secrets en faveur des Osmanlis, et cherchait peu à cacher sa joie des premiers succès de Moustafa - Pacha.

Plus tard même, et après que le canon de la citadelle eut annoncé l'éclatante victoire d'Abouqyr, l'attitude de cette assemblée resta froide et peu affectueuse. Loin d'accueillir, comme autrefois, avec un plaisir enthousiaste, ce succès des armes françaises, elle parut s'en soucier à peine,. . .

Pour un œil de longue portée, il était visible que la plupart des cheyks du Divan subissaient alors des influences extérieures. Une correspondance secrète existait entre eux et les chefs des troupes ottomanes, qui se formaient dans les plaines de Damas.... Le Grand Vizir lui-même se trouvait en relations avec les cheyks et les ulémas, et ceux - ci, dès cette époque, cherchaient à excuser, aux yeux du Sultan, leurs sympathies publiques pour les Français, par l'arrière - pensée d'une trahison en faveur de la Porte.

Chaque jour, des faits nouveaux venaient trahir ce changement de direction dans le Divan. Ses empiètements, ses abus de pouvoir devenaient intolérables. Ici, c'etait un conflit avec les chefs de la police, pour faire relâcher un coreligionnaire coupable; là, c'étaient des réductions accordées sur l'impôt aux cheyks-el-beled, des dégrèvemens (*sic*) prononcés au détriment des percepteurs coptes, partout enfin une tendance nouvelle se révélait, hostile aux conquérans (*sic*) de l'Egypte et conseillée par d'autres intérêts." Op. cit., pp. 226-228.

(٢) رأى بونابرت لدواعى الأمن ألا يدخل مصطفى باشا القائد العثمانى الأسير مدينة القاهرة ، فأرسله مع ابنه إلى الجيزة ، حيث أقاما فى قصر مراد بك ، وأمر بونابرت بمعاملتهما معاملة كريمة انظــر :

Daressy (G.); Moustapha pacha, le prisonnier d'Aboukir. (Bulletin de l'Institut d'Egypte, t. XI, session 1928-1929, pp. 43-70.)

أما سائر الأسرى فقد اقتيد بعضهم إلى قلعــة الجبل ، والبعض الآخر إلى قلعــة سلكوسكى (جامع الظاهر) ، وأبقى الفرنسيون البعض الثالث فى الإسكندرية .

يطاف بهؤلاء الأسرى فى طرقات القاهرة ، ليبدد أى شك خامر القاهريين فى انتصار الفرنسيين ، ويقول نقولا ترك : « حصل عند أهل القاهرة قهر عظيم » [1] ، أى انتابهم حزن شديد عندما تأكدوا من هزيمة العثمانيين .

وقف بونابرت ، عقب وصوله إلى القاهرة ، على حقيقة مشاعر المصريين بعامة ، وعلماء الأزهر أعضاء الديوان بخاصة ، وكان پوسيلج قد أوضح له ما أجمله فى تقاريره إليه ، من ظهور الروح العدائية على المشايخ العلماء ، وانتهز فرصة حضورهم إليه للسلام عليه بعد عودته من الإسكندرية ، كما يقضى عليهم واجبهم كأعضاء فى الديوان ، فوجه إليهم قارص الكلم ، وأنحى باللائمة على الشيخين الصاوى والمهدى . وأمامنا صورتان لهذا المشهد المثير بين بونابرت وأعضاء الديوان ، كتبهما معاصران للحملة ، هما الجبرتى والمعلم نقولا ترك . أما الأول فيقول : « ولما استقر سارى عسكر فى منزله ذهب للسلام عليه المشايخ والأعيان وسلموا عليه ، فلما استقر بهم المجلس قال لهم على لسان الترجمان : إن سارى عسكر يقول لكم إنه لما سافر إلى الشام كانت حالتكم طيبة فى غيابه ، وأما فى هذه المرة فليس كذلك ، لأنكم كنتم تظنون أن الفرنسيس لايرجعون ، بل يموتون عن آخرهم ، فكنتم فرحانين ومستبشرين ، وكنتم تعارضون الأغا فى أحكامه ، وأن المهدى والصاوى ماهم بونو ، أى ليسوا بطيبين ونحو ذلك ... » [2] . أما نقولا ترك فيذكر أن بونابرت قال لهم إنه كان يظن أن المصريين يكنون له حباً ، ويفرحون لانتصاره ، ويتألمون لهزيمته ، ولكنه لمس عكس ذلك تماماً ، ومضى يقول فى حديثه للمشايخ إنه قدم لهم كل مظاهر الحب ، وإنه أكد لهم مراراً أنه يحب النبى

(١) مذكرات نقولا ترك ، ترجمة ونشر وتعليق الأستاذ ڤييت ، ص ٥٩ .
(٢) الجبرتى ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ص ٧٧ — ٧٨

ـــ صلوات الله عليه ـــ لأنه بطل صنديد ، قاد غزوات حربية ناجحة ، وخلص من حديثه إلى القول بأنهم يشعرون بنفور من الفرنسيين ، ويظنون بهم الظنون ، « وسوف يأتى يوم تنبشون فيه الأرض بحثاً عن عظام الفرنسيين ، وتسقونها بدموعكم » (١) . فالروايتان العــربيتان متفقتان فى وصف مشاعر الاستياء التى استحوذت على بونابرت من مسلك المصريين بعامة ، وعلماء الأزهر بخاصة إزاء الحكم الفــرنسى ، وكيف كانوا يستبشرون بكل أزمة يتعرض لهــا الفرنسيون ، أملا فى اهتزاز مركزهم ، والإطاحة بحكمهم :

ومن الأدلة على أن علماء الأزهر كانوا يرون أن عضوية الديوان لاتشرف صاحبها ، أن الاختيار وقع على الشيخ عبد الرحمن الجبرتى المؤرخ ليكون عضواً فى ديوان القاهرة ، عندما أعيد تشكيله على نسق جديد ، على عهد الجنرال مينو ، وأشار الجبرتى إلى هذا التشكيل الجــديد لديوان القاهرة فى حوادث شهر جمادى الآخرة ١٢١٥ (٢٠ أكتوبر — ١٧ نوفمبر ١٨٠٠) ، وذكر اسمه بطريقة ملتوية مبهمة ، بعيدة عن الصراحة التى عرفت عنه . قال « شرعوا فى ترتيب الديوان على نسق غير الأول ، من تسعة أنفــار متعممين لاغير ، وليس فيهم قبطى ولا وجاقلى (٢) ، ولا شامى ولا غير ذلك ، وليس فيه خصوصى وعمومى على ما سبق شرحه ، بل هو ديوان واحد مركب من تسعة رؤساء ،

(١) النص الحرفى لنقولا ترك هو : «فسوف يأتيكم زمان الذى به تفتشون على عظام الفرنساوية وتبكون عليها » ، ص ٥٩ ، وقــد أثبتنا فى المتن ترجمتنا للنص الفــرنسى الذى كتبه الأســتاذ ڤيت ، وهو :

"Une jour viendra oû vous déterrerez les ossements des Français pour les arroser des vos larmes", p. 78.

وانظر بخصوص هذا الحديث الذى دار بين بونابرت وبين علماء الأزهر .

Chauvin; ouvr. cit., pp. 20-21.

(٢) وجاقلى : جمعها وجاقلية ، مشتقة من الكلمة التركية ، أوجاق بمعنى الموقد ، ثم استخدمت بمعنى فرقة عسكرية ، والوجاقلى أحد العسكريين .

هم : الشيخ الشرقاوى رئيس الديوان ، والمهدى كاتب السر ، والشيخ الأمير ، والشيخ الصاوى، وكاتبه ، والشيخ موسى السرسى ، والشيخ خليل البكرى ، والسيد على الرشيدى نسيب سارى عسكر ، والشيخ الفيومى ... »
وبدلا من أن يذكر الجبرتى اسمه صريحاً عمد إلى التعمية ، وعبر عن اسمه بكلمة « كاتبه » ، وقد وردت هذه اللفظة بعد اسم الشيخ الصاوى ، وقد يختلط الأمر على البعض ، إذ يظنون أن المقصود هو كاتب الشيخ الصاوى ، ولا يمكن أن يكون هذا الأسلوب فى التعبير عن نفسه مظهراً من مظاهر تواضع العلماء ، إنما كان شعوراً منه بالحرج يفتعل فى أعماق نفسه .

أزمة عدم ثقة

والحق أنه كانت هناك أزمة عدم ثقة بين الأزهر والاحتلال الفرنسى ، وقد أظهر الفرنسيون شعوراً عدائياً سافراً نحو علماء الأزهر ، بعد إخماد ثورة القاهرة الثانية التى اشتعلت فى ٢٠ مارس ١٨٠٠ ، واستطالت كما ذكرنا ، ثلاثة وثلاثين يوماً حتى ٢١ أبريل ، لم تكن زعامة هذه الثورة خالصة لعلماء الأزهر وغيرهم من قطاعات الشعب المصرى ، ولكن شاركهم فى التحريض عليها وزعامتها وقيادتها العسكريون العثمانيون ، والأمراء المماليك .
كما أنها بدأت فى حى بولاق ، عندما تنادى إليها الحاج مصطفى البشتيلى ، ومع ذلك فقد صب الجنرال كليبر جام غضبه على كبار المشايخ علماء الأزهر ، ودعاهم إلى الاجتماع به فى صباح يوم الجمعة ٣ من مايو ١٨٠٠ (٨ من ذى الحجة ١٢١٤) ، ولم يدر بخلدهم شىء عن المفاجأة المفزعة التى أعدها لهم كليبر ، والتى جعلت هذا الاجتماع هو أحلك اجتماع شهدوه [١] ، قابلهم مقابلة جافة ،

---

(١) انظر تفصيلات وافية عن هذا الاجتماع فى مؤلفنا « عمر مكرم بطل المقاومة الشعبية » . القاهرة ، ١٩٦٧ ، ص ص ٧٨ – ٨٣ تحت عنوان « الاجتماع الأغبر » .

ونعى عليهم مسالكهم إبان الثورة ، وقرر أنْ ضررهم على الفرنسيين أكثر من نفعهم لهم ، « لأنكم إذا حضر أخصامنا قمتم معهم ، وكنتم وإياهم علينا ، وإذا ذهبوا رجعتم إلينا معتذرين ، فكان جزاؤكم أن نفعل معكم كما فعلنا مع أهل بولاق من قتلكم عن آخركم ، وحــرق بلدكم ، وسبى حريمكم وأولادكم » ، ودافع علماء الأزهر عن تصرفاتهم ، فقالوا إن الفرنسيين قــد أذاعوا على الشعب نصوص اتفاقية العريش ، متضمنة جلاء القوات الفرنسية عن مصر « وعرفتمونا أننا صرنا فى حكم العثملى من ثانى يوم فى شهر رمضان ، وأن البلاد والأموال صارت له ، وخصوصاً وهو سلطاننا القــديم ، وسلطان المسلمين »[1] ، وقد أنهى كليبر المناقشة بأن أبلغهم أنه قرر فرض غرامة حربية على سكان القاهرة ، حددها باثنى عشر مليون فرنك[2] ، وخص علماء الأزهر بنصيب موفور من هذه الغرامة الفادحة .

وكان على رأس هؤلاء الشيخ محمد السادات ، والشيخ محمد الجوهرى ، والشيخ فتوح الجوهرى ، والشيخ مصطفى الصاوى ، والشيخ العنانى وغيرهم ، وخرج كليبر وأغلق عليهم الباب ، ولمــا أرادوا الأنصراف منعهم الحراس ، وحيل بينهم وبين أداء صلاة الجمعة ، واستمر الحراس متحفظين على علماء الأزهر . واستقر الرأى على إطلاق سراح المشايخ الذين لديهــم مدخرات مالية تكفى لتغطية نصيبهم المقرر عليهم أداؤه من الغــرامة الحربية ، فكان الواحد منهم ينصرف إلى داره لإحضار قيمــة الغرامة ، وهو محاط بجنود مدججى السلاح ، يذهبون ويعودون به لاستيفاء المبالــغ . أما غيرهم ممن عجزوا عن دفع المبلغ بأكمله ، فقد اعتقلوا فى أماكن متفرقة فى القــاهرة ، وامتهنت كرامتهم ، بل أهدرت آدميتهم فى المعتقلات .

(١) الجبرتى ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ١٠٧ .

(٢) ذكر الجبرتى أنها عشرة ملايين فرنك ، بينما أجمعت المصادر الفرنسية على أنها ١٢ مليونا

وقد مر بنا كيف سيق الشيخ محمد السادات إلى القلعة ، حيث اعتقل فى أحد المخازن بها ، حيث كان ينام على التراب ويتوسد بحجر ، ويضرب ضرباً مبرحاً ، صباحاً ومساء .

وظلت نظرة الفرنسيين إلى الأزهر يشوبها الشك والظنون ، والتربص بعلماء الأزهر ، على أساس أنهم الهيئة القديرة على تحريك الشعب ، وإثارة مزيد من المتاعب فى وجه الحكم الفرنسى ، وازداد الفرنسيون إمعاناً فى سياسة الإرهاب ، وخيم على القاهرة جو كئيب ، واجتمعت على سكانها أهوال الحرائق ، والقتل ، والتدمير ، والمجاعة ، والاعتقال ، والتعذيب ، وفرض الغرامة الحربية الفادحة ، وغير ذلك من صنوف التنكيل . وحل عيد الأضحى فى العاشر من ذى الحجة ١٢١٤ (٥ من مايو ١٨٠٠) ، « ومضى ولم يلتفت إليه أحد ، ولم يشعر به أحد ، ونزل بهم من البلاء والذل مالا يوصف ..... وضاق خناق الناس ، وتمنوا الموت فلم يجدوه » (١) .

بخيعة الأزهر فى بعض طلابه

قويت شكوك الفرنسيين فى موقف رجال الأزهر من الاحتلال الفرنسى بعد مصرع الجنرال كليبر فى ١٤من يونيو١٨٠٠ ، فقد كان قاتله سليمان الحلبى من طلاب الأزهر القدامى ، وقضى فى رحابه ثلاثة أعوام ثم غادر مصر ، وعاد إليها بعد ذلك فى ١٤ من مايو ١٨٠٠ يعتقد أنه جاء مغازياً فى سبيل الله ، ونزل فى الأزهر وأقام به شهراً يدرس خطوات وتحركات كليبر ، وتعرف بأربعة من طلاب الأزهر ، أفضى إليهم بعزمه على اغتيال الجنرال كليبر .

---

(١) الجبرتى ؛ مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ؛ ص ١٠٩

وكان التحقيق فى القضية يتجه فى أحيان كثيرة إلى ذكر الشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الجامع الأزهر ، وإلى اصطياد القرائن أو الأقوال التى تثبت علمه أو علم غيره من كبار العلماء بنيـة القاتل (١) ، ولكن لم يسـفر التحقيق فى النهاية عن شىء من ذلك ، وصدر حكم المحكمة العسكرية — التى كانت تتكون من تسعة أعضاء من كبار العسكريين — بإعدام سليمان الحلبى ، وأربعة من طلاب الأزهر ، ونص الحكم على وسائل تنفيذ أحكام الإعدام من الخازوق (٢) ، إلى قطع الرءوس ، إلى إحراق بعض الجثث ، وترك البعض الآخر تفترسها الجوارح (٣) . وجاء فى حيثيات الحكم أن المحكمة وهى تحدد طريقة تنفيذ الإعدام فى المتهمين

---

(١) محمد عبد الله عنان ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٨٠ .

ويقول الجبرتى : إن الفرنسيين أمروا بإحضار الشيخ عبد الله الشرقاوى ، والشيخ أحمد العريشى قاضى القضاة ، وحجزوهما إلى منتصف الليل ، ثم ألزموهما بإحضار الأشخاص الذين وردت أسماؤهم على لسان المتهم ، فذهب الشيخان فى صحبة الأغا وهو المحافظ إلى الجامع الأزهر ، حيث تم القبض على ثلاثة من المطلوب القبض عليهم ، ولم يجدوا الرابع .

ج ٣ ، ص ١١٦ .

(٢) كان الأتراك العثمانيون يستخدمون الخازوق كوسيلة من وسائل ثلاث فى إعدام المذنبين أو الأسرى ، أما الوسيلتان الأخريان فكانتا المنشار والسيف ، وكان السلطان محمد الفاتح يستخدم الطرق الثلاث ، فكانت أوروبا تعرف طريقة الخازوق ، وقد دخلت هذه الطريقة إلى مصر فى عصر دولتى المماليك .

انظر عرضاً لطريقة استخدام الخازوق فى الإعدام ، وشرح الوسيلتين الأخريين فى مؤلفنا : « أوربا فى مطلع العصور الحديثة » . القاهرة ، الجزء الأول ، ١٩٦٩ ، ص ٦٣٧ .

(٣) نص الحكم على أن تحرق اليد اليمنى لسليمان الحلبى ، ثم « يتخوزق » أى يعدم فوق الخازوق وتترك جثته حتى تفترسها الجوارح ، وأن يعـدم شركاؤه الأربعة بقطع رءوسهم ، ثم توضع فوق أبابيت ، ثم تحرق بقية جثثهم ، وأن تنفذ أحكام الإعدام أمام الجنود والأهالى فوق تل العقارب بجهـة الناصرية ، على مقربة من القلعة التى شيدها الفرنسيون فى هذه الجهة ، وعرفت باسم طابية قاسم بك بالناصرية ، أو طابية المجمع العلمى . Fort de l'Institut

قد وضعت فى اعتبارها طريقة الإعدام التى تستخدم فى مصر فى قضايا الجنايات الكبرى والتى تتناسب مع شخصية المجنى عليه[1].

ويعلق الأستاذ عنان على إعدام الطلاب بقوله : « وهكذا فجع الأزهر مرة أخرى ، فى ظل الاحتلال الفرنسى ، فى عدد من طلابه ، بعد أن فجع فى ثورة القاهرة الأولى ، فى عدد من علمائه : بيد أن الفجيعة كانت فى كل مرة عنوان زعامته »[2].

إغلاق الأزهر

وعلى الرغم من أن التحقيق لم يثبت إدانة علماء الأزهر فى مصرع الجنرال كليبر ، إلا أن الفرنسيين لم تطمئن قلوبهم إلى سلامة موقف هؤلاء العلماء . وكان فى تقديرهم للموقف أن إقامة القاتل ثلاثين يوماً فى الأزهر ينسج خيوط فعلته ، دليل على أن الأزهر هو المكان « الصحى » الذى تدبر فيه المؤامرات الكبرى لاغتيال كبار القادة ، وللإطاحة بالحكم الفرنسى . وبدت من الجنرال مينو فى مستهل عهد القيادة الثالثة للحملة تصرفات استفزازية ، فقد ذهب إلى الأزهر فى ٢١ من يونيو ١٨٠٠ ومعه الجنرال بليار Bélliard الحاكم العسكرى لمدينة القاهرة والأغا — المحافظ — وطافوا فى أرجاء الجامع ، وأمروا بحفر بعض الأماكن بداخله ، بحجة التفتيش على الأسلحة ، ثم عملوا حصراً لعدد المجاورين وهم طلاب الأزهر ، وكتبوا اسماءهم فى قوائم ، ثم أمروا

---

(1) Recueil des pièces relatives à la procédure et au jugement de Solyman el-Halaby, assassin du Général en chef Kléber et traduction turc des pièces. Au Caire, an VIII.

وقد أعيد نشر حيثيات الحكم فى :

Revue d'Egypte, II et III, 1895-1896.

وجاء فى النص العربى لحيثيات الحكم ، الذى نشره الجبرتى : « ثم اتفقوا جميعهم — أى أعضاء المحكمة — أن يعذبوا المذنبين ، ويكون لائق للذنب الذى صدر » ج ٣ ، ص ص ١١٧ — ١٣٣ .

(٢) محمد عبد الله عنان ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٨١

بألا يبيت أحد من الغرباء فى الجامع ، وألا يأوى إليه أفاق ، وأخرجوا منه الطلاب العثمانيين ، ومنهم الشوام ، واشتم سائر الطلاب أن السلطات الفرنسية تبيت لهم أمراً ، ورأوا أن يفسدوا عليهــا خطتها ، فشرعوا فى نقل متاعهم ، وكتبهم ، وإخلاء الأروقة ، ونقل الكتب الموقوفة بها إلى أماكن خارجة عن الجــامع .(١)

ورأى الشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الأزهر وزملاؤه أن بقــاء الجامع مفتوحاً فى مثل هــذه الظروف العصيبة التى تجتازها البلاد ، أمر لايخلو من أخطار ، ومن الصعب أن يحسن الفرنسيون الظن بالأزهر ، بعد الأحداث المتعاقبة التى اهتز لها الحكم الفرنسى ، فقر رأى العلماء على أنه من الأفضل إغلاق الجامع كلية ، وكان يترتب على هذا الإغلاق إيقاف الدراسة فى الأزهر وتعطيل شعائر الصلاة . وفى عصر ذات اليوم ذهب وفد من العلماء يتكون من المشايخ الشرقاوى والمهدى والصاوى إلى الجــنرال مينو ، واســتأذنوه فى إغلاق الجامع وتسميره ، وشرحوا له وجهة نظرهم ، فقالوا إنهم يهدفون إلى « منع الريبة بالكلية ، فإن للأزهر سعة لايمكن الإحاطة بمن يدخله ، فربما دس العدو من يبيت به ، واحتج بذلك على إنجاز غرضه ، ونيل مراده من المسلمين والفقهاء ، ولايمكن الاحتراس من ذلك ، فأذن كبير الفرنسيس بذلك لمــا فيه من موافقة غرضه باطناً »(٢) . وفى صباح اليوم التالى ــ الجمعة ٢٨ من محرم سنة ١٢١٥ (٢١ من يونيو سنة ١٨٠٠) تم إغلاق الجــامع وتسمير أبوابه من جميع الجهات . وكانت هذه أول مرة فى تاريخ الأزهر يغلق فيها بعد أن لبث منذ إنشائه نحو ثمانية قرون ونصف قرن مفتوح الأبواب لكل طالب وقاصد .(٣)

---

(١) الجبرتى ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ١٣٤ .
(٢) المصدر السابق .
(٣) محمد عبد الله عنان ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٨٣ .

وكإجراء وقائى تكميلى تم إغلاق وتسمير جامع محمد بك أبى الذهب المواجه للجامع الأزهر ، وأخرج من المدرسة القائمة فيه الطلبة الأتراك (١) .

وظل الأزهر مغلقاً زهاء عام ، ولما أذيعت أنباء الصلح ، وشرع الفرنسيون فى الجلاء بادر أولو الأمر فى يوم الأربعاء ١٩ من صفر ١٢١٦ (الثانى من يوليو ١٨٠١) بفتح أبوابه وكنسه وتنظيفه (٢) . ومن المصادفات الغريبة أنه فى ذات هذا اليوم رحل عن القاهرة مع الفرنسيين برتلمى اليونانى وكثير من أعوان الاحتلال الفرنسى من الأقباط والمسلمين على حد سواء ، وكذلك نصارى الشوام والأروام .

وقد حرص يوسف ضياء باشا الصدر الأعظم على زيارة الجامع الأزهر فى ذات الأسبوع الذى أعيد فيه افتتاحه ، وطاف بمقصورته وأروقته ، وأنعم على خدم الأزهر بالعطايا ، ثم قفل راجعاً إلى معسكره بناحية الحلى بشاطئ النيل فى بولاق ، بعد أن قضى فى رحاب الجامع الأزهر « ساعة لطيفة » (٣) .

* * *

هذه بعض صور من مقاومة الأزهر للاحتلال الفرنسى ، وهى صور حافلة بأروع مظاهر الكفاح والنضال فى تاريخ مصر ، والإسلام ، والعروبة ، فى وجه أول موجة من موجات الزحف الأوروبى الاستعمارى نحو الشرق الإسلامى فى التاريخ الحديث .

وأخفقت سياسة بونابرت الإسلامية إخفاقاً ذريعاً ، لأنه استنام إلى إظهار الاحترام العميق للدين الإسلامى ، أو التظاهر بابداء مثل هذا الاحترام ، واطمأن إلى المشاركة الإيجابية فى الأعياد والمواسم ، والحفلات الإسلامية ،

---

(١) على مبارك ، الخطط التوفيقية ، مرجع سبق ذكره ، ج ٤ ، ص ٣٦ .
(٢) الجبرتى ، مصدر سبق ذكره ، ج ٣ ، ص ١٨٧ .
(٣) المصدر السابق ، ص ص ١٨٧ — ١٨٨ .

والتقرب إلى علماء الأزهر ، وهم لم يبادلوه وداً بود : وكانت مجاملاتهم له من سبيل المداراة ، ولم يقدر بونابرت تمام التقدير أهمية العازل الدينى الذى كان يفصل بين الشعب المصرى والفرنسيين ، فى الوقت الذى كان الفرنسيون بإجراءاتهم وتصرفاتهم وأفعالهم يعصفون بالسياسة الإسلامية للاحتلال . وكان أن اعتمد بونابرت على الحديد والنار فى ضرب الانتفاضات التى كان يقوم بها الشعب فى كل حين وآن ، مما جعل إقامة الفرنسيين فى مصر ، إقامة قلقة غير مستقرة .

وكان الأزهر موئل المعارضين للحكم الفرنسى ، وفى رحاب الأزهر خطط علماؤه لثورة القاهرة الأولى ، وتنادوا إليها ، وأسهموا فيها ، وتحملوا ويلاتها ، وامتهنت حرمات المسجد ، وفجع الأزهر فى ثلاثة عشر عالماً من علمائه .

وفى أعقاب ثورة القاهرة الثانية تعرض كبار علماء الأزهر لأقسى أنواع التعذيب والإيلام ، وفرضت عليهم الغرامات الحربية الفادحة ، وبيعت ممتلكاتهم ، والحلى الذهبية لزوجاتهم ، استيفاء للغرامات التى فرضت عليهم . وتفنن الفرنسيون فى تقديم وجبتى الإفطار والعشاء للشيخ محمد السادات فى معتقله ، وكان قوام كل وجبة خمس عشرة عصا ، تنهال على جسم هذا الشيخ الجليل الطاعن فى السن ، الذى وهن العظم منه ، واشتعل رأسه شيباً .

وعقب مقتل كليبر فجع الأزهر فى بعض طلبته : قطعت رءوسهم ، ووضعت فوق (نبابيت) ، وأحرقت بقية أجزاء جثثهم . أما سليمان الحلبى ، الأزهرى التعليم ، فقد « خوزقه » الفرنسيون ، وبينما كان الاحتلال الفرنسى يلفظ أنفاسه الأخيرة صدرت أوامر القادة الفرنسيين باعتقال شيخ الأزهر وكبار العلماء فى معتقل القلعة . وفى هذا الصدد يقول الشيخ عبد الله الشرقاوى :

« وقد حبسونا فى القاعة مع إخواننا من العلماء ، خوفاً من قيام أهل البلد عليهم ، كما وقع منهم سابقاً ، فمكثنا فى القلعة مائة يوم ، من تسعة ذى القعدة إلى أواخر صفر سنة ست عشرة ومائتين وألف . وسبب خروجنا من الحبس وقوع الصلح بين المسلمين وبين الفرنسيين »(١) ، وقد تخللت فترة الاعتقال وقفة عرفات ، وأيام عيد الأضحى ، ورأس السنة الهجرية ، ويوم عاشوراء ، قضوها فى غيابة المعتقل . وهكذا ظلت أزمة عدم الثقة تخيم على العلاقات بين الأزهر والسلطات الفرنسية ، حتى آخر أيام الاحتلال ، وأثبت الصراع المرير الذى خاضه الأزهر ضد الفرنسيين أنه يحتفظ بحيوية دافقة ، تظهر عند الملمات ، وأنه كان يشكل مركز الصدارة فى الحياة العامة ، فى شتى جوانبها السياسية ، والدينية ، والتعليمية ، والفكرية :



(١) الشيخ عبد الله الشرقاوى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٥٨ .

من أهم المصادر والمــراجع التى ورد ذكرها فى هوامش هذا البحث

أولا : المصادر والمراجع العربية

١ ــ أحمد حافظ عوض :

فتح مصر الحديث أو نابليون بونابرت فى مصر. القاهرة ، ١٩٢٥

٢ ــ الجبرتى .

عبد الرحمن حسن الجبرتى (الشيخ) :

مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس .

مخطوط من ثلاث نسخ فى دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة ، تحمل الأرقام الآتية على التوالى :

١٣٢٨ ، تاريخ ، المكتبة التيمورية .

١٠١ ، تاريخ مكتبة الأمير مصطفى فاضل .

٣٣٠ ، تاريخ .

٣ ــ الجبرتى .

عبد الرحمن حسن الجبرتى (الشيخ) :

عجائب الآثار فى التراجم والأخبار . القــاهرة ، طبعة بولاق ، ١٢٩٧هـ (١٨٨٠م) أربعة أجزاء .

٤ — أمين سامى باشا :

تقويم النيل ، الجزء الثانى ، القاهرة ، ١٩٢٨ م

٥ — شفيق غربال (محمد) :

الجنرال يعقوب، والفارس لاسكاريس، ومشروع استقلال مصر فى سنة ١٨٠١ . القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٣٢ م

٦ — شفيق غربال (محمد) :

منهاج مفصل لدروس العوامل التاريخية فى بناء الأمة العربية على ماهى عليه اليوم . مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية . القاهرة، ١٩٦١ م

٧ — عبد الرحمن الرافعى :

تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر . القاهرة ،

الجزء الأول الطبعة الرابعة، ١٩٥٥ م

الجزء الثانى الطبعة الثالثة ، ١٩٥٨ م

٨ — عبد الرحمن زكى (دكتور) :

موسوعة مدينة القاهرة فى ألف عام . القاهرة ، ١٩٦٩ م

٩ — عبد العزيز محمد الشناوى (دكتور) :

عمر مكرم، بطل المقاومة الشعبية : القاهرة ، ١٩٦٧ م

١٠ — عبد العزيز محمد الشناوى (دكتور) :

دور الأزهر فى الحفاظ على الطابع العربى لمصر إبان الحكم العثمانى .

بحث نوقش فى الندوة العلمية الدولية لألفية القاهرة (مارس— إبريل ١٩٦٩) ، ونشر فى المجلد الثانى من بحوث الندوة . مطبعة دار الكتب، القاهرة ، ١٩٧١ ، ص ص ٦٦٧ — ٧٢٥

١١ — عبد الله الشرقاوى (الشيخ) :

تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من الولاة والسلاطين . القاهرة ، طبعة بولاق ، ١٢٨٦هـ (١٨٦٩ — ١٨٧٠ م) .

١٣ — على مبارك باشا :

الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة . القاهرة، طبعة بولاق، ١٣٠٦ هـ (١٨٨٨ م) : عشرون جزءا .

١٤ — كرستوفر ج . هيرولد :

بونابرت فى مصر . ترجمة فؤاد اندراوس . القاهرة ، ١٩٦٧ .

١٥ — محمد حافظ غانم (دكتور) :

مبادئ القانون الدولى العام : دراسة لضوابطه الأصولية ولأحكامه العامة . القاهرة ، ١٩٦١ .

١٦ — محمد رفعت رمضان (دكتور) :

على باك الكبير . القاهرة، (لم تذكر سنة الطبع) ، الناشر : دار الفكر العربى .

١٧ — محمد عبد الله عنان :

تاريخ الجامع الأزهر . القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٥٨ .

١٨ — محمد فؤاد شكرى (دكتور) :

الحملة الفرنسية وظهور محمد على . القاهرة، (لم تذكر سنة الطبع) الناشر : دار المعارف .

١٩ — محمد فؤاد شكرى (دكتور) :

عبد الله جاك منو وخروج الفرنسيين من مصر، القاهرة ، ١٩٥٢ .

٢٠ — نقولا الترك (المعلم) :

ذكر تملك جمهور الفرنساوية الأقطار المصرية والبلاد الشامية :
نشر وترجمة وديجرانج ، باريس ، ١٨٣٩ .

٢١ — نقولا ترك (المعلم) :

مذاكرات نقولا ترك : نشر وترجمة وتعليق الأستاذ ڤيت چاستون :
القاهرة ، مطبعة المعهد الفرنسى للآثار الشرقية ، ١٩٥٠ :

٢٢ — فهرس الآثار الإسلامية بمدينة القاهرة : طبعة سنة ١٩٥١ .

ثانيـا : المصادر والمراجع غير العربية

1 — Afaf Loutfi El - Sayed, Dr.: The Role of the 'Ulamā' in Egypt during the early nineteenth century.

A study presented to the Conference on the Modern History of Egypt, held in April, 1965, at the School of Oriental and African Studies in the University of London.

2 — Bainville Jacques ; L'Expédition Française en Egypte. (1798 - 1801).

dans:

Précis de l'Histoire d'Egypte, par divers historiens et archéologues. 4 vols. tome troisième. Le Caire, 1933, deuxième partie.

3 — Belliard; Mémoires du comte Belliard, lieutenant - général, paire de France, écιits par lui - même, recueillis et mis en ordre par M. Vinet, un de ses aides de camp. Paris, 1842, 3 Vols.

4 — Berthier (général), Relation des campagnes du général Bonaparte en Egypte et en Syrie. Paris, an IX (1801).

5 — Bourienne (Louis Antoine Fauvelet de); Mémoires de M. Bourienne, ministre d'Etat, sur Napoléon, le Directoire, le Consulat, l'Empire et la Restauration. Paris, 1829, 10 vols.

6 — Chabrol de: Essai sur les mœurs des habitans (*sic*) modernes de l'Egypte.

dans:

Description de l'Egypte. Séconde édit. t. XVIII, première partie.

7 — Charles-Roux F.; La polotique Musulmane de Bonaparte. Revue des Etudes Napoléoniennes. XIVe année, t. I, 1925.

8 ——————————; Bonaparte, Gouverneur d'Egypte. Paris, 1935.

9 — Chauvin Victor; La Légende Egyptienne de Bonaparte. Mons, 1902.

10 — Copies of Original Letters from the Army of General Bonaparte in Egypt, intercepted by the Fleet under the command of Admiral Lord Nelson. With an English Translation. 1798 - 1799. 2 vols. XXIII - 248 pages; XXXI - 236 pages.

11 — Correspondance de l'Armée française en Egypte, interceptée par l'escadre de Nelson, publiée à Londres, avec une introduction et des notes de la chancellerie anglaise. Traduites en français et suivies d'observations par E. Th. Simon. Paris, an VII (1799).

12 — Courrier de l'Egypte.

جريدة إخبارية سياسية كانت تصدرها الحملة الفرنسية فى
مصر ، وتحتفظ دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة
بمجموعتين من أعدادها ، تحت رقم 539 ورقم 673 .Pér

13 — Daressy G., Mustapha pacha, le prisonnier d'Aboukir. Bulletin de l'Institut d'Egypte. t. XI, session 1928-1929.

14 — Dehérain H.; L'Egypte turque. Pachas et Mameluks du XVI^e au XVIII^e siècle. L'Expédition du général Bonaparte.

dans:

Hanotaux (Gabriel); Histoire de la Nation Egyptienne. t. V.

15 — Desgranges (aîné); Histoire de l'expédition de Français en Egypte par Nakoula el-Turk, publiée et traduite par M. Desgranges aîné. Paris, 1839.

16 — Denon Vivant; Voyage dans la Basse et la Haute Egypte pendant les campagnes du général Bonaparte. Paris, 1803, Quatrième édition. 2 vols.

17 — Deny; Sommaire des Archives Turques du Caire. Le Caire, 1930.

18 — Description de l'Egypte ; ou Recueil des observations et des recherches qui ont été faites en Egypte pendant l'expédition de l'armée française. Paris, seconde édition, dite de Panckoucke. (1821 - 1829), 26 volumes de texte et le même nombre de planches.

19 — Djabarti El, Abd - El - Rahman ; Merveilles Biographiques et Historiques, ou Chroniques du Cheikh Abd El Rahman El-Djabarti. Traduites de l'Arabe par Chafik Mansour Bey, Abdul Aziz Khalil Bey, Gabriel Nicolas Kahil Bey et Iskender Ammoun Effendi. Le Caire, Imprimerie Nationale, 1888 - 1897. 9 vols.

20 — Dozy ; Supplément aux dictionnaires arabes. 2ème édition, Leyde - Paris, 1927.

21 — Galland Antoine, Tableau de L'Egypte pendant le séjour de l'armée française, avec la position et la distance réciproque des principaux lieux de l'Egypte; un coup d'œil sur l'économie politique de ce pays, quelques détails sur ses antiquités, et la procédure exacte de Soleyman, assassin du général Kléber. Paris, 1803, 2 vols.

22 — Geoffroy Saint - Hilaire (E.).; Lettres écrites d'Egypte, recueillies et publiées avec une préface et des notes par E. T. Hamy. Paris, 1901.

23 — Gourgaud et Montholon; Mémoires pour servir à l'histoire de France sous le règne de Napoléon, écrits à Sainte - Hélène par les généraux qui ont partagé sa captivité. Paris, 1823, 7 vols.

24 — Guémard G.; Les inscriptions françaises de l'enceinte du Caire.

Communication rapportée à l'Académie des Inscriptions et Belles - Lettres, le 28 Septembre 1928. Paris, 1929.

25 ———————— ; Histoire et bibliographie critique de la Commission des Sciences et Arts de l'Institut d'Egypte. Le Caire, 1936.

26 — Hazlitt William ; The Life of Napoleon. New York, 10 vols.

27 — Ibrahima Salama Dr. ; L'Enseignement Islamique en Egypte. Le Caire, 1939.

28 — Holt P.M.; Political and Social Change in Modern Egypt. Historical Studies from the Ottoman Conquest to the United Arab Republic. London, 1968.

This volume contains the essays contributed to a Conference on the Modern History of Egypt, held in April, 1965 at the School of Oriental and African Studies in the University of London.

29 — Jehan d'Ivray (Mme Fahmy Bey); Bonaparte et l'Egypte. Paris, 1914.

30 — Jomard; Description de la ville et de la citadelle du Kaire accompagnée de l'explication des plans de cette ville et de ses environs, et de renseignemens (*sic*) sur sa distribution, ses monumens (*sic*), sa population, son commerce et son industrie.

dans :

Description de l'Egypte, t. XVIII, 2ème partie, pp. 113-538.

31 — Lacroix (D.); Bonaparte en Egypte. (1798-1799). Paris, 1899.

32 — La Jonquière (C.); L'Expédition d'Egypte. 1798-1801. Paris, Charles Lavauzelle, 1899-1907. 5 vols.

33 — Martin P.D.; Histoire de l'Expédition française en Egypte (1798-1801) précédée d'un précis de la domination arabe. Paris, 1815, 2 vols.

34 — Meynard Barbier de; Dictionnaire turc-français. Paris, 1881 - 1886. 2 vols.

35 — Napoléon 1er; Guerre d'Orient. Campagnes d'Egypte et de Syrie, 1798 - 1799. Mémoires pour servir à l'histoire de Napoléon dictés par lui-même à Sainte-Hélène et publiés par le général Bertrand. Paris, 1847, 2 vols.

36 ————; Correspondance de Napoléon 1er, publiée par ordre de l'Empereur Napoléon III. Paris, 1858-1870, 32 vols. Tomes IV et V: l'Expédition d'Egypte.

37 — Recueil des pièces relatives à la procédure et au jugement de Solyman el - Halaby, assassin du général en chef Kléber et traduction turke des pièces. Au Caire, an VIII.

38 — Reybaud Louis et autres; Histoire Scientifique et Militaire de l'Expédition Française en Egypte, précédée d'une introduction, présentant le tableau de l'Egypte ancienne et moderne, depuis les Pharaons jusqu'aux successeurs d'Ali-bey, et suivis du récit des événemens (*sic*) servenus en ce pays depuis le départ des Français et sous le règne de Mohammed-Ali, d'après les mémoires, matériaux, documens (*sic*) inédits fournis par MM. le comte Belliard, maréchal Berthier, etc., Paris, 1830 - 1836, 10 vols. Les tomes III à VIII sont consacrés à l'histoire de l'expédition française en Egypte, les rédacteurs sont x. - B. Saintine, J. J. Marcel et L. Reybaud.

39 — Rifaat M.; The Awakening of Modern Egypt. London, 1947.

40 — Samuel Bernard; Mémoire sur les monnoies (*sic*) d'Egypte.
dans :
Description de l'Egypte, t XVI, PP. 267 - 506.

41 — Shafik Ghorbal; The Beginnings of the Egyptian Question and the Rise of Mehemet Ali. A Study in the Diplomacy of the Napoleonic Era based on Researches in the British and French Archives. London, 1928.

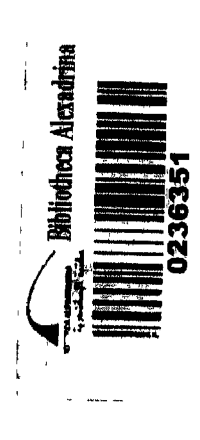
42 — Turc Nicolas; Chronique d'Egypte 1798 - 1804; editée et traduite par Gaston Wiet. Le Caire, 1950.

43 — Turk-el Nakoula; Histoire de l'Expédition des Français en Egypte; publiée et traduite par M. Desgranges aîné. Paris, 1839.

44 — Volney Constantin F.; Voyage en Syrie et en Egypte pendant les années 1783, 1784 et 1785. Paris, 1787.

45 — ———————— ; t II. Voyage en Syrie et en Egypte pendant les années 1783, 1784 et 1785, suivi de considérations sur la guerre des Russes et des Turcs, publiées en 1788 et 1789. Paris, 1822.

رقم الإيداع بدار الكتب ٦٣١٠ لسنة ١٩٧١


Bibliotheca Alexandrina
0236351